بلوك

الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

اسم الكتاب: بلوك
التأليف: عفاف سعيد
موضوع الكتاب: رواية
المراجعة اللغوية: عبد القادر أمين
عدد الصفحات: 248 صفحة
عدد الملازم: 15.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2019/22137
الترقيم الدولي: 978-977-278-766-1

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

رواية

بلوك

عفاف سعيد

دار البشير للثقافة والعلوم

بعضُ الموتِ حياة..

وبعضُ الغَرقِ نجاة..

الإهداء

إلى مَن..

- أعْماني وأنا مُبْصرة...
- وأصَمّني وأنا سَميعة..
- وأخْرَسني وأنا مُتكلّمة.

الإهداء ٢

إلى حسْنائي التي أَلْهَمتْني مِنَ الواقعِ ... حُلْوَ خيالٍ

ليتني ما لامستُه! لم أكنْ أعلمُ أنّه بلمسةٍ واحدةٍ سيتحرّك الجنّيّ الذي يغوصُ في أعماق كلّ شيء ليجْذِبني وأغوصَ أنا في عُمق أعماقِه، ثمّ... ثمّ لا أجدُ للصّعود طريقًا!

ليتَني ما اقتربت! كأنّ أقدامي لامستْ مياهَ محيطٍ ابتلعني سحْرُ أمْواجه في دوّامتها لأصرخَ بصوتٍ مكتومٍ.. ها هيَ يدي، فهل هناكَ مَن ينْتَشلني، أمْ سأظلّ أسيرتَه التي لا يصلُها شيءٌ حقيقيّ؟! التّنفّس خُدعة، الدّفء مزيّف، السّطح مغطّى بالثّلوج التي ظننتُها يومًا قلوبًا بيضاء، ألهثُ لأجدَ طريقًا؛ لكنّي في النّهاية أرتطِمُ، فأستسْلِم وأعود.

ذلك الماردُ الذي أطلقتُه بيدي، مَن جرّته ليحقّق لي الأمْنيات فسحبَ نقاءَ قلبي ثمنًا، يتغذّي عليه قطعةً قطعة، يرتشفُ روحي قطرةً قطرة، وأنا في اسْتسلامٍ أسْتعذبُ العذابَ، ولنْ أنكرَ أنّني قد استمتعتُ به.

حاولتُ- مرارًا- أنْ أنقذَ آخرَ قِطَعي وآخرَ قَطَراتي دونَ فائدة، ذلك العالمُ الذي لا موتَ فيه ولا حياة.. أموتُ أنا فيه على فَترَات، تموتُ بداخلي واحدةٌ لتنطلقَ أخرى، كأنّهنّ قريناتٌ اسْتأجرْنَ روحي؛ فلَمْ أعدْ أعرفُ مَن أنا.. ومَن أكون!!

سأحاولُ أنْ أتذكّر، أنْ أنْعشَ عقلي الذي توقّفتْ خلاياه، أنْ أصدمَ قلبي بصدْماتِ الذّكري علّه ينبضُ مرّة أخرى للحياة، أنْ أعطي روحي

قبْلةَ الحياةِ لمرّةٍ واحدة، وأنْطلقُ لأتعرّف عليها قبل أنْ يعْمى قلبي وتصمّ آذاني ويبْكَم لساني، أشعرُ أنّ قلبي يقتربُ من الظّلام الكامل، يتحسّس طريقَه الخاطئ، يقعُ، ينهضُ.. ليقعَ مرّات ومرّات.

سيأتي يومٌ لا أقْوى فيه على التّذكّر؛ لذا سأحاولُ الآن، فهل ستسْعِفني بقاياي؟ سأتذكّر قبل أنْ ينطفئ الوميضُ وأصيرُ شيئًا من عَدَم، سأحاول أنْ أستعيدَ ما كان.. وما لمْ يكُن، أن أتذكّرني قبل أن أنْساني!

حسناء

سأعودُ بذاكرتي خمسَ سنوات، شتاءَ ٢٠١٣، الصمتُ القاتلُ يلفّ المكان، أسمعُ أنفاسَه كفحيحِ أفعى يشدّ أذني، لا أعرفُ كيف أتخلّص من السّاعات القاتلة التي تسبِقُ عودةَ أحمد وآلاء، توأمي الحبيب الذي رُزقتُ به بعْدَ ثلاثِ سنواتٍ من زواجي ظننْتُ فيهم أنّ رحِمي جفّ كعروقي وقلبي، وقفتُ أمامَ الموْقد أعدّ كوبًا من القهْوة علّه يخفّف صداعًا غزا رأسي ولا ينْوي الجَلاء، نضجتْ قهوتي، سكبْتُها في كوب صغير بصِغَر العالم المُغلق الذي أحْياه، الصّورُ تتّضح شيئًا فشيئًا، الومَضاتُ تزدادُ لتنيرَ لي ما عتَمَ ممّا فات، أراني ألقي برأسي إلى الخلْفِ لتصطدِمَ بحافّة الأريكة البنيّة التي أجلسُ عليها دونَ أدنى اهْتمام، كلّ ما كنتُ أتمنّاه في تلك اللّحظة أنْ ألقي بالعبْء القابعِ داخل رأسي، التّشويش الذي لا يتوقّف صفيرُه، أتمنّى أنْ أثقبَها، وأخْرِجَ منها حِبالَ الذّكريات المهترأة، وأشنقُ بها عذابي، ثمّ أطفو على سطْح الذّكرى بقلبي القديمِ الرّائق الشّفّاف، أين هو!؟ وكيف أضعتُه في رحلتي المتعرّجة!!

وقعَ نظري على سلّة المُهملات الصّغيرة بجانب الأريكة، سعيدةٌ تلك السّلة التي يُمكن إفراغُ محتوياتها، أمّا أنا.. فكيف لي أن أفتحَ ذلك الصندوق المُغْلق على عقلي، أو تلك الضّلوع القابعة كالقفصِ الحديديّ بلا أقفالٍ على قلبي؛ لأفْرغَ ما علَقَ بهما في السّنوات الخمس عشرةَ الماضية.

اتّجهتْ عيني إلى البابِ الذي فُتحَ لتبتلع جدرانُه أحلامي تحتَ مسمّى حياة زوجيّة اصطدمتْ فيها سحابةُ أحلامي الأنثويّة الخياليّة الرّقيقة بضغْطِ الرّغبة والأنانية والتّخلّي؛ فأمْطرتْ في قلبي حسرةً أنْبتت في عيني شجرةَ حُزنٍ لم تُثْمر إلّا اليأس والخذلان.

لم يوقِعْني الحبّ يومًا ولم أوقعْه، انتظرتُ مَن سيحملني على جناحي الأمانِ والحلالِ ليُغْرقني في حبّهِ النّقي الطّاهر، أنفاسي متقطّعة كطفلٍ حديثِ الولادة، شهيقي لا يعبُرُ وزفيري لا يخرُجُ إلّا بتنهيدةٍ ترفعُ معها صدْري كأنّه يحمل جبالًا، تلك الغمامةُ التي زحفتْ إلى قلبي وتوقّفت بداخلِه لا أقْوى على تحريكِها، ولا تُمطر إلّا غبارًا أسودَ كثيفًا يُعْتمُ ما بداخلي.

لم أتجاوزِ الخامسةَ والثلاثين بعْدُ، لكنّي أشعرُ أنّي عجوزٌ قَضَت كلّ مراحلِ عمْرِها، تجلسُ بجانبِ مِدفأة من الحطبِ تحْتمي بها من برودةِ شتاءٍ لا ربيعَ له، مَن أراد أنْ يرى المعْنى الحقيقيّ للذّبول الآدميّ؛ فلينظرْ إليّ، أشعرُ الآنَ بشعورِ النّبتة التي اشترتْها لي أمّي وأنا صغيرة، اعْتنيْتُ بها في باديء الأمر، ثمّ اختطفني منْها النّسيان، ويومَ أن تذكّرتُها كانت تعاني آلامَ الاصْفرار، مالَ ساقُها نحوي كأنّها تلومُني، تألّمتُ وعاتبتُ نفسي، لكنّي ما شعرتُ يومًا بآلامِها إلّا عندما جفّت أرضي بالحرْمان.

مَن قال إنّ الذّكريات تأتي كخيالٍ وتذهبُ كطيف!! بعضُ الذّكريات تأتي كشمسِ الصّيف الحارقة تكوي قلوبَنا وتتركُ بصماتِها علينا ألوانًا، وها أنا أكْتوي بنارٍ اشْتعلتْ في أحْلامي الورديّة فصارتْ رمادًا بين يديْه،

قلبي الذي احْتفظَ به بين صفحاتِ كتابِ حياتِه فجَفّ كوردةٍ ذابلةٍ لنْ تعودَ إليها نضارتُها مهْما كان، مثلُه ما كان يجبُ أنْ يتزوّج أبدًا، ما كان عليه إلّا أنْ يعيش بمفردِه في بيتٍ تملؤه المَرايا ليَرَى نفسَه التي يعشقُها في كلّ لحْظة.. أثقُ أنّ ساحرةَ والت ديزني التي سحرتِ الأميرَ إلى وحشٍ لأنانيتِه وغرورِه وعنادِه؛ لو عرفتْ زوجي لسَحَرتْه بدلًا منْه.

أتذكّر الآن كيف مضَغتْني فكْرةُ الطّلاق بين فكّيْها في سنواتي الأولى وسطَ عائلةٍ لم يحصل فيها رجُلٌ ولا امرأةٌ على لقَبِ مُطلّق، استجمعتُ قواي وأخذتُ قَراري، وتأهّبْت لمقاومةِ الجَميع لأكتشِفَ أنّي حاملٌ في شهريَ الثّان!! سمعتُ في الماضي عنْ سيّدات مُعذّباتٍ امْتنعنَ عن طلَبِ الطّلاق من أجْلِ أوْلادهنّ، وجهةُ نظري الضّيّقة وقتَها جَعَلتْني أراها مجرّدَ حجّةٍ لعدمِ الانْفصال، تعلّمتُ بعْدَ إنْجابي لتوْأمي ألّا أتعجّب مِن شيء لمْ أجرّبْه، وألّاَ أقولَ رأيي فيما لمْ تكْتوِ بهِ نفْسي؛ حتّى لا تكويني الكَلمات، دُرتُ في نفْسِ الدّائرة التي دارتْ فيها الكثيراتُ قبْلي عندما رُزقْتُ بتوأمي الحبيب فآثرتُ السّكونَ والاسْتسلام، مساكينُ نحن! نلتفّ حولَ بركانِ الحياة نضحَكُ ونسْخَرُ مِن آهاتِ مَن يكْتوون بناره، وما أنْ تَطالُنا حَمُمه إلّا ونهْرَع في الصّراخ ليسْخَر منّا مَن لم يكتووا بهِ بعْد.

الصّمتُ دائمًا حليفي، يلفّ المكانَ كالوحْش الذي أخشى أنْ يلتهمني في أيّ لحْظة، لا يشقّه إلّا صوتُ رشْفاتِ قهوةٍ ونظراتُ عيونٍ حزينة تتصدّع لها الجدرانُ التي لمْ أختَرْ حتّى لوْن طلائها، كلّ شيء حوْلي ينطقُ به، أبحثُ عنّي حوْلي فلا أجدُني، نكرةٌ أنا!

أينَ الأمانُ الذي كنتُ أتمنّاه؟ أينَ البصْمة التي كان يجبُ أن يضعَها على قلبي وحياتي!؟ أين الإحْساسُ بالحياة ذاتها؟ يحيا دونَ أدْنى شعور بوجودي الذي جعلَ منْه خيمةً فارغةً نُصبتْ حول عمري، يُغنّي فيها الصمتُ والفراغُ أغنيةً ألمُها أشدُّ ما يكونُ على قلْبي الوحيد الذي ما تمنّى إلّا وليفًا يتبادلُ معَه الحبّ والمودّة، كلّ ما يربطُه بي تلكَ العلاقة المشئومة التي يمارسُها معي كحقٍّ مِن حقوقه، وليس نهاية لعاطفةٍ تجتاحُ أرواحَنا أو رغبة في التوحّد كَكيانٍ واحدٍ، يراني جسدًا بلا روح.

حتّى جسَدي بدأ يتذكّر لحظاتِ امْتهاني! نظرةُ اسْتمتاعه بي وأنا بين يديه كانت تكْوي جسدي بأشدِّ أنْواع الموادّ الكاوية حرْقًا، تنقش في كلّ قطعة منْه زفرة ألمٍ ودمعةَ رفضٍ محْبوسة، هل هذا هوَ الثّمنُ الذي سأظلّ أدفعُه كفاتورةِ حياةٍ لا أعلمُ لها أيّ معْنىً، هل هذا ما أمرَ اللهُ به؟ أين المودّة والرّحمة في ذلك المُسْتنقع اللّزج الذي سقطتْ فيه، ولا سبيلَ للخروج منْه، حاولتُ مرارًا تنْبيهه لوجودي لكنْ هيْهات.. قطارٌ هو، يخرج من محطّته في الحادية عشرة صباحًا، ثمّ يعود مرّة أخرى ليتزوّد بطعامِ الغداء، ينام ساعتيْن.. يستيقظُ بعْدَهما ليتأهّب لحياتِه المسائيّة مع أصدقائه، يعودُ قبيْلَ الفجْر بقليل، ويظلّ نائمًا إلى العاشرة، أيّامُ أجازاته رحلاتٌ متَواصلة لا يقبَلُ شَراكتي فيها، ولا حقّ لي في الاعْتراض، أرتجفُ وأنا أتذكّر كيف كانتْ تُخيفني عودتُه واستيقاظُه؛ فقدْ يدْعوني إليه في أيّ لحظةٍ بتلك النّبرة المسْتفزّة "حسناء، تعالي وأغْلقي الباب"، ثمّ يغلِقُ عن روحي كلَّ منافذ الحياة، ويبدأ في انْتهاكي تحتَ مسمّى الحقّ الشّرعي.

أتذكّر الآنَ بدايةَ اصْطدامي بثعْلبيّتِه عندما قرّر تركَ الوظيفة وفتحَ مكتبِ تصدير فأجَّجَ نارَ التّضحية السّاذجة في قلبي علّها تمنحُ علاقتَنا شرارةَ أمَل، بعْتُ كلّ ما أقْتني وأعْطيتُه كلّ ما أمْتَلك، كسرتُ رغْبتي في كلّ ما تتمنّاه فتاةٌ عشْرينيّة ليحقّق حلْمَه، وماذا بعد! لم يحصدْ ثمارَ الحرمان غيري، كلّ ما أصبحَ يشغلُه إشباعُ رغباتِه، يشتري أغْلى الثّياب والعطور، زادتْ رحلاتُه مع أصدقائه الذين أثقُ أنّهم ليسوا رجالًا فقط؛ بل هناكَ أخْرياتٌ لم يكنْ يعْنيني وجودُهنّ، لم أكنْ أهتمّ إلّا برحيلِ روحِه التي كبّلتني، جعلني مجرّد متفرّجَة لأناقتِه الصّباحية والمسائية، الطاووسُ يريدُ جمهورًا لا أكثر! لم يعدْ يُجْدِ الكلام، تكلّمت كثيرًا، وفي كلّ مرّة تحدث مُشادّة فيأتي والداي لأستمعَ لتلك الكلمات البالية التي أصابَها التمزّقُ من كثْرة الشّدْو بها.. "اصْبري؛ فحالُكِ أفضلُ مِن حال غيْرك" ليخرجَ مُنتصرًا مزْهوًّا بنفسِه أكثر.

كنتُ صغيرةً وأنا أتلقّى ذلك الأمرَ الذي لم أعرفْ مِن أين أتى، ومَن جعلَه عرفًا، وما هو المِقْياس لأقيسَ عليه حياتي!؟ ابتلعتُ كثيرًا من أحجار الانْتهاك والاسْتغلالِ والتخلّي، فلَمْ أعُدْ أقْوى على ابتلاعِ المَزيد، وقفت في حلْقي، وحبستُ الهواءَ عن جسَدي ليذبلَ ويذبلَ كوردةٍ قطفَها أحدُهم وألْقاها في الطّريق، فلا هوَ اقْتناها وحافَظَ على جَمالها، ولا هو ترَكَها على غصنِها!

ليتَه تركَني على غُصْني لَمن ينشدُ عبيرَ حبٍّ حقيقيّ، لا لَمن يمتصّ رحيقي دونَ أدْنى شعور، اتّجه نظري إلى السّقف ليقعَ على تلك النّجفة الكبيرة التي أحصيتُ عددَ كريستالاتِها كثيرًا من فرْطِ وحْدتي، أحسدُها على تلألئها رغمَ مُرور السّنوات، بحثتُ بداخلي عنْ أثرٍ لبريقٍ فلمْ أجدْ، تنهّدت بحُرقةٍ زادتْ من ألمِ صُداعٍ لم يعدْ يُفارق رأسي، المسكّنات لنْ تفارقَ حقائبي طالما بقيتُ أسيرةَ محبَسِه، الفريسةُ تُلتَهَم مرّةً واحدة وهو يتناوبُ الْتهامي طيلةَ عشرِ سنوات، أمَا لهذا الافتراس من انتهاء؟!

ارتديتُ ثيابي بلا اكْتراثٍ متّجهةً إلى الطّابق السّفلي؛ حيث افْتُتحت عيادةٌ رأيتُ إعلانها، لمْ أسْتدعِ المصعدَ فلا حاجة بي لمزيدٍ من الاختناق، نزلت السّلالم بخطواتٍ تدبّ في رأسي فتصنعُ مزيجًا من الألم والوَهَن، استقبلني التّمرجي بترْحابٍ زائدٍ فهمْتُ منه أنّي أوّلُ زائرةٍ تطأ قدمُها العيادة، دفعتُ الكشفَ وجلستُ في الانْتظار، العيادةُ فارغةٌ إلّا مِن أنفاسي كأنّ الوحدة والصّمتَ أصرّا على اصْطحابي. سمحَ لي التّمرجي بالدّخول، فرأيتُه جالسًا خلف مكتبه، بابتسامةٍ رقيقةٍ دعاني إلى مقعدٍ أمامَه، تعجّبت عندما مدّ يدَه لي بقيمةِ الكشف، مرّت دقيقةُ استفهامٍ صامتٍ لأسمع صوته الذي وقعتْ نبرتُه على قلبي قبل أذنَيّ:

– الكشفُ مجّانيّ لأوّل مريضٍ تتشرّف به عيادتي.

امتدّت يدي إليه بابتسامةٍ خجولة، شعرتُ باندفاع قليلٍ من دِماء السعادة إلى وجْنتي، لم يكنْ ثمنُ الكشف هو ما أسْعدني؛ بل أكثر من ذلك، رأفَ الحظّ بحالي، ورافقني ولوْ لمرّةٍ واحدة بعدَ طولِ خُذْلان، كيفَ لي أن أشكرَ القدَرَ على تلك الصّدفة التي كأنّها أرادتْ أن تربتَ على كتفي بحَنان، لم أستطعْ إلّا النّطق بالقليل من كلمات الشّكر:

- أعلمُ أنّ العيادة افْتُتحت منذُ يومين فقط، أسكنُ الشقّة التي تعلوكم.

يا لَتِلك الابتسامة المهذّبة التي لم تفارقْ وجهَه منذُ دخولي، أين هيَ من عبوسِ أشرف الذي صنعَ له خطّين بين حاجبيْه لا يفارقانه، أفقتُ من شرودي على نبرةِ صوتهِ:

- إذًا؛ اسْتحقّقتِ ثمنَ الكشف مرّتين؛ أوّلُ زائرةٍ وجارتنا.

تمنّيت قولَ الكثير، لكنْ توقّفتِ الكلماتُ في حلقي؟ فهل أدمنتُ الصّمت وأدْمنني؟ هل أفقدني أشرفُ القدرةَ على التعبير عمّا يجول بخاطري؟ تمنّيتُ أنْ أشكرَه على كرَمِ أخْلاقه، على ذلك الارْتياح الذي لمسَ صدْري وسحَبَ جزءًا مِن الغبار الكَثيفِ الذي يملؤه، على أنفاسي الثقيلة التي بدأت في الهدوء، وقلبي الثّائر بين ضلوعي الذي بدأ في السّكون ولو قليلًا، لم يعدِ الهدوءُ يلفّ المكانَ فحسب؛ بل لفّ نفسي وروحي معه، كان ينظرُ لي وأخَالُه يشعرُ بشرودي، يرقبُ عيني التي تغرقُ في بحرِ خيالٍ عميق فسحَبَتْهُ بدوْره إلى بحرِ خيالٍ أعمق، تاهَ فيه لفترةٍ وعادَ بابتسامة، لا أعرفُ ما الذي دفَعني لأتجرّأ وأتنازلَ عن خجلٍ يُلازمني وأسألُه عن سرِّها،

هل طالَ الوقتُ دون حديثٍ مُتبادلٍ، وبالذّات مع رجلٍ؛ فأردت إطالتَه، حتّى هو خجِلَ مِن السّؤال فحسبتُه لن يجيب، لكنّه فعل بعد لحظات تردّد:

- تُشْبهين فتاةً أجنبية تعرّفتُ عليها في رحلةٍ مدرسية إلى الأقصر في مرحلتي الثانوية.

غابَ بعيدًا ولم تفارقْه بسمتُه، ثمّ عاد وهو يحاولُ أن ينفضَ ذكراها عن رأسِه، زاد هدوءُ نفسي ورغبتي في الحديث، فافْتعلتُ التعجّب بمزاح:

- أجنبيّة!

اتّسعتِ ابتسامتُه الخجولة التي بدتْ كحاجزٍ يُخفي علاقةً أجّجتْ روحَه لفترة:

- نعم، وظلّتْ صديقةَ مراسلةٍ لسنوات، كانت تحملُ نفسَ قسماتك، لكنّها لم تكنْ تحمل اسْمَ الحُسْن، والآنَ ما الذي يمكنْ أن تشتكي منْه امرأةٌ تمتلك اسمًا كاسْمِك؟!

- وما علاقةُ الاسْم بما أشعرُ به من صداعٍ قاتلٍ لا يتوقّف؟

- كلّ النّساء يتمنّين جزءًا من الحُسْن، وأنت تمتلكينَه ومعناه، الجميلاتُ لا يذهبنَ إلى الأطبّاء، فجّمالُهُنّ يُفْرز ترياقَ سعادةٍ يشفي آلامهنّ.

- الحُسْن قد يكون نعمةً وترياقًا عندما يمتلكُه مَن يُجيد تدفّقَه داخل شرايين النّساء، أمّا إذا امتلكَه مَن جعله سمًّا، فإنّه يقتل كلّ يوم جزءًا من روح المرأة، إلى أنْ تفقدَ معنى الحياة.

تفحّصني باندهاشٍ وهو يجيب:

– وما الذي يدفعُنا لأنْ يمتلكَنا أحدُهم لدرجة تجعلهُ يتلاعب بمركّباتنا النفسية فيجعلُها ترياقًا أو سمًّا حسبما أراد؟ أين تلك الإرادة التي وهبها الله لدواخلنا؟ لقد خلقنا الله أرواحًا حرّة، لا يمكن أنْ تُمتَلَك، تسبح أينما أرادت وكيفما شاءت.

أثارَ اندهاشُه عجبي، هل جاءَ مِن مكانٍ غير كوكب الأرض الذي نحيا عليه! فأسرعتُ بالردّ بنبرةٍ علتْ قليلًا:

– والقيودُ التي تلتفّ حوْلنا، وتجدلُ حبالَها لتصبح أقْوى وأعْتى كلّما مرّت الأعْوام، ثمّ ما تلبثُ أن تتحوّل إلى أفاعي تعْصرنا، بينما يظنّ مَن حولنا أنّها تحتضنُنا، فنبقى مكمّمين الأفواهَ لا نستطيع الشّكوى، بينما لا أملَ لنا في نجاة.

أطالَ النّظرَ إلى وجهي بنظرةٍ بدتْ مُشفقةً وجديّة قبل أن يقول:

– اسْمحي لي أن أناديكِ باسْمك مجرّدًا، حسناء، القيود قد تؤذي الجسدَ لكنّها لا تمتلكُ الأرْواح، تراقبُ تصرّفاتنا.. ولكنْ لا تقيّد أفكارنا وأحلامنا وخيالَنا، نحنُ نمْتلك كلّ ما هو باقٍ، ويبقى الفاني منّا للآخرين.

سأغمضُ عيني برهةً لأرى صورتَه التي تحملُها مقلتيّ ولا تغادرْنَها، أتذكّر كيفَ كنتُ أنظرُ إليه ولا أصدّق أنّ في الحياة رجلًا بكلّ ذلك الوعي

والكِبْرياء، تُرى كيف هي امرأتُه؟ يجبُ أن تكون جميلةً وذكيّة، رشيقة ولطيفة، جادّة وشقيّة، أوقاتُهما معًا سعادةٌ وتفاهم، حبٌّ وعِناق، حتّى دونَ تقابُل الأجساد، فليسَ كلّ العناق حبّ؛ ولكنّ كلّ الحبّ عناق.

نظرتُ بخجلٍ إلى الأرض قبل أن أقول:

- كيف تتحوّل تلك الكلماتُ الجميلة إلى ترياقٍ يشفي رأسي ممّا أصابه بعد أنْ ملأت المسكّنات حياتي!؟

- تتناولينَ المسكّنات لتُسكنينَ حياتك لا لتسكنينَ رأسَك، عالجي حياتك وسيرحَلُ الصّداعُ في أوّل قطارٍ بلا عودة.

صعَدَ الحزنُ من قلبي وغزا وجْهي، أشعرُ بتجاعيدِه الطّارئة تشقّ عيني بجفافٍ أثقُ أنّه سيحوَّل خضارَهما إلى اصفرار، كأنّهما ورقتان خريفيّتان أوشكَتَا على السّقوط من شدّةِ الصّداع، وضعتُ أصابعَ كفّي على نصف رأسي الأيْسر، صدَرَ منّي أنينٌ خافتٌ لمْ أقوَ على حبْسِه ولمعتْ في عيني دموعٌ ما تمنّيت سقوطَها، فأكمل:

- لا يجبُ أن يصدرَ ذلك الأنينُ من شابّةٍ في مثْل عمرِك، اهدئي.. وإنْ أردتِ يُمكنك البوح بما تريدين.

كسا وجْهي وصوتي الحزنُ، انْهمرتْ دموعي وأنا أحكي له بعضًا من يوميّات سجْن روحي؛ عن جدار الأنانيّة السّميك الذي أتقَنَ زوجي بناءَه فلم أقوَ على تحريكِ صخرةٍ واحدةٍ منه، عن حياةٍ معُتْمة لا يَرى فيها أحدُنا الآخر.

أنصتَ إليّ طويلًا باهْتمامٍ حتّى انْتهيْت، لمْ يقاطعني فاحتوى صمتُه ألمي:

– ما يبدو لي أنّه قد فُرِضَ عليكِ وضْعٌ ساهمْتِ بسلبيّتك في زيادتِه، مشكلتُك الحقيقيّة أنّك انتظرتِ أن يهبَك زوجُك الحياة، وهو بما تَصِفين لن يفعل، فقرّرتِ دونَ شعور أنْ تعاقبي نفسَك بالاسْتسلام والاكتئاب ظنًّا منْكِ أنّ ذلك سيغيّر من الأمر شيئًا، أردتِ أنْ تعاقبيه فعاقبْتِ نفسَك! في اليوم الذي ستنتظرينَ فيه أن يهبَكِ أحدُهم الحياةَ هو ذات اليوم التي ستبدأ روحُك في الذّبول.

كان يتحدّثُ وعيني لا تخجلُ من تفحّص وجهِه الأسمر الذي تغزوه وسامةٌ وطَلاقة، عيناه السّوداء التي تتلألأ بلمعةٍ تشعّ إيجابيّة وحماسًا للحياة، خرجتْ من قلبي ابتسامةُ إعجابٍ لم أستطعِ السّيطرةَ عليها اضطرّتْه للصّمت والتفاعلِ معها بابتسامةٍ رقيقة مع لقاءٍ سريعٍ لأعيننا، لا أعلم ما الذي قالتْه عيني لعيْنيه، أفقتُ من تلك اللّحظةِ السّاحرةٍ على صوته:

– لا تَحْتاجين لدواء، دواؤك الوحيدُ أنْ تمنحي نفسَك أسبابًا للسّعادة وسأنتظرُك لتطمئنينَني أنّك وهبْتِ لنفسك حياةً غير الحياة، وصنعْتِ لنفسك عالمًا غيرَ العالم.

"سأنتظرُك لتطمئنينَني أنّك وهبْتِ لنفسك حياةً غير الحياة، وصنعْتِ لنفسِك عالمًا غيرَ العالم"، ما سرّ تلك الكلمات الرّقيقة التي كان لها وقْعُ السّحر على روحي وقلبي! هل خطفني اهتمامُه الحاني، أم كيانُه الرّاسخ، أم التّضاد الواضحُ بينه وبين أشرف! جعل إحساسًا لم أعهدْه يدبّ في أوْصالي، فتحَ شراييني وأوردتي المُغْلقة لتنبضَ فيهم دماءُ الحياة، شعرتُ برغبةٍ في الانْتشاء؛ فدفعتُ بجسَدي للمياهِ الدّافئة لتدفئ روحي، وكأنّ قطراتِ الماء هي أيضًا خضعتْ لكلماتِه، فمنها مَن حمَلَ بعضًا من همومي وذهبَ بها بعيدًا، ومنها مَن مسحَ عنْ جسَدي تشوّه عشْرِ سنوات، لم تُطهّر تلك القطراتُ جسدِي فحسْب؛ بل طهّرت جزءًا كبيرًا من روحي البالية، ارْتديتُ بنطالًا "جينز" وقميصًا أبيضَ، وقفتُ أمامَ مرآتي التي خاصمتُها كثيرًا، لوّنتُ شفاهي بلوْنٍ ورديّ، رفعتُ شعْري إلى أعلى بلا ترتيب فتدلّت خصلاتُه الناعمة حوْل وجهي، لبستُ حلقًا كبيرًا مستديرًا، لم أنسَ أنْ أضيف قليلًا من الكُحْل الأسود ليُظهر جَمال عيني، ابتسمتُ لنفسي ابتسامةً خرجتْ من أعماقي، وأرسلتُ لانعكاسي قبْلَةَ رضا، تنهّدت تنهيدةً حملتْ ما بداخلي مِن رائحةِ الموت الكريهة، أبدلتُها بعطرٍ ثمينٍ اشْتريتُه يومَ زواجي ولم أستخدمْهُ بعْد، ولِمَن أستخدمُه! العطور توضَعُ لتجذبَ وأنا أريدُ الابتعاد.

وقفتُ أمامَ المرآة أنظرُ لتلك التي على الجانب الآخر، الصّداعُ بدأ في الانْسحاب، ولوْ قليلًا، ودونَ مسكّنات؛ فهل يُمكنُ أن تنترَ بضعُ كلماتٍ ذلك التّأثيرَ السّحري؟ انتبهتُ لصوتِ جرسِ عوْدة أولادي، اسْتقبلاني بكلماتِ

إعجابٍ طفوليّة رقيقة مع صفاراتٍ شقيّة من أحمد أضافتْ إلى روحي بهجةً، تابعتُهما بنظراتٍ مُبْتسمة وهُمَا يلبّيان أمري بأخْذ حمّام، وقفت في المطْبخ أعدّ الغَداء وكلّ ما حولي يتغيّر؛ الألوانُ أزْهى، الرّوائح أشْهى، كلّ تنْهيدةٍ تَخرج من صدْري تُخْرجُ معها شيئًا ما بداخلي ضاق به طويلًا، أشعرُ بتغيّر لا أعرفُ سرَّهُ ولا أريد، كلّ ما أريدُه تلك الحالة الممزوجة بالنّشوى والنّشاط التي ترسمُ على شفتيّ ابتسامةً لا أعرفُ كيف أوقفها، وتورّدًا في وجهي لا أدري مِن أينَ أتى، يغمُرُني إحساسُ خفّةِ ريشةٍ طائرة تداعبُها الرّياح تارةً يمينًا وتارةً يسارًا، وهي تُحاول عدمَ السّقوط إلى الأرض، جلستُ وسط طفليّ نتناولُ الغداء، صمتُهما جعلني أنْدمُ على ما ارْتكبتُه في حقّهما وأنا أفرضُ عليهما كآبةَ حياةٍ لم يتدخّلا في صُنْعها، أردتُ منحَهم جزءًا مِن طاقةٍ تطلقُ أوّلَ شرارتها بداخلي.

– عليكُما الانْتهاءُ من الغداء، والإسراعُ إلى المذاكرة، وهناك مفاجأة إنْ تمّ هذا في هدوءٍ ونشاط، سنخرُجُ غدًا الخميس معًا، ونتناول الغداء في النادي، ونذهبُ إلى السينما لنشاهد فيلم "والت ديزني" الجديد.

كانا يستمعانِ لكلامي في هدوء، وبمجرّد نُطقي لعبارةِ فيلم "والت ديزني" تحوّلا إلى فراشتيْن تقفزان هنا وهناك من الفرْحَة، ثمّ انتبهَا أنّ عليهما إنهاءُ واجباتِهما بعد صوتٍ تنبيهيّ، تلك الفرحةُ التي ولِدت في عيونِهم الصّغيرة البريئة حفّزتني لأعيدَ حساباتي المهلهلة، صنعتُ كوبًا من الشّاي وجلستُ في الشّرفة، ومع أنغامِ صوت فيروز السّاحر الذي لم يطأ أذني منذُ فترةٍ؛ بدأتُ في وضْعِ خطّة جديدةٍ لحياتنا، أكسرُ فيها رأسَ الاكتئاب الذي

أصابَها، وبدأ في الانْعكاس عليهما بلا ذنْب، أمسكتُ قلمَ خيالي وبدأتُ أسطّر في ورقةِ عقلي ماذا سأفعل؟ كان أوّلُ قراراتي أنّي لن أترُكَ عمري يغْدو أمامي في كآبةٍ لمجرّد أنّ مخلوقًا قرّر ذلك، حتّى لو كان زوجي، سأفتحُ نافذةَ الحياة على مصْراعيها، سأتحرّر من القيود الضيقة التي سلْسَلني بها، وأكسرُ التّابوتَ الرّخاميّ الأسود الذي حنّطني بداخله، سأفقِدُه كلّ مكاسبِه المعنويّة التي حصلَ عليها طيلة عشرةِ أعوام، سأعدو في طريقي مهْما كانت العواقبُ بنفسِ درجةِ بطئي، لم أفقْ إلّا عندما شعرتُ بيدِه تمتدّ إلى كتفي، تلكَ اللّمسةُ التي أتأفّف منها، ولم أعُدْ أطيقُها، وأعلمُ ما وراءها.

– مرّت فترةٌ طويلة لم أرَكِ على تلك الحالِ من الارْتياح النفسي.

لمحتُ في عينيه نظرةَ عدم رضا، الجارية تتحرّر، يُريدني دومًا مُسْتسلمة، كحزمةِ حطبٍ ألقاها في مدفأتِه ليسَ لها مصيرٌ إلّا الاحتراق.. وبنبرةٍ مُتعاليةٍ قُلت:

– هل أجهّز لك طعامَ الغداء؟

يا لَذَلك التّعبير الذي يظهرُ على وجهه، والذي أعرفُه جيدًا، التّفكير في طريقةِ القهْر التي سيُخرجني بها مِن تلْك الحالة، كيف سيمتصّ قطرات السّعادة التي أصبتُها ليُشبعَ نفسَه المريضة كوْني مجرّد جاريةٍ امْتلكها بورقةٍ ومَهْر.

– تعالي خلفي.

– إلى أين؟! (قلتُها وأنا أحاولُ إظهارَ عدمِ الفهْم).

– إلى حجرتِنا. (ثمّ اقتربَ بفمِه من أذني ليكمِلَ) أريدُكِ الآن.

المعركةُ ستبدأ، وما عليّ إلّا الصّمود، الخوفُ والضّعف يحشوان فراغَ قلْبي، لكنْ لا مفرّ من المُقاومة، طالما النّهايةُ إلى السّقوط فلتسقطْ نفسي بكِبْرياء، اقْتربتُ من أذنِه وأعلنتُ له عدمَ رغْبتي، انتابتْهُ نوبةٌ تمثيليّة من الضّحكِ المُسْتفزّ، رفعَ كفّه ووخَزَ خدّي بأصبعِه وهو يكرّر كلماتِه بلهجةٍ بدتْ متوعّدةً وآمرة، وكأنّه دفعَ للتّوّ ثمنَ متعتِه لعاهرةٍ تأبى الخضوع.

- أريدُك الآن.

أزحتُ كفّه بظهْر كفّي، وأنا أقول:

- اسْحبني للدّاخل إن استطعت!

سيخسرُ المُناورةَ التي لا أعلمُ كيف تجرّأت على شنّها، أنا هي حسناء قطعةُ الصّلصال التي استطاعَ تشكيلَها كما أراد، فما سرّ ذلك الاحتجاج الذي لم يعهَدْه! لمْ أصرخْ، لمْ أندّدْ كعادتي، ثمّ اتّصِل بأبي ليأتي ملتحفًا بأمّي وينتهي الأمرُ بذهابهما، وبقائي مع كلّ مكتسباتِه، نظراتُ عينه المُتنمّرة تتساءلُ ماذا حدث جعلني في تلكَ الحالة التي لم يعتَدْها، قطع الحوارَ قائلًا:

- جهّزي الغداء، سأخرجُ ليلًا.

- وما الجديد؟!

لم يعلّق، رمَقني بطرْفِ عينِه، همّ بالانْصراف فاستوقفتُه:

- أريدُ بعضَ المال.

- أعطيتُكِ المصروفَ الشّهري!!

استدارَ ليدخل الغرفة، اعترضتُ طريقَه في ذهولٍ منْه:

– سأخرُج غدًا أنا والأولاد، سنشتري ملابسَ وندخلُ سينما، أريدُ أن نستمتعَ بمُتْعة الشّراء مثلك، نريدُ أن نحيا الحياة.

ظهرتْ على وجهِه ابتسامتُه السّخيفةُ الماكرة:

– وهذا بمناسبَةِ طاعتِك لي، تعالي خلفي ولبّي، وسأعطيكِ ما تريدين.

بدأتْ نفسُه الدّنيئة التي لا يظهرُها إلّا معي في الطّفْو على السطح، تجهّمتُ في وجهِه وأنا أجيب:

– لستُ عاهرة، أنا أمُّ أولادك، وستعطيني ما أريد دونَ مقابل.

– أخفْتني! وإنْ لم أفعل؟ (قالها وهو يلمِسُ خدّي بطرْفِ يده).

لا أعلمُ مِن أين جاءت تلكَ التي تكلّمَتْ، انطلقتْ مِن داخلي.. أمْ تلبّستني، أنا أمْ قرينتي التي ردّتْ له لمسةَ يدِه، ورَفعتْ كفّي وربتتْ على وجْهِه وقالت:

– سأتّصلُ بأبيك وأخيك، وأفضحُ رجلَ الأعمال الذي لا يري في الحياة إلّا ذاته، يُمكنني وقتَها أخذُ ما أريدُ منْهما، يُمكنني تمْزيقُ ملابسك التي اشتريتَها هذا الشّهر بما لا يقلّ عنْ عشْرة آلاف جنيه، يمكنني الكثير...

تبدّلت نظراتُ الاسْتفزاز إلى دهشة، أشعرُ أنّ كفّه يتحرّك ليصفعني، ستكونُ المرّة الأولى، أسرعت:

– أيُّ ردّ فعلٍ ممّا تفكّر فيه ستكون عاقبتُه جمْعَ الجيران بصرخاتي، ومحضرَ شرْطةٍ وقضيةَ طلاق.

بدأ وجهُه في التّلوّن، لا يعرف مَن التي أمامه، ما الذي بعثَ القوّة التي تخيّل أنّه دمّرها بداخلي؟ مِن أين جئتُ بالمخالب التي أصارعُه بها، وقد حرصَ على قصّ أظافري منذُ أوّل يوم؟ أسرعَ إلى مصباحه السّحري ليُخرجَ الماردَ الذي سيُعيدني راكعةً إلى معْبَده، اتّصل بأبي وطلبَ منه الحضور، ثمّ رفع حاجبَه الأيمن مع نظرةِ تكبّر وابتسامةٍ ساخرة، أذكرُ كمْ كان داخلي يرتجفُ، لكنّي سأكمِلُ طريقي الذي بدأ ولنْ أعود، اتّجهت بمُنْتهى الهدوءِ إلى الهاتف، وقدماي تلتفّان حوْل بعضهما، لكنّي أحاولُ الصّمود، ما زلتُ جديدةً في معارك الحياة، وبيدٍ حاولتُ ألّا تبدو مُرْتعشة كقلبي غافلتُه وهاتفتُ بيتَ والده، شلّتْهُ المفاجأة التي تحوّلت إلى صاعقةٍ عندما امتدّت لبيت أخيه، ثمّ بيت أختِه بجُمْلةٍ واحدة للجميع..

- أنا وأشرف على خلافٍ سيصلُ للطّلاق، وأبي وأمّي في الطريق.

لم يتوقّعْ ما فعلت، حسبَه تهديدًا، يزدادُ وجهُه امتعاضًا خفيًّا مع كلّ اتّصال لتلكَ الفَضيحة التي ستدقّ الباب بعد دقائق، لكنّي على يقينٍ أنّه يحاول الصّمود حتّى لا يُشْعرني بخوفٍ دبّ في قلبِه، دخلَ غرفته وألقى بجسدِه للسّرير، يعرفُ الاتّهامات التي لن يستطيعَ ردّها، ألمحُه وهو يحدّث نفسَه وكلماتُه الصّامتة تخترق أذني..

"لو كان ذلكَ أمامَ والديْها فقط لهانَتْ، اسْتدعتِ الجميع، تتصرّف بثباتٍ كأنّها تعرفُ ما تريد، تحاولُ هدمَ الحصْن الذي بنيتُه طيلةَ عشْرِ سنوات لأعيشَ فيه الحياة التي أريدُها على رأسي".

أرى الحيرةَ تلتهمُه.. هل يتركُ الأمورَ تسيرُ كما أريد؟ لكنْ كيف سيواجه عائلتَه بعد كلّ ما سأعلنُه أمامَهم من الأنانيةِ والإهمال طيلةَ عشْرِ سنوات كاملة؟! كيف سيدفعُ عنْ نفسِه تهمةَ الحاضرِ الغائب، الكريمِ للجميعِ البخيلِ علينا!!؟ ليس أمامَه سبيل إلّا المهادنة.

لم يكنْ أمامه سبيلٌ إلّا المهادنة، المشاهدُ تتداعَى أمامي، أرى نفسي رأيَ العيْن أقفُ في شرفتي، المعادي الجميلة المزْدحمة بالعمارات والمحلات، المارّة يحملون آمالَهم على أكفّهم، أبحثُ عن أملي فلا أجد إلّا حطامَ يأسي، هناك بوّابٌ يداعبُ زوجتَه وهي تُعطيه كوبًا من الشاي فملأت ضحكتُها وجهَها الرّيفي الصّبوح، أين ضحكتي التي غابت عنّي أعوامًا؟! وهناك زوجٌ يُحيط بيدِه خصْرَ زوجتِه يختاران هذا المطعمَ أو ذاك لتناول الغداء، وهناك أبٌ يحملُ طفلًا في حنان، والأمُّ مُمسكةٌ بالآخر، وهُما يتحدّثان ويتفرّجان على واجهات المحلّات، الشمسُ بدأت تميلُ للغروب.. أمْ أنا التي أراها هكذا بقلبي كشمس حياتي التي غربتْ يومًا ولم تشرق بعد! أنتظرُ ظلّ أحدِهم يلمْلِمني، لكنّي لمْ ألمحْ خلفي إلّا ظلّه، أشعرُ بأنفاسِه الكريهة التي لم أعدْ أحتملُ مشاركتَه إيّاها في حيّزٍ واحد، أرى مِن ظهري يدَه وهي ترتفعُ بغيظٍ مكْتوم تتمنّى إلقائي، ليته فعل!

- لا أفهم! لماذا اتّسعتِ الأمورُ هكذا؟

تنهّدتُ تنهيدةً حرّكت الزّجاج المُتناثر في قلبي، فمزّقتني وخزاتُها:

- أنتَ مَن أردت!

- اتّصلت بوالديكِ لتهدئتِك لا أكثر.

التفتّ إليه لتلتقي أعيننا بتلك النّظرة التي لن تجمعَنا يومًا على وفاق..

- تهدئتي! كلّ ما طلبتُه رشفةٌ من الكأس التي ترتشفُ منها يوميًّا لنشعرَ أنا وأولادي بالوجود، لن نستمرّ في دوْر متفرّجي الصّفوف الأولى على مسرحيّة حياتِك المُبْهجة، بينما نحن لا نمتلكُ بداخلنا أيّ ذكريات، نحن أشباهُ حياة، نأكلُ لنتحرّك، ونصنعُ لك بروازًا، مجرّد برواز كوْنك ذكرًا تزوّجتَ وأنجبت!!

ابتعدَ بعينيه، وأطال النّظر للفراغ، ثمّ قال:

- كمْ تريدين؟

- الآنَ لا أريد شيئًا، سأنتظرُ حتّى يأتي الجميع.

لا أعلمُ كيف كنتُ أقفُ أمامَه أصارعُه بلا أدنى خوف، عرفتُ وقتَها أنّي أمضيتُ عشْرَةَ أعوامٍ أخشى ضخامةَ بالونٍ يمكن أن ينفجرَ بضغْطَة واحدة، هكذا توهّمت..

- لا داعي للانتظار.

- كلّ ما أريدُه ثلاثة آلاف جنيهٍ شهريًّا فوقَ مصروف البيت.

- ولو رفضت؟!

- ما علينا إلّا الانْتظار.

تركني وعادَ يحملُ في يدِه ما طلبت، زهيدٌ ما طلبتُ بالنّسبة لما يكسبه وينفقُه، مدّ يدَه لي في صمتٍ متوعّد، أعرفُ أنّ الاسْتسلام مزّقه، لم يعتَدْه، الولدُ الوحيدُ لأمّه المدلّل الذي لم يُرفَض له طلب، عنادُه وكبرياؤه..

يا لَتِلك الكلمات التي استهنْتُ بها، كنتُ أصغرَ مِن أن أعرفَ معناها عندما قالتها أمّه يومَ خطبتي "تحمّلي عناده وكبرياءه"، وما كانت تقصدُ إلّا نرجسيّتَه وغرورَه، وها أنا قد عرفتُ وأدفعُ ثمنَ جهلِ صفاتِه، ذلك السّهمُ القاتلُ المَسْموم الذي سينفُذُ لقلْبِ الضحيّة حتمًا، كنتُ في الثّامنة عشر أنْهيتُ لتوّي امْتحاناتِ الثانوية، أجلسُ بجانبه بفستاني الورديّ وشَعْري البنّيّ المُنْسدل على أكْتافي، انْطلقَتْ حوْلي أصواتُ زغاريدٍ أستَدْعيها اليوم كصرخاتِ وفاتي، وضَعَ دبلتَه في أصبُعِ التّابلوه الجميل الذي أراد، ذلك القيدُ الأبديّ الذي اتّصلَ بقلبي، فاعتَصرَ أملَ الحبّ منْه، سحبتْ تلك الدّبلةُ عمري في دائرةٍ مُغلقة، فلم أجدْ سبيلًا للهُروب، انتبهتُ لصوتِه:

- كيف سنتصرّف في الحاضرين؟

قلتُ وأنا أشيحُ بوجْهي عنه:

- يمكنُكَ أنْ تتّصل بأحد المَطاعم الشّهيرة التي تتناولُ فيها عشاءك يوميًّا مع أصدقائك وصديقاتك، مفاجأةُ عشاءٍ للَمّ شمْلِ الجميع.

لا أعرفُ ما الذي فعلتْه كلماتي، غابت عيناه في وجْهي كأنّه ينظرُ إلى امرأةٍ أخرى غيرِ التي يحيا معها.

- خرجتْ اليومَ من داخلِك أشياءُ لم أكنْ أعلم بوجودها!!

شعرتُ بزهْو الانْتصار، هي جولةٌ والقادمُ جوالات، لكنْ هل سأقضي عمري في مصارعتِه حتّى ترتطمَ كفّه بوجْهي فأسقطُ بالضّربة القاضية؟

هل هذا حلالُ الله الذي منعْتُ نفسي عنْ أيّ مراهقةٍ من أجله؟! هل هذا هو السّكنُ والمودّة والرحمة؟!

كنتُ صامتةً كالجبل، وحاولَ هو ألّا يُظهِرَ حرقةَ غيظٍ لن تستطيعَ مياه العالم إطفاءه، ضحكَ والدُه وهو يقول:

- حركةٌ لطيفة منْك أنتَ وزوجتِك، لمّ شمْل الجميع على عشاءٍ رائع، متزوّج منذُ عشْرِ سنوات يا أشرف، ما الذي تغيّر؟!

وجدتُها فرصةً للضّغط، فابتسمتُ لوالدِه وأنا أقول:

- أشرف زبونٌ دائمٌ في هذا المطعم.

الجميعُ يتحدّث عنْ روْعةِ العَشاء وجَمالِ المفاجأة التي قطعتِ الرّوتين اليومي إلّا هو، يملأ عينيْه التّفكيرُ في خطّةٍ لسحْق الثّورة التي أشعلتُها فاضطرّتْه للنّزول مِن عرش جبروته وأنانيته.

هل صدَّق أحدُهم أنّها مفاجأة للمّ الشّمل؟! لا أظنّ؛ الكلّ يرى ويعرف، لكن مَن سيهتمّ!؟ لنْ يحرّك أحدٌ ساكنًا لمداواةِ آلامك طالما لم يلحقْه الأنين، لن يطفِئ أحدُهم نارًا اشْتعلتْ بكَ طالما لم تقترب من ذيْل ثوبه، لا يعرف شعورَ الغربةِ إلّا مَنِ اكْتوى بها، ولا يعرفُ الحزنَ إلّا مَنِ اعْتصرَ قلبه في معْصَرته.

أهلي متشبّثون بأعرافٍ لا أدري مَن زرَعَ غابتَها بعيدًا عن بستان الشّرع والدّين، كلّ ما يعنيهم بيتٌ مغلَقٌ حتّى وإنْ كان على فراغ، حرَّموا الطّلاقَ

كأنّنا على ملّة غيرِ الإسلام، وأهلُه لن يجادلوا فيما يعرفونَه، المسكّنات هي منطقُهم، المديحُ الزّائد، الهدايا القيّمة من والدته على فتراتٍ مُتباعدة كأنّها تقول "اصْبري.. أعلمُ معاناتِك"، ألقوا بي إلى قبْرِه، ولا يقْوى أحدٌ على نبشِه واسْتخراجِ رُفاتي، وهوَ لا يعنيه إلّا أنْ يدهسني تحتَ عجلة نرجسيّته، يخشى الآنَ من القوّة التي يلمحُها تنْمو في عيني كشجرةٍ سحريّة بُذرَتِ اليومَ، وها أنا أحصدُ أوّلَ ثمارها، تؤرّقه نظرةُ أملٍ تُداعب اليأس على وجْهي، ظنّ أنّه قتل كلّ رغبةٍ بداخلي للحياة إلّا الاهْتمام برغباته وتربيةِ أبنائه، جاريتُه أنا بصَكّ عبوديّةٍ موقَّع من مأذون، سيفتح المظروفَ المُلقى في أحدِ أدراجه ليطمئنّ مِن وجود الصّكّ، وأنّه دائمٌ طالما في صدْري أنْفاس، انْقضتِ السّاعات ككلّ السّاعات، انْصرف الجميعُ وانْصرفَ معهم، ذهبَ الغريبُ مع الغرباء!

ذهبَ الغريبُ مع الغُرباء وبقيت، ألقيتُ جَسَدي على فراشي بقوّة، تمنّيت أنْ تتحرّك تروسُ قلبي الصّدئة التي توقّفت عن العمل، تحسّست الفراش لأتأكّد من امْتلاكي له بمفردي، استمتعتُ لدقائقَ بالصّمتِ وصداه، خلا البيتُ من أنفاسِه فملأتُ رئتي بهواءٍ نقيّ، لن يأتي إلّا مع خيوطِ الصّباح بعد موْتِ اللّيل، وموتي معه.

همسَ طيفُ الدّكتور محمد في أذني بشبَهي فتاتِه الأجنبية، نهضتُ وتفحّصت وجْهي في المرآة، اسْتدعيتُ كلماتِه التي ألقاها كتعويذةٍ أحْيت رفاتي، وأيْقظتْ قلبي المسكين النّائم كأصحابِ الكهْف يتقلّبُ ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال "سأنتظرُكِ لتطمْئنينني أنّك وهبتِ لنفسِك حياةً غير الحياة.. وصنعْتِ لنفسِك عالمًا غيرَ العالم"، كنتُ أتمنّى أنْ تصله صرخةُ فرحِ قلبي بوضْعِ أوّل حجرٍ في عالمي الجديد، تلك اللّبنة التي منحَني هوَ إيّاها، وبخِلَ بها الجميع، تجسّدت كلمةُ فارس الأحلام اليومَ أمامَ عيني بعد أنْ رفعني محمّد من الهوّة السّحيقة التي ألقاني فيها كلّ مَن حوْلي على حصانِ حكمتِه، ووهبَني سيفَ القوّة الذي صارعتُ به أشرف وجرحتُه أوّل جرْح، لم يكنِ الهاتفُ الجوّال مِن اهتماماتي، نظرتُ إلى شاشتِه طويلًا أبحثُ عنه كأنّي سأراهُ في مرآتِه يطلّ عليّ بابتسامتِه مُطمئنًا إيّاي، تردّدتُ.. هل أحادِثُه؟ لا.. سيكونُ خرقًا وطيْشًا، سأفقدُ كبرياءً لا يمكن أن أتنازلَ عنه، يكْفيني ما يرتشفُه أشرف من كبريائي، لمعتْ في عقلي فكرة، حقًّا إنّني لا أمتلِكُ

حسابًا على مواقع التّواصل؛ لكنْ فتحُ حساب باسْم مُسْتعار ليس بالعَسير، "شروق الشمس" تمنّيتُ شروقًا أعلمُ أنّه لن يَحِلّ، وسأحملُه اسمًا لا معنًى، ارتجَفَ قلبي داخل صدري كعصفورٍ وليدٍ سقطَ للتّوّ من عشّ أمّه عندما ظهرتْ صفحتُه أمام عيني، خطفتْ قلبي صورتَه ولمعَتْ عيني ببريقٍ ظننْتُه انْطفأ فيها منذُ سَنوات، ألقيتُ الهاتفَ على السّرير لدقائقَ أنظرُ إليه وأنا لا أدري ما سرُّ الصّراع الذي يحتدمُ بداخلي؛ خوف.. قلق.. حيرة.. رعشة.. نبضُ قلبي يعْلو، يداي يعْصران بعضهما، لماذا هو؟! تابعتني عيونٌ بنظراتٍ لم تجذبني، وتذلّلتْ لي شفاهٌ بكلماتٍ لم أسمع منها حرفًا، حتّى ممّن يظنّهم زوجي أصدقاء! لم أكنْ أتخيّل يومًا أنّني سُألقَى على قارعةِ الطّريق وحيدةً متجرّدة مِن أيّ حبّ أو حنان، كنتُ فاتنةَ مدْرَستي دومًا، جميلةَ البنات، العيونُ تتابعني بحسَدٍ، وتتخيّل لي الأفواه الصّغيرة زيجةً عن حبٍّ وهيام، وها أنا ذا أقلّهنّ حظًّا، وأوْفرهنّ تعاسة.

وجدتُ نفسي في كلّ كلمة يكتبُها، سهرتُ معه ليلتي أحتفِلُ بنصري، سجّلت إعجابي بكلّ الصّفحات المعجَبُ بها، وشاركتُ منشوراتِه، كلّ يوم يمرّ يملؤني هدوءٌ نفسيّ لقرْبي البعيد من روحِه الرّاقية، عشتُ معه أمسي ويوْمي وغَدي، ليلي ونهاري، رأيتُ فيه الزّوجَ الذي لم يسْكنني ويمنَحُني المودّةَ والرّحمة، الرّجلُ الحلم الذي ركبتُ معه حصانَ خيالي الجامح، دخولُ صفحتِه يسبقُ فنجانَ قهوتي الصّباحيّة، آخرُ ما تَراه عيني صورتُه لتحملَه

مُقلتي إلى أحْلامي، أدمنتُه ولم أعدْ أرغبُ إلّا في اقْترابٍ حقيقيّ، لكنّها رغبةٌ تأرجَحَت بينَ الرّجاء والخوف، أخشى على كبريائي المشروخ من التّحطّم، أصبحتُ كالمجنونة أحَدّث نفسي أمامَ مرآتي، وحيدةٌ أنا، قتَلَ أشرفُ كلّ علاقةٍ مُمكنةٍ بأيّ زميلةٍ جامعية أو جارةٍ أو صديقة؛ بالاخْتناق المُبكّر لحديثي الولادة.

رغبتي في الاقْترابِ أصبحتْ كالدّاء ينهشُ جسَدي، شاغلي الوحيدُ صارَ رؤيتَه داخلًا أو خارجًا مِن العمارة، تلكَ الدّقائق القليلة كانت كالماءِ الذي يروي جذوري، فيسْري في كلّ أجزائي الجافّة العطشى، أراقبُه من وراء ستائري البيْضاء، فيحتضنُ ظلّي جسده، يوْمَا الخميس والجمعة أصبحا أيّام شقائي، لا أذكرُ عنْ حياتي اليوميّة في تلك الفترة إلّا اهْتمامي المبالغ بتوأمي الحبيب، اشْتركتُ لهما في تدريباتِ سباحةٍ في النّادي، حرصْتُ على الخروجِ معَهما أيّام العُطلة المدرسيّة، ارتفعتْ معنويّاتهما حدّ السّماء بعدَ أن كانت مُلقاةً بجانبِ حشائش الأرض المبتلّة، اهتمَمْتُ بمظهري وثيابي، حتّى ملابس نومي، عطرٌ مسائيّ خاصّ لأوقات الشّرفة التي زيّنتها بالكثيرِ من الزّرْعات الخضْراء العطِرة، أجلسُ وسطها، وفي يدي كتابٌ مع صوتِ ما عشقتُ قديمًا مِن أغنيات، وكوب قهوة.. كلّ رشفةٍ منه تعيدُ لروحي قطعةً تمزّقَت، منحني النّورَ فتوهّجت، أعادني مِن قبْري فاسْتنشقتُ عبيرَ الحياة، لم أعدْ ألحَظُ أشرف، وارْتاحَ هو لصمتي وانْصرافي عنْ لوْمِه، أصبَحْنا كدُمًى

متحرّكة تحيى معًا في مسرح عرائس مشْدودين معًا بخيوطٍ باليةٍ ممزّقة لا تحرّك ساكنًا، لكنّها تأبى الانْقطاع، لكنْ ما زالت أنفاسُه تشوّه جسدي في تلك الدقائق.

لم يمضِ شهران إلّا وأصبحتْ صفحتي تضجّ بالحركة والحياة، ضحكتُ ملء قلْبي يومَ اكتسبتُ صداقةَ إحْدى صديقات صفحتِه، فأصبح لدينا أصدقاء مشتركون، النّساء يقبلْنَ طلباتِ الصّداقة بسهولة، وبالذّات إنْ كنّ في مجموعاتٍ مُشتركة، عالمُ التّواصل الاجتماعي عالمٌ افْتراضيّ ساحر يُعمي عينيْك بضوءٍ يُخفي خلفَه ظلامًا ترتَعُ فيه الأشباح، يلفتُ انْتباهَك لشيء، بينما هو يسرقُ منْك أشياء، لا يهمّ فما يسرقُه منّي حتّى الآن هو ما أريدُ فقدانَه، أريد أنْ أقتلَ الوقت، أطعنُه في مقتلٍ لينتهي، اليأسُ بلغَ منّي مُنْتهاه، لو يرحمني أحدٌ ويشعرُ بضرورةِ خروجي من ذلك المحْبَس اللّعين قبلَ أن أفقدَ حواسّي تباعًا، هل هي لعنة العصفورِ الذي طلبتُه فجاءني حبيسَ قفص مع أنْثاه، والتي لم تنتظرْ طويلًا حتّى رحلت، رفضَ غيرها بوفاءٍ لا يعرفُه بنو البشر، حتّى لحقَ بها في يوم شعرت فيه بوخْزاتِ ألم حقيقيّ تنهشُ قلبي، ليْتني ما طلبتُه، ليتني حرّرتهما، أثقُ اليومَ أنّني لوْ فعلتُّ لوجدتُ مَن يردّ لي المعروف.

كلّ ذكْرى تمرّ تنعشُ عقْلي، الصورُ تقتربُ، والمشاعِرُ تتداعَى، ترتفع دقّاتُ قلبي الآن كما ارتفعتْ يومَ وضعتُ أوّلَ تعْليقٍ على أحد منشوراتِه

بأيدٍ مُرتعشة، حدّة الخوفِ تتصاعدُ إلى صدْري فيضيقُ، وإلى رأسي فتكادُ توشكُ على الانْفجار، ماذا لو اكتشفَ خُدْعتي؟ كيف سينظرُ لي بعدها؟ هل كانَ من الأفضلِ الاقترابُ بشخصي الحقيقي؟ لم تتوقّف الأسئلةُ التي لا أجدُ لها إجابات، صدقًا حاولتُ أنْ أجاهدَ نفسي، وأغلقَ تلك الصّفحة التي لم تمْنحني إلّا الخوفَ والاضطراب، أجرُ جهادِ الحياة هدايةُ السبيل، لكنْ أينَ هي الحياةُ فيما أنا فيه؟ عانيتُ الأرقَ على مدار يوْمين كانا من أطْول أيّام عمري، معدتي تتقلّص فلمْ أبتلعُ لقمةً واحدة خلالَهما، النومُ يأبى أن يزور جفوني، أتردّد في أمري، "الاسْتمرار أم الانسحاب".

لكنْ هل غلبَ الخوفُ الشوقَ يومًا؟ لم يحدث، الشّوق دومًا فائزٌ ومهزوم.

هزمَ شوقي خوفي، فلمْ أعدْ أتركُ منشورًا إلّا وأضعُ عليه بصمتي بإعجابٍ أو تعليق.. صورةُ "العُصفور المغرّد" تصدّرت يوميّاته، الأيّام تمرّ ولا أعرفُ ما القادم، كلّ ما حظيتُ به رمزُ إعجاب على تعليقاتي، كنتُ سعيدةً بقرْبِه حتّى لو في عالمِ افْتراضيّ، لكنْ هل سأظلّ صورةً وتعليقًا؟! ظلّ خفيّ يراقبُه في حضوره، ولا يهدأ إلّا بعد انْصرافه؟ النّفسُ يملؤها الطمعُ، والقلبُ خادمٌ للعشْق ذليل، زادتْ تعليقاتي، اسْتمتعتُ بأوّلِ ردّ عليها، الرّدودُ الذّوقيّة تتكرّر، لاحظَ وجودي، بدأ بمناقشتي بعيدًا عن الرّدود الدّبلوماسية، نبضاتُ قلبي تزدادُ نشوتُها باقترابه.

هل أذكرُ أنّني ابْتسمتُ فقط، لا.. بل ضحكتُ وغنّيتُ ورقصتُ بوسادتي لِمرآتي على صوتِ أمّ كلثوم تشْدو "وَصَفولي الصّبر لقيتُه خيال، وكلام في الحبّ يادوب يتْقال"، عندما فتحتُ هاتفي ذلك الصّباح لأجدَ أوّل رسالة خاصّة منْه، رسالتي الأولى التي أضاءتْ لمبةَ قلبي الحمراء الصّغيرة استعدادًا للتّسْجيل، وتبقى أجْملُ الصّباحاتِ تلك التي تحْملُ نسائمَ الحبّ الدّافئة.

تبْقى أجْملُ الصّباحات تلك التي تحمِلُ نَسائمَ الحبّ الدّافئة، تحرّك ستائرنا بنسيمِ السّعادة والنّشوى، نرتشفُ قهْوتَنا مع أجْملِ الكلمات وأقربِها إلى قلوبنا.

- صباحُ الخير.

كَلمتان كانَ لهما وقْعُ السّحر على قلبي كأورْكسترا تعزف لحنًا موسيقيًّا عذبًا، أوّل صباحاتي العذْبة، ردَدتُ الصّباحَ ولم أنتظرْ طويلًا حتّى جاءتني الأخْرى:

- ألاحظُ تواجدَك المستمرّ على صفْحتي، هل أعرفُكِ شخصيًّا؟

غزلتْ لي الفرحةُ زوجًا مِن الأجنحة، شعرتُ بتحوّل الفرخ المَهيض بداخلي إلى عصفورٍ سينطلقُ في أوّل رحلةِ طيران، لم يكدّر صفْوي إلّا انْشغالي في كيفيّة الحفاظ على كياني أمامَه رغمَ قسوةِ ظروفي؟ يجب ألّا أبتعدَ كثيرًا عن حقيقتي؛ فأنا لا أعرفُ ما تخبّئه الأيّام، حقًّا لن أكذب.. لكنّي أيضًا لن أبوح.

اعتذرتُ بأدب.

- أعتذرُ لو كان تواجدي غيرَ مقبول.

جاءني الرّدّ الذي توقّعْت وتمنّيت:

- على العكْس، تواجُدك خلقَ روحًا إيجابيّة جميلة أحتاجها.

هل يهتمّ بتَواجدي! سأُطلقُ له حسناء الفتاةَ الحالمة التي سُجنتْ بداخلي، حسناء الصّغيرة التي كبّلها أشرف، وهي ابنةُ ثمانية عشَر بخطبة، واعْتقلها وهي في أوائل العشْرين، تخيّلته بستاني سيَرْعاني، لكنّه ما إنِ امْتلكني إلّا وهزّني بشدّة، فسقطتْ كلّ ثمار أحلامي المبكّرة على أرْضه ليتغذّى عليها، فسَمِنَ جسدهُ وعجَفتْ روحي، أطلقتُ لمحمّد حسناء التي لمْ أطلقْها لأحدٍ قبْلَه، وأحسبها لن تعود.

أسرعتُ بالرّدّ:

- هي حياةٌ واحدة فلتَحْيَها قلوبُنا.

أرسلَ رسالةً مع رمْزِ ابتسامة.

- هذا مبْدئي في الحَياة، لاحظتُ في نقاشي مَعكِ أنّ بيننا ما هوَ مُشترَك.

هل قالَ ما هوَ مُشترك! إنّه ما منحني هوَ إيّاه، هديتُه التي قدّمها لي بمناسبة افْتتاح عيادتِه، ليس ثمن الكشف ولا الطمأنينة ولا الكلمات الذهبية؛ بلْ هو أكثرُ مِن هذا، الرّغبةُ في أنْ أحيا الحياة، فأجبتُ بملء قلبي:

- الرّغبة في الحياة.

- حقًّا، الرّغبةُ في الحياة، سأستأذنك بسلامٍ مؤقّت.

ألقى السّلام لكنّه لم يغادر، التّواصلُ منحني سعادةً لمْ أتذوّقها فلمْ أتحدّث إلى رجلٍ مِن قبْل، شيء ما يشدّ أوْصالي ويُسري النّشوى في جسَدي، ما هو السرّ الخَفيّ القابع بداخلنا، والذي يجْعلُنا لا نستغني عن الآخر إلّا عندما

تفارقُ الأرواحُ الأجساد، تحوَّل الانْتظارُ المملّ إلى اشتياق فأحْبَبته، أشتاقُ لكلّ حرفٍ سيرسله، إلى كلّ معنًى جميلٍ تمنّيته وسأجدُه معه، كياني كلّه ينتظر، قلبي كادَ يتوقّف من قوّةِ وسرعةِ نبضاتِه مع صوتِ الرّسالة..

- تأخّرت؟

- لا عليك، أعرفُ أنّ الأطبّاء دومًا في انْشغال.

- مهنةُ الطبّ عظيمة لكنْ لها عيوبُها.

- وما هي؟

- عملٌ مُتواصل، وبحثٌ لا يتوقّف، نسحبُ حياتنا لنهبَها للآخرين.

سحب الحياة! ليتَ لي ما يسحب حياتي دونَ أن ألحَظَ لأصلَ إلى الشّيخوخة وسطَ تهاني زواج توأمي، ثمّ أسقط حيث لا أفيق، أسرعتُ قائلة:

- حتّى هذا جميل.

- كيف؟

- لأنّ العمل يسحبُ الوقتَ، فلا تسيطرُ عليك أيّ هموم.

- عندَك كلّ الحقّ، لكنْ سأفهمُ مِن هذا أنّك لا تعملين، ولدَيْك هُموم.

أرسلتُ رمزَ ابتسامةٍ مع القليل من الكلمات.

- تحليل صحيح.

كلماتُه أصبحتْ ترياقًا يسري لكلّ ما عطَبَ بداخلي.

– نتكلّم لأوّل مرّة، فلنْ أسألك عن نوعيّة الضّغوط، لكنْ ما اسمُك الحقيقي؟

– شروق الشمس أمنية، وليس اسمًا؛ فاقْبَله مؤقتًا.

أجابَ برقّة:

– سأقبَلُه، وسعيدٌ بصداقتك.

– ما السّبب؟

– ستعرفينَ لاحقًا يومَ أنْ أعرف اسْمك.

تبادَلْنا رمْزَي الابتسامةِ والخجل، انتهتِ المُحادثة على الهاتف، لكنّها لم تنتهِ بداخلي، كُلّي يتنهّد، يتكلّم، يصرخ، يُخْرِج حرمانَ سنوات، ما سرّ قلوبنا؟ لماذا تنتمي سريعًا لكلماتِ الحبّ المتوارية؟ يا لَرَوْعة البدايات، ليتَها تبقى دومًا بدايةً بلا نهاية، ما سرُّ النّشوى التي تنطلقُ وتعْدو في خلاياي كمصباحٍ أضاء عتمةَ ليلٍ ظننْتُه دونَ نهار، لكنْ ما سرُّ الدكتور محمّد؟ لماذا بحثَ عنّي هوَ الآخر؟ قرأتُ رسائلنا مرّات ومرّات؛ فلمْ أخرجْ إلّا بنتيجةٍ واحدة، يحتاجُ وجودي كما أحتاج، لو يعي الأزواجُ أنّ الميلَ للآخر أمرٌ جِبِلّيٌ فُطِرت عليه أرْواحنا، وإذا لم يشبعْ هذا بداخلنا فإنّه يتركُنا لهاويةٍ سحيقةٍ نتردّى فيها بين النّقص الكئيب أو الاكْتمال المخزي، لو يعلمُ كلّ زوجٍ غافلٍ أنّ الشّوق للعاطفة والحرمانَ الطويل عندما يمتزجان يصْنَعان مزيجًا مِن اللامعقول يُمكن أن يُخرج المرأةَ عنْ أيّ قواعدَ أو أصول، لو يعلمُ الرّجلُ الذي يُلقي بمشاعرِ امرأتِه على قارعة الطّريق أنّها ستصبحُ غانيةَ مشاعر، مَن قال إنّ

الدّيّوث هو مَن يترك امرأتَه لغيْرِه فقط، بل هو مَن يترُك أيّ شيء منْها لغيره، حتّى وإن كانت بضعَ كلمات.

تمزّقت، وذبلتُ، وخَفَتَ وميضي الذي كان قد بدأ في البَريق، وأنا أنتظرُه يوميْن لم يرسلْ فيهما حرفًا واحدًا، لكنّي لنْ أكونَ البادئة، سأتركُه حرًّا دونَ أيّ ضغوط، فليقتربْ إنْ أرادَ، وليأتِ على مَهَل، حتّى لا يرحلَ على عَجَل.

فليَأتِ على مَهَل، حتّى لا يرحل على عَجَل، كبحْرِ صمتي الذي كان يهدْهِدني عنْدما رنّ الهاتفُ مُعلنًا وصولَ رسالة، هتفَ قلبي وارتعشتْ أصابعي، وأنا أضغطُ رمزَ الدّخول، صورتُه في تلك الدائرة الصغيرة أصبحتْ كحْلَ عينيّ، تطلقُ من داخلي ابتسامة حياة، أمنية الخيرِ للصّباح ردَدْناها لبعضنا، سألني عنْ أخباري، وسألتُه عنها مع رمزِ خجلٍ فهِمَ منْه تلْميحي لاختفائه..

- سافرت يومي الخميس والجمعة المنيا لزيارةِ والدي.

تمنّيت أنْ أغوصَ في أعماقِ حياته المختبئة خلفَ باب الاتّزان، أرسلت سؤالًا ماكرًا لا يصدُرُ إلّا عن قلبٍ يَغار، فهل فَهِم؟

- ألا تعْتَرضُ زوجتُك على تمْضيةِ الأجازة الأسبوعيّة هناك؟

لا أعلمُ لماذا، وبالرّغم من محادثتِنا الكتابية إلّا أنّني سمعتُ صوتَ تنهيدتِه قبلَ أن يجيب:

- أسافرُ مرّة واحدةً في الشهر، لا تأتي معي على الرّغم من طيبة والدي.

حقًّا، لا يشعرُ بالنّعمة إلّا مَن حُرِم منها، مِن تلك التي تضيعُ ساعات ذهاب وإياب، لا تنظرُ فيها إلّا لقسماتِه، ولا تسمعُ فيها إلّا رنينَ صوتِه، وهل للحبّ معنى إلّا الاسْتحواذ على أحبّائنا دونَ الآخرين، شاركته التّنهيدة..

- ويُضايقك هذا؟

– أكثرَ ممّا تتوقّعين، الرّحلةُ طويلة، والوحدةُ ذهابًا وإيابًا.. تُشْعرني أنّي لم أتزوّج ولمْ أنجِب، كما أنّ والدتي يُحْزنها عدمُ رؤية أحفادها.

سادَ صمتٌ قطَعَه برسالة..

– هل يُمكن أنْ أعرف ظروفَك الاجتماعية؟

– متزوّجة، وأمٌّ لطفْليْن في المرحلة الابتدائية.

– عمري سبعةٌ وثلاثين عامًا، فكمْ عُمرك؟ (ثمّ أرسلَ رمزَ الخَجل مع كلماتٍ رقيقة): أعْلمُ أنّ النّساء لا يحبّذنَ السّؤال عنْ أعمارهنّ.

أرسلتُ رمزَ ابتسامةٍ مع الإجابةِ الحقيقيّة..

– ثلاثون.

– الضّغوط التي تحدّثتِ عنْها مع زوجك.

– لا يوجدُ بيْننا إلّا الضّغوط، زواجُنا كائنٌ حيّ انْسحبت منْه الرّوح، ولنْ تعود.

– كان الزّواجُ عن حبّ؟

– زواجُ صالونات متوافق تمنّيْت أن يتحوّل لحبّ..

شعرتُ بالغيرةِ تدبّ في قلبي، سؤالُه لا يعني إلّا أنّه أحبّ، فرددتُه له:

– نعمْ، كنتُ أنا وزوجتي على علاقةٍ عاطفيّة قويّة قبْل الزّواج، زميلتي بنفْسِ المدرّج.

ضغطُ الغيرةِ يَزْداد، فعُدتُ لأسئلتي الماكرة:

- جميلٌ الزّواج عنْ حبّ؟

جاء ردّه كما توقّعت، وكما أراد قلبي:

- عندما يدوم.

سؤالي عنْ سبب عدم دوامِه كان منطقيًّا، لكنّي لمْ أتوقّع ما حدث، مرّت ساعةٌ كاملة مِن أطول ساعاتِ عمْري، لا ردّ ولا اعْتذار، هل كانَ سؤالي جريئًا لدرجة إخافتِه منّي؟ مرّت تلك السّاعة في أكثرَ من خمسين هل.. ظننتُ أنّه قطفَ أجْملَ عبيرِ عرفَه قلبي ورَحَل، رحَلَ بالشّروق ولم يترُكْ لي إلّا المَغيب، توهّمت هذا من شدَّةِ خوْفي لفقْدانه، لكنّي عرفتُ لاحقًا أنّه لمْ يمتلكْ من الوقتِ ما يكفي لردّ أو اعْتذار، فاجأتْهم حادثةُ طريقٍ أوْدَت بحياةِ اثْنين وأربعة مُصابين بحالاتٍ حرجة، هرْولَ إلى غرفة العمليّات لينهي واجبَه أوّلًا، ثمّ يكملُ معي حديثَنا الذي أسرّ لي أنّه يعشقُ فيه روحَ تواصلٍ أخْفتْها سنواتُ زواجِه في جُعْبتها، كلّ عامٍ يمرّ يحصُدُ أمامَه تفاهمًا واكتمالًا كانا يجمّلان علاقتِهما، لم تعدْ حبيبتَه التي يسري دفْء جسدِها في جسدِه فيصلُ إلى قلبه، شغَلتْها الأنديةُ وشلّةُ الصّديقات، أدمنتِ الشّراء فحوّلتْه لبنْكِها المتنَقّل، مموّل يحقّق مشاريعَ خيالِها وحدَها لا مشاريع خيالِهما معًا، تباعدَتِ المسافاتُ فلم تعدْ تأبَهُ لعدمِ وجوده مادامَ يحقّق مكاسبَ تُدفَع لكلِّ ما هو جديدٌ في بيوت التّجميل، ليسَ له.. بلْ لتتحوّل كإحْدى سيّدات طبقةٍ ليسوا منها، وهو بطبيعتِه رجلٌ كريم، لم يعدْ طفلَها الذي تنتظرُه وهوَ عائدٌ مِن

عملِه على عشاءٍ يجْمَع بينهما لتُطْعمَه بيدِها، ثمّ تهدْهِده في صدْرها الدّافئ الحَنون فيلقي بكلّ متاعبِه عليه، لم تعدْ تستمعُ لمشاكلِ عملِه، ولا تُصْغي لهَمس رجولتِه، عشاؤه أصبحَ يُلقَى على طاولةِ الطّعام مع ورقةِ الاحْتياجاتِ المادّية، اخْتُصرتْ حياتُها في تلك القصاصاتِ الورقيّة التي يجمعُها طيلةَ عاميْن، عملُه يلزمُه السّهر، وحياتُها التي صنعتْها بعيدًا عنْه تلزمُها النّومَ مبكّرًا، وعدم الأكل في وقتٍ متأخّر حتّى لا يزدادَ وزنُها، وتظهرُ الهالاتُ السّوداء حوْل عينيْها، تصنعُ مِن نفسِها "مانيكان"، ليس له ولكنْ للمرآة، كم أتمنّى أنْ ترى مَن هُنّ مثْلي لتعرفَ أنّها تفرّط في الغالي وتجمعُ الفاني، تراني وأنا أتلهّف لعودةِ حبيبٍ وضمّةِ عاشقٍ، وحنانِ زوْج، ومعَ مَن أهملتْ هي غَدَا قلبي العاشقُ كطفْلٍ صغيرٍ غابتْ عنه أمُّه طويلًا، سمعَ صوتَ أقدامِها تخطو على الدّرج فانتفضَ ليفتحَ لها البابَ كلّما رنّ صوت رسائلي..

– سامحيني، أنْهيتُ كلامَنا بغير اعْتذار.

أسامحُه! فليسامحْني هوَ على خدْعتي التي تحملُ بيْن طيّاتها حبًّا صادقًا.

– بل سامحْني أنتَ إنْ كان سؤالي سبقَ وقتَه.

– تعْتذرينَ عنِ اهْتمامك! الاعْتذارُ يكون عنْ عدمِه.

بماذا أجيب؟ يا لجَاذبيتِه التي أشعرُ أنّها كمغناطيس ضخم، وما كياني أمامَه إلّا قطعةٌ معدنيّة رقيقةٌ تنجذِبُ نحوَه دونَ أدْنى إرادةٍ، أشْعرُ بأنْفاسِه تسْري على وجْهي في فراغٍ شاسعٍ لا يحوي إلّا كلَيْنا، فهلْ غبتُ كثيرًا في أحلامي، فاضطرّ إلى إرسالِ رسالةٍ أخرى..

- ألمْ يكنِ اهْتمامًا، هل فهمتُ خطأ؟

لمْ أستطعْ إلّا إرسالَ رمزِ الخجل، ليرسلَ هوَ رمزَ ابتسامةٍ مع رسالة..

- أقولُها كما يجبُ أن تُقال، أنا مُهتمّ، وأنتظرُ الرّد.

لم ينتظرْ طويلًا، أرسلتُها بسرعةِ بطْء حياتي:

- وأنا أيضًا.

"وأنا أيضًا" لا أعرف كيفَ أرسلتُها، لكنّ ما أعرفُه جيدًا أنّه لم يستطعْ أحدُنا إكْمالَ تلك المحادثة، رحلَ كلٌّ منّا بخيالِه مع نشوى بلوْن القمرِ بعيدًا في سماءِ الشّوق، تغزلُ خيوطًا فضيّة تتشابكُ ليضيء ظلام ليلٍ طال، نَسفتْ تلك الكلماتُ القليلة آلامَ وحْدتي وحِرْماني، انتفَضَ البُركانُ الثائر بحمَم المَشاعر التي أغْلقنا عليها فوّهةَ قلبيْنا طويلاً، لكنّها تصاعدتْ رغمًا عنّا لتصنَعَ طريقًا ظنَنَّا أنّه طريقُ النّجاة.

لم تعدْ تطفئ الرّسائل المُتواصلةُ- في أيّ ساعةٍ مِن ليلٍ أو نهار- حرارةَ قلبَيْنا، انْصهرْنا تحتَ وطْأة شدّةِ الحرارة، فصنَعْنا معًا عالمًا سحْريًّا جديدًا ممتزجًا بكلِّ حَكَايانا ومَشاعرنا وأحَطْناه بقشرةٍ صُلبةٍ منَ الصّمْت، فلم يستطعْ أحدٌ ممّن حوْلنا النّفاذَ منْها، حتّى عندما دخلتْ نسرين عليه المطبخ لم يبْدِ أيّ اهْتمام، وردّ عليها الصّباحَ وهوَ مُنْشغلٌ بي، يكتبُ لي كلّ ما يدورُ حوْله، سادَ بينهما سكونٌ لم يقطعْه سوى سؤالِها عنْ سببِ صمْته..

- ماذا تريدينني أنْ أقول؟

- أيّ شيء.

- حاولي أنتِ أنْ تجدي شيئًا أصبح مشتركًا بيننا نتحدّث فيه.

انتابَها تردّدٌ، ففاجأها:

- أسألك أنا؟ ما سببُ وجودِك في البيت؟ ألَا يوجدُ اليومَ لفّات تراك، إفطارٌ مع صديقاتِك حوْل حمّام السّباحة، جامينزيوم، جلسةُ وصْلِ شعْر، عرضُ أزياء، دشّ بارتي، حفلةُ شاي أو رقص، أو عيد ميلاد؟!!

وجّهتْ له نظراتِ عتابٍ يملؤها سخط، وهي تُحاولُ أن تسحبَ الفنجان من يدِه..

- دقائقُ وسأصْنعُ لك النّسكافيه.

اعترضَ بغضبٍ وتمرّد، وهو يجذبُه بعيدًا:

- تعوّدت على صُنْعه مع إفطاري، لا تجْهدي نفسَك حتّى لا تظهرَ على وجْهك علاماتُ الإرْهاق، لا تنشغلي بي، جهّزي لَما جعلك تستيقظينَ مبكّرًا، أنا لستُ هنا. (ثمّ أكْمَل).. آااه، ولا تنسيْ أنْ تكتبي ورقةَ طلباتِك وتُلْقيها بجانبِ عَشائي ليلًا.

ازدادتْ نظراتُ امتعاضٍ واستنكارٍ خفيّة على وجْهها، أنْهى إفطارَه سريعًا، ثمّ رفعَ حقيبتَه وانْصرفَ دونَ كلمةِ سلامٍ؛ حين استقبلتُ أنا المرآة الثّانية، وضعتُ له إفْطاره وتركتُه يستمتعُ بوحْدتِه التي أصبحتُ أستمتعُ بملامحِها على وجْهه، محاولتُه لجذْب الهاتف من يدي وهوَ يسأل عنْ سبب انشغالي باءتْ بالفشل، رفعْتُ عيني عنِ الهاتف ببرود:

- لا شيء.

- تعالي خلْفي، أريدُك الآن.

قالَها بلهجَةٍ آمرَة مزّقتْني غيظًا، خطوتُ نحْو الغرفة كجثّةٍ متحرّكة تتّجه نحْو طبيبِ تشريح، استسلمتُ لرغْبته واعْتبرتُها جلسةَ كهرباءٍ في مستشفى

عصبيّ لمريضٍ ضغطَتْ عليْه الحياةُ بثقلِها، أو ساعةَ تعذيبٍ في معتقل سياسيّ لسجينٍ لمْ يقترفْ أيّ جُرْم، أو جلسةَ علاجٍ كيماويّ لمريضِ سرطانٍ يتمنّى الشّفاء، لكنْ إلى متى؟ جلسةُ الكهرباء والكيماوي نهايتُهما الشّفاء أو الموت، ساعةُ التّعذيب ستنتهي بالحريّة أو الموت؛ أمّا أنا فليس لي أيّ أملٍ في شفاءٍ أو حرية، أصبح الموتُ هو الوحيدَ القادرَ على اقْتلاعي من تلك الأرضِ الجافّة التي سحبتْ جذوري بداخلِها، امتصّ أشرفُ- في دقائقَ- ما جنيْتُه مِن قطراتِ حياةٍ في أيّام، ثمّ تركني ورحَل.

***

فيضُ نهرِ حنانِ محمّد وحدَه فقط هوَ مَن أصبح يُحيني بعد كلّ مرّة يقتلني فيها أشرف مع سبْق الإصْرار على فِراشه، ألقي روحي فيه فتغتَسِل، وجودُه أصبح شهيقي للحَياة، الرّسائل لا تتوقّف إلّا ساعات النوم التي لم تعدْ طويلةً شوقًا للآخر، أصبحنا كالقمَر والبحْر، القمر يغوصُ في أعماق البحر فيمنَحُه تلألأً وحياة، لكنّي لم أعرفْ يومًا مَن الذي غاصَ في أعْماق الآخر؟

- لم أعدْ أتخيّل كيف كانت الحياةُ بدونك!

- ولا أنا.

- تأخّر طلبي، أردتُك أنْ تطمئنّي، أريدُ أن أحدّثَكِ صوتًا.

لم أستطع الردّ لفترة، ولم يرسلْ هوَ أيّ تعْليق إضافي، ينتظرُ وسيظلّ في الانْتظار، تأَخّر طلبُه فتصوّرت أنّه اكتفى بطيفي كما اكْتفيت، لكنّه لم يعدْ

يكتفي بالخيال، يريدُ إحساسًا حقيقيًّا ملموسًا، لنْ يسمح لعلاقتنا أن تظلّ حبيسةَ عالمٍ وهميّ تنبتُ في صندوقٍ زجاجيّ مُغْلق، وما أنْ ينفذُ الهواء تذبلُ ثمّ تموت، إمّا يحرّرها من القيود والاختناق، أو سيئدُها بداخله قبل أنْ تصبحَ شجرة ضخمةً تتغذّى على قلبه إذا لمْ أستطعِ التّحرّر من قيْد أشرف.

محمّد ليس الرجل متعدّد العلاقاتِ الذي سيغذّي روحَه بقلوب الأخْريات، لا يحبّ إلّا نادرًا، لكنّه طالما أحبّ فسيُصرّ على حبّه، كان شابًّا مغتربًا من الصّعيد، يحيا في المدينة الجامعية على مصروفٍ يكْفِيه بالكاد، يحصل عليْه من أيّ عملٍ مُتاح في شهور الأجازة الصيفية، لكنّه عندما أحبّ نسرين، وبالرّغم من ضيق ظروفِ أهْلها هي أيضًا؛ أصرّ على خطبتها وفعلَ كلّ ما في وسْعِه ليُحيي حبّهما، هي التي لم تقدّر كفاحه، ونسيتْ معاناتِه في غمْرة نشوتها بالصّعود بعد سفرهِما إلى الإمارات سبعَ سنوات كاملة، لم يحْظَ هو إلّا بالشّقاء، ولم تعرفْ هي إلّا طعمَ النّعيم الذي أصرّت على تذوّقه في كلّ مراحلِ حياتهما القادمة، ولأنّه يعتزّ برجولته ظلّ كما هوَ، ولنْ يتحوّل الآن إلى شبيهِ رجلٍ يُشبع عاطفته بعاطفةِ امرأةٍ مثلي يستغلّ ضعفَها وظروفَها، لقد اكتملتْ عاطفتُه تجاهي، وعليّ أن أختار، إمّا اللّقاء وإمّا الفراق، إمّا الموت وإمّا الحياة.. هكذا قال.

هل يشعرُ بقلبي الذي أحبَّه حبًّا لو وزِّع على أهل الأرض لكفاهم، وهو يخيّرني بيْن الوجودِ الكامل أو اللاوجود، إمّا التقدّم تلك الخطوات التي لا أعرفُ أين ستذهب بي، أو التّراجع إلى الوراء. أعي جيدًا أنّ التّراجع لن يعقبه

تقدّمٌ آخر، الاختيار صعبٌ.. والحيرةُ قاتلة، محمّد حبُّ عمري الذي بحثتُ عنه، والسّعادةُ التي ستمحو الشّقاء.. لكن.. ماذا سيكونُ شعورُه عندما يعرفُ شخصي؟ هل سيتبدّل؟ هل ستُغيّر قلبَه خُدْعتي؟ حقًّا أنا لم أكذبْ لكنّي لمْ أبُحْ؟ رأسي يكادُ ينفجر، وعليّ أن أختارَ بين التقدّم والرّجوع، التقدّم يحتاجُ قوّةً، والرّجوعُ يحتاجُ قوّةً أكبر، وأنا ضعيفةٌ ولن أقْوى على المقاومة.

أنا ضعيفةٌ، ولنْ أقْوى على المقاومة؛ لذلك وصلتْه رسالتي تحملُ كلمةً واحدة..

– موافقة.

– ردّي على الهاتف.

فُتحَ بابُ الحقيقة بيننا ليُخرج مشاعرَنا واشْتياقنا إلى نوْرِ الشّمس ووهج النّهار بعد زحفِهم طويلًا في نفق مُظْلم، خوفي مِن الفراق دثّرني، جسَدي يرتعدُ، ودُموعي تنسابُ بغيْر حوْلٍ منّي ولا قوّة، قلبي يستعدّ لرحلة دفن أخرى، لكنْ تلك المرّة سيكونُ وأدًا لأنّ قلبي كان حيًّا بين يديه.

– لِمَ التّردّد والخوف! كنتُ أتخيّل أنه لا وجودَ لهما بيننا، فهل أخطأت؟

– لم تخطئ، لكنّه الخوف.

– وإنْ قلت لكِ اطمئنّي، اجْمعي أمانَ العالم كلّه في صندوق، وألقيه في قلبِك، ولا تخافي ولا تحزني.

تنهّدتُ تنهيدةً خرجتْ من أقصى أعماقِ قلبي المُرْتعد، فأكْمَل:

– لم أعدْ أستطيعُ الاسْتغناء عن وجودِك في حياتي، سيبقى هو الحياة حتّى لو فنيَتْ داخلي الحَياة، وإنْ لم يكنْ هذا مُتَبادلًا سأبتعِدُ فورًا، إنهاءُ الأمر أفضلُ مِن العذاب به.

– لكنّي ما زلتُ خائفة.

- حتّى منّي؟

سادَ بيْننا سكونٌ لم أعلمْ أنّه سيسبق العاصفة.

- حسناء، لا تخشي شيئًا طالما أنا بجانبك.

حسناء! ابتلعتُ ريقي الذي جفّ مِن هوْل المفاجأة، يعرفُ مَن أنا؟!!

- تعلمُ مَن أكون!!

- معَ بداية تعليقاتِك على منشوراتي، ورؤيةِ ظلّكِ المُتابع لي؛ عرفت.

صمْتي جعَلَه يُكْمل:

- شعرتُ مِن أوّل لقاءٍ بيننا بحبْلٍ خفيّ يرْبطني بك، وعرفتُ أنّني لم أفتتحْ تلكَ العيادة إلّا لألقاكِ، رسالتي كانت أوّلَ رسالةٍ خاصّة أرْسلُها لامرأةٍ، لكنْ بعد أن تأكّدت مِن تبادل ذلك بيننا.

تردّدتْ ضحكةُ راحةٍ وسكينةٍ تشعّبتْ في قلبي، فانبعثتْ إلى شفتي وأنا أقول:

- وألقاك.

اتّفقنا في تلك المكالمة على أوّلِ لقاءٍ سيجمعُنا، تردّدت.. لكنّه ألقى في قلبي الأمان، لم يوافقْ على تحْديد مكانٍ لموعدنا، أصرّ على اصْطحابي ذهابًا وإيابًا، مع تذْكيري بأنّه رجلٌ صعيديّ غيور، تحدّيت خوفي وجلستُ بجانبِه في السيّارة، أشعرُ لأوّل مرّةٍ أنّي امرأةٌ بجانبِ رجلٍ حقيقيّ يغار.

أطاحَ الهواءُ بشَعْري ونفَضَتْ عقلي ذكْرى أليمة من غُبار حياتي المُتراكم مع أشرف، يومَها اتّفقنا قبل خروجِه صباحًا على أنتظارُه عصرًا ليأخُذَني إلى والدتِه المَريضة في المستشفى، تلقّيت- بعد ساعاتٍ- مكالمَتَه التي أسقطته من عيني أرضًا:

- يُسري صديقي قريبٌ من البيت، سيمُرّ عليكِ ويُحْضرك إلى المستشفى، لا داعيَ لأن أتكبّد عناءَ المشوار وهو قريب.

يسري! مَن يسرى هذا الذي لا أعرفُه لأجلس بجانبه!! لم نكنْ كأسرةٍ من النّوع المتديّن، لكنّ شبح كرباجَ أبي لم يسمحْ لي بتجربةِ تلك الحماقة كبعض الفتيات، ستكون أوّلَ مرّة أجلسُ فيها بجانبِ غريب، حاولتُ الاعْتراض:

- كيف أركبُ السيّارة مع غريبٍ حتّى وإنْ كان صديقك!؟

تلقّيت ردًّا أغْلقَتْ بعدَه أبوابُ قلبي التي كانتْ ما زالت موارَبَة:

- كَفاكِ تخلّف، ثمّ هل ترينَ نفسَك تلك التي سيلتفتُ لها رجلٌ مثل يسري، أو حتّى غيره، كفّي عنْ إزْعاجي؛ يُسري أسفلَ العمارة.

أغلقَ الخطّ في وجْهي، تلفتّ وأنا أنظرُ إلى الهاتف بدهْشَة، مَن هذا الذي كان يتحدّث: زوجٌ أمْ ظلّ زوْج! انْكسرَ خاطري، وانْكسرتْ معه أشياء أحدثتْ ضجيجًا داخلي، كان يسري ينتظرُني داخلَ سيّارة جيبّ سوداء، لا يزيدُ عن زوجي ولا يقلّ.. مرآة، لم ينسَ هذا اليُسْري الصّديق الوفيّ طيلة الطّريق اختلاسَ النّظرات لي من خلفِ زجاج نظّارة شمسية باهظة الثمن تخفي رِخصَ معدنِه، صمْتي استفزّه فجعلَه يزدادُ مدحًا في شياكتي وجَمالي،

وكيفَ أنّه كان يتمنّى الارْتباطَ بمثلي، وإنْ وجدَها فسيحطّم أيّ عائقٍ يحولُ بينهما، مع إلقاءِ الضّوء على بعض عيوبِ أشرف، تلفّحْتُ بصمتٍ ثقيل ملأ جسدي بعرقِ الاشْمئزاز، اختصرتُ كلَّ الكلام في جُملةٍ واحدة ألْقيتُها عليه، وأنا أضعُ قدمي على الأرض:

– شكرًا على صداقتِكَ الوفيّة لأسْرتنا.

وها هي الأيّام تمرّ فأصبحتُ أنا التي لا تهتمّ لوجوده، لم تعدْ التي تأتي وتمضي بلا حبّ أو سعادة أو تفاهم، أو التي كانت تجيء بالوحْدة وترحَلُ بها، تلوّنتْ في عيني الحياةُ الرّمادية الباهتة، صنعنا عالمًا سحريًّا بلوْنِ السّماء الصافية، امتلكني، أستيقظُ لأجدَ رسالته، أشربُ قهوتي الصّباحية معَه على الهاتف، لا أخرجُ من البيت إلّا بإذْنه، ألقاه في ساعتيْن هُما الدّنيا في عيني، كلّ شيء له رأيٌ فيه حتّى تربية أولادي، لا أقطع أمرًا إلّا بمشورتِه، وجدتُ نصْفي الضّائع؛ فاكْتَملت.

وجدتُ نصفي الضّائع فاكتملتُ، واكْتملَ هو، لم يعدْ يهتمّ بلامبالاة نسرين وانْشغالِها بكلّ ما هو تافه، لم يعدْ يبحثُ عن بقاياه بداخلِها، لم تعدْ هي الغريبةَ في المنزل؛ بل هو مَن أصبحَ ذلك الغريب، غرباءُ نحن فجمَعَتْنا الغربةُ لنستوْطِن، استوْطنتُ بداخِلِه فهدَمَ حبّي خيمةَ حبّها، أمّا أنا فلمْ يكنْ أشرفُ قد دقّ وتدًا واحدًا في قلبي؛ فلم تكنْ بداخلي خيمةٌ لتنقَضّ.

هل أكذبُ الآنَ وأنا أستعيدُ ذكرياتي وأقولُ إنّني لمْ أتوقّع ما سيقول وأنا أجلسُ أمامه في ذلك المكان الذي لا تتذكّر عيني أيًّا من تفاصيله لأنّي صدقًا لم أرَها، ولا تتذكّر أذني نغمةً موسيقيّة صدرتْ فيه لأنّي حقًّا ما اسْتمعت، فلم أكنْ أسمعُ ولا أرَى في حضرتِه شيئًا سواه، يسحبُني إلى فراغٍ شفّاف مضيء، أنْسى فيه مَن أنا، حتّى شقائي كنتُ أنساه، لقد رأيت الكلماتِ قبل أن ترسمَها عيناه، وسمعتُ نبضَ قلبه بها قبل أن تترجِمَها شفتاه.

- لم أعدْ أتخيّل اليومَ الذي أبحثُ فيه عنْكِ ولا أجدُك.

كلماتٌ كانت ستجعلني أحلّق مع طيور النّورس على شاطئ البحر الأحمر عند الشروق؛ فقطْ لو كانت في زمانٍ غير الزمان، انسابتْ دموعي واحترقتْ من لهيبها وجنتاي، كفكفتُها بأيدٍ مُرتعشة وأنا أقول:

- محمّد، أنت سطرُ الحبّ الوحيد في كتاب عمري، لكن ما يمزقني...

قاطعني وهو ينظرُ إليّ بحبّ لم أحْظَ بمثله يومًا، حتّى من أمّي وأبي:

- إنْ كان ما نحياه هو السطرَ الوحيد في كتابك، فيجبُ أن تكتمل صفحاته، وإلّا علينا محْوَه قبل أن يكتبَ السطرُ الثاني اللعنةَ علينا.

- كيف؟!! (قلتُها بضعفِ العالم لأنّي أعلمُ أنّني في حضرة أمانِه)

- تنفصلي ونتزوّج.

نظرتُ له بدهشةٍ وأمل لم أستطعْ إخفاءهما، كلمتان لكنّهما سيتحوّلان إلى معْولين يهدمان قلعةَ أسرى، هل شاءتِ الأقدار ألّا تنسَني فأرسلت لي في قلبِ الظلام مَن يُنير طريقي بمشْعَل الحبّ، ويأخذ بيدي لأصِلَ إلى سطح الحياة بعد أن دفنني أشرفُ في أعماقها!؟ خرجتْ من شفتيّ الكلمةُ الوحيدة التي بقيتْ بداخلي في ذلك الفراغ الذي أحْياه.. "أولادي".

- تعْرفينني وأعرفُك جيدًا، أولادُك هُم أولادي؛ والعكس.

هل معْنى هذا أنّه سينفصلُ هو أيضًا عنْ زوجته، هذا ما جالَ بخاطري، ولَمَحه في عيني..

- لها الخَيار، الانْفصالُ بمنتهى الاحترام، أو البقاء بأكثرَ منْه، هل سيسبّب لك هذا أيّ ألم؟

ألم! أيّ ألمٍ يمكن أن أشعرَ به وأنا معه، لو تزوّجني مع مائة سأنتظره مائةَ يومٍ حتّى أبلغَ صدرَه وأضعَ رأسي عليه، سأنتظرُه ليطفئ جمْرَ شوقي المُشتعل،

أنا أكثرُ مَن تعرف أنّ ساعةً واحدة في حضن حبيبٍ لا يقارنها عمْرٌ مع غيْره، تنهّدت وأنا أقول:

– وجودُك هو ما يعنيني، مهْما كان قصر الوجود ستبقى حتّى لو رحلت، الوجودُ ليس ساعات، فدقيقةٌ واحدة معك ستحيي ما ماتَ في سنوات.

منَحْنا لأعيننا صمتًا قالتْ فيه كلّ ما يُمكن؛ وما لا يمكن... قطعَه هو:

– لا داعي للتّأجيل، اطلبي الطّلاق اليوم.

"اطلبي الطّلاقَ اليوم".. لم أصدّق يومَها أنه يوجدُ مَن يمتلك تلك الرجولة التي لم أرَها يومًا في أشرف، لم يهربْ كما يحدثُ في مثل قصّتنا، ولم يعاملني كامرأةٍ أحبّت وهي متزوّجة؛ بل على العكس يتقدّم نحوي بخطًى ثابتةٍ وقراراتٍ حاسمة جعلتْ منه رجلَ أحلامي، أنا أيضًا يجبُ أنْ أكون مثلَه، وقفتُ أمامه بجرأةٍ زرعتْها سنواتُ سجني في نفسي، ورواها الأملُ في شهورٍ فأثمرتْ كلمتي:

– طلقني.

قلتُها كطائرٍ مَهيضٍ وقعَ أسيرَ فخٍّ لَعين، تلتفّ حوله شباكُ صيّاد يعرف كيف يُحكم الخِناقَ على فريسته، لم يتوقّع أشرف طلبي للطّلاق بذلك الحسْم بالرّغم من عدم وجود خلافٍ ظاهري، الخلافُ كان عفنًا دبَّ في جذور الحياةِ فتآكلتْ حتّى لو لم تكنِ الرّائحةُ تتصاعد إلّا من آنٍ لآخر،

نظرَ لي بتعجّب وهزّ رأسَه، تركني بين جدران الغرفة وحيدةً كأنّي مجرّد هواء، خرجتُ خلفَه، وسألتُه باستنكار:

- لماذا لا تجيب؟

فتحَ بابَ الشّقة وهو ينظرُ لي بقسوة، أغلقَه خلفَه بشدّةٍ شعرتُ أنّها حطمت جسدي من شدّةِ الخوف، فتناثرتْ شظاياه حولي وتركني عاريةً من أيّ أمان. تأخّر في عودتِه لأوّل مرّة منذ سنوات، ظننتُه لن يعودَ وسيمضي لحياتِه الليلة. كنتُ جالسةً بين أطفالي في غرفتِها، تنهّدت تنهيدةً ثقيلة عندما سمعتُ صوتَ مِفتاحه يدورُ في الباب وأنا أتخيّله بيننا يُلقي علينا كلّ ما هو ثقيل، أحمد وآلاء لا يتكلّمون في حضرتِه، الحاجزُ الذي أحاط به نفسَه كان أقوى من أنْ يخترقه أحدُنا، عيناه كانت تحمل نظرةً غريبة، ظننتُه- بسذاجتي التي لم أستطعْ رغمَ سنوات عِشْرتِه التخلّص منها- سيحاولُ أن يستميلَ قلبي كما يفعل أغلبُ الأزواج وهو يشير إليّ بطرْفِ أصبعه بالقُدوم نحْوه، وما أنِ اقْتربت حتّى جذبني مِن ذراعي بغلظةٍ، وسحَبني إلى الخارجِ لأجدَ بائعي الحقيقيّ أمامي.

- ما الذي يحدث؟ (قالها أبي؛ فلم أستطع الجواب)

ما يحدثُ هو ما يحدُث طيلةَ سنواتٍ تمرّ من عمري لا أشعر فيها إلّا أنّ أحدَهم وضعني على أوّلِ طريق، وأمَرَني بالعدو دون الالتفاتِ أو الرّاحة، أنفاسي اللاهثة انقطعتْ، روحي شارفتْ على الخروج.

ردّ أشرف باستعلاء:

- الهانم تريدُ الطّلاق!!

بدأتِ المسرحيةُ الهزليّة التي تُعرض على مسرح حياتي، مشهدٌ واحد يتكرّر طيلةَ عشْرِ سَنوات، نفسُ الكلمات ستُقال بين ممثّلين أتْقنوا المشهدَ واحْترفوا تمثيلَه، استمعتُ للحوار الذي أحفظُه عنْ ظهْر قلبٍ بصمت..

- هل ضايقتَها يا أشرف؟

قالَها أبي وهو يغمزُ له نفسَ الغمْزِ المتكرّر منذُ اعْتقالي، الفارقُ الوحيد هي الجيوبُ والتّجاعيد التي أحاطتْ عينيه، والتي لن تسلمَ منها عيني قريبًا بعدَ مرورِ سَنواتى في تلك التّعاسة وذلك الشّقاء، سمعتُ صوتَه يردّد جُملته المكتوبة بإتْقان:

- أضايقُها! أنا لا أمْتلك الوقتَ لهذا، وكلّ ما تطلبُه هي وأولادُها مُجاب.

اشتدّتْ نبرةُ أبي التّمثيلية التي كانت تُرْهبني مِن قبل، لكنّي واثقةٌ أنها لن تقذفَ في قلبي الرّعبَ مرّة أخرى.

- الرّجلُ لم يخطئ في حقّك، يُعطيك ما تريدين، عدم تحقيقِه لرغبتك في الطّلاق تعْني التّمسّك بكِ، فلماذا إذًا؟!!

كانتِ السّتارةُ تُسدَل هنا على عيني، وعندَ تلك الكلمات دونَ كفِّ تصفيقٍ واحدة، أخجلُ وأهربُ بهما، ولا يسعى أحدٌ ليجفّف دُموعي التي تبلّل

الأرضَ مِن حوْلي، واثقة أنّهم كانوا يروْنها لكنّهم لم يهتمّوا يومًا بتجفيفِها، كانتْ وسادتي هي مَن تقومُ بهذا، لكنّي لنْ أصمت تلك المَرّة، لن أخجلَ حتّى يقتل الحياءُ قلبي، وينقضّ على سنواتي، فأشيخُ وأنا خلف تلك الجُدران التي لا أشعرُ نحْوها إلّا بالكراهية.

لا أشعرُ نحْوَ تلك الجدران إلّا بالكراهية، ولأوّل مرّةٍ منذ زواجي أخرجُ عنْ صمتي الذي كفّنتُ نفسي به وأنا على قيْد الحياة.

- "الرّجل لم يخطئ".. كلماتٌ بالية أسمعُها طيلةَ عشْرِ سنوات ممزّقة، ثوبٌ مهترئ أوشك أنْ يفضحَ جسدي، أعيش وحيدةً مع رجلٍ لا يرى إلّا نفسَه، محرومةً من كلّ شيء، اتّفقنا على الاختلاف، أنا لا أحيا مع زوجٍ؛ أنا أحيا مع جمادٍ متحرّك، أعصابي لم تعدْ تحتمل.

لم أتخيّل يومًا تلكَ السّهام الجارحةَ التي انطلقتْ من فمِ أبي فأصابتني وأصابتْ علاقتي به في مقْتل..

- أنتم أولادي ولا يوجد حرج، ما أخبارُ علاقتكم الزوجيّة يا أشرف؟

أشعرُ الآن بدوارٍ وغثيانٍ كالذي شعرتُ بهما يومَها عندما لخّص أبي الحياةَ في المال والفراش، هل هذه هي نظرةُ الرّجال للزّواج؟!! لا يحفظون مِن قواعدِ الدّين، ولا يجادلون إلّا في التعدّد والقوامةِ والدّرجة التي لهُمْ علينا؟! ألم تمرّ عليهم كلماتُ السّكن والمودّة والرّحمة، كأنّ المصحف الشريف له نسختان؛ واحدةٌ للمرأة وأخْرى للرجل، حذَفوا له منْه تلكَ الآية؟ أين الرّوح وتلاقيها، القلبُ واشتياقُه، حتّى العلاقة الجسديّة أين توافقُها، ألم يسمعوا قولَ الله تعالى ﴿وقدّموا لأنْفسكم﴾ لكنْ ماذا سأقول؟ هل سيقبل أحدٌ أنْ أفتحَ فمي لأفصحَ أنّ تلك الدّقائق هي العذابُ بعينه في نظري؟ الرّجال لا يتقبّلون ولا يهتمّون إلّا بشكواهم في تلك المساحة التي جعلوها

ضيقة شائكةً على المرأة، وإلّا فهي مجرّدة من الحياء، هكذا أوْهموها بأنّ هذا هو الدّين، لماذا لا نتّهم مَن يشكو مِن الجوع أو العطش بقلّة الحياء، أليست كلّها أمورًا فطرية خلقها الله بداخلنا! أنا لست جائعةً لرجلٍ كلّ ما يراهُ منّي جسدٌ بلا روح؛ أنا جائعةٌ لوجودِ كلمةِ حبّ ولمسةِ حنان، وصدرٍ ألقي عليه حرْماني فيُشْبعني، لا أن أبقى وحيدةً هائمة في صحراء قلبِه التي لا تروي ظمآنَ ولا تُشبع جائعًا حتّى أموت، المهمّ ألّا أشْكو عطشي وجوعي.. أفقتُ مِن صدمتي على صوتِه الكريه..

- تستطيعُ أن تسألها..

تفحّصُ جسدي وعيناه تُرسلُ لي رسائلَ استفزازٍ؛ جعلتني أقتربُ من حدّ الجنون الذي زاده ردّ أبي:

- لا مشاكل مادية، أو علاقة زوجيّة؛ فلماذا هذا الطلب؟!

انْهرتُ أفْرغُ ما أحمله بين طيّات جسَدي وقلبي، وبصوتٍ بدا مرتفعًا، قلت:

- هل اخْتصرتَ الحياةَ في المال والفراش، أنا على حدّ الانْهيار، وأنت كلّ ما يَعْنيك أن تلقي بحفنةٍ من الرمال، ثمّ تنصرف لتبقى النارُ مشتعلةً تحرق داخلي، أنا لن أحتملَ أكثرَ ممّا احْتملت، أريدُ الطّلاق.. ولا شيء سواه.

كلماتٌ ظللتُ أكرّرها حتّى سقطتُ على الكرسي الذي أقف أمامه، لم يحرّكْ جسدي المُنْهار قلبَ رجل كلّ ما يَعْنيه أن يبقى الوضعُ على ما هو عليه، لا أدري مِن أين جاء بتلك القسوةِ وهو أبي!! هل يظنّ أنه يحافظ لي على

حياتي كما يزعم!؟ لَمَ فسَّرَ لي يومَ زواجي أنّه حكمُ إعدامٍ صادرٌ على أنفاسي بأيادي أشرف؛ لا بحبل مشنقة؟!

اقتربَ منّي وهو يربتُ على كتفي:

- لا أرى سببًا حقيقيًّا لطلبك، انسي تلكَ التّفاهات، والْتَفتي لبيتك وأولادك، كلمةُ الطلاق غيرُ مسموحٍ بها في العائلة. (ثمّ الْتفتَ لأشرف وهو يُكْمل) وأنتَ اهتمّ بها أكثرَ من ذلكٍ، النساءُ عقولهنّ ليست كعقول الرجال.

هزّ أشرف رأسَه بالموافقة، فانطلقتْ صفّارةُ نهاية الماتش ليفوز أشرف بالكأس، ويَهمّ أبي بالرّحيل وهو يبتسمُ بسخريةٍ على تفاهةِ عقول النساء، النّساءُ اللّاتي يرابطنَ في بيوتهنّ لتربية الأجيال كأنهنّ على جبهةِ قتالٍ؛ عقولُهنّ أخفّ من رجلٍ مثل أشرف المرابطِ مع أصدقائه وصديقاتِه! ملأت عيني دموعُ خيبةٍ في أبٍ كان يجبُ أن يكون سندي!!

- اخْتصرتَ معاناتي في المال والفراش، جاريةٌ هي ابنتك، ربّيْتها لرجل يملأ معدتَها، ويلهو بها مهْما كانت طريقةُ الحياة وطريقةُ اللّهو، ليتَكَ ما أنْجبتني..

انقضّتْ كلماتي عليَّ لا عليهما، ومزّقتني وأسالت دموعي..

حدقَ أبي فيّ بنظرةٍ لم أرَها في عينيه مِن قبْل، هل كان على وشكِ مُساندتي؟ أسرع أشرفُ ليختطفَ تلكَ البذرة حتّى لا تسقيها دموعي فتطرَحُ ثمرةَ عطْف، رفعَ حاجبيه بتحدٍّ وهوَ يقتربُ من وجْهي، ويقول:

- لنْ أطلّقك مهْما قلتِ أو فعلْتِ، وإذا نسيتِ أحمد وآلاء؛ أنا لن أنساهما.

أحمد وآلاء! تذكّرهما الآن ليكسبَ معركتَه معي، ثمّ ما يلبثُ أن يلقينا جميعًا على رصيف النّسيان مع صفّارة وداعِه اليومية.

انتفضْتُ واقفةً، وبمنتهَى التّحدي رددت:

- سأرفعُ قضيةَ خلع.

اسْتفزّني لأنْطِقها، ثمّ أفسح الطريقَ لأبي في مشهدٍ تمثيليّ وابتعد، كانت رسالتُه تقول "تصرّفْ أنت"، لم أشعرْ إلّا بيَدِ أبي ترتفعُ وتهوي على خدّي بعنفٍ أسْقطني مرّة أخرى على الكرسي جريحةً كسيرةً أتحسّس اللّطمة بكفّي، تركني واتّجه ناحية الباب.

- لنْ أقبلَ أن تفضحيني، ولن تتركي بيتك أبدًا.

رددتُ له الكلماتِ التي خرجتْ من كياني:

- وأنا لنْ أسامحَكَ ما حييت.

تركني وحيدةً مع سجّانٍ ملأت عينيه سُحبُ الشّماتةَ والاستعلاء فأمطرت كلماتِ.

- كمْ أشفقُ عليكِ لأنّك لا تدركينَ ما أنت فيه، هل تحاولينَ الخروجَ من قفصي!؟ مسكينةٌ أنت! (ثمّ اقتربَ منّي وهو يهمسُ بفحيح) كانَ لي في الماضي عصفورٌ حاولَ الهربَ، سأقولُ لك ما فعلتُه به لتتعلّمي؛ كنتُ سأخنقه لكنّي فكّرتُ أنّ موتَه السريع سيكون رحمة، تركتُه في القفص دونَ ماءٍ أو طعام حتّى عانى الموتَ لأيّام، استمتعتُ وهو يطلق أنفاسَه الأخيرة متعةً أشتمّ رائحتها الآن...

ثمّ اقتربَ منّي وهوَ يشتمني، وأكْمَل:

– ستلفُظينَ أنفاسَك الأخيرة هنا يا حسناء، وليس في أيّ مكانٍ آخر.

– أنتَ مَن يستحقّ الشفقة، روحُك مكبّلة بنرجسيّتك وساديّتك لعذاب الآخرين، اعلمْ أنّي مِن اليوم لستُ زوجتَك حتّى بدون طلاق.

– لا يهمّ، ستزدادُ المتْعة وأنا أراكِ كالعصفور الذي مات عطشًا، حقًّا أنّي سأحْرَم مِن جمالك وجسدِك، لكنْ لن يمتلكه غيري، الجفاف والموت البطيء هو أقسى عقابٍ لَمَن يحاول الهرب من يدي.

تركني ورحل بعد أنْ غرس في قلبي سكّينه، فسالتْ آخرُ دماء كبريائي، اتّضح الأمر، أسيرةٌ أنا كالعصفورِ المَهيض الذي تفوّق على ضعفه، مجرّد جسد وجَمال، كرهتُ جسدي الذي امتلكه عشْرَ سنوات فقذفت به للأرض وظَلَلْتُ أبكي ودُموعي تُطاوعني كأنّها شلّالٌ حبيس، التفّ حولي أحمد وآلاء بعيونهما البريئة وأياديهم الصّغيرة تربتُ عليّ بحنان، وشفاههما الرّقيقة تقبّلني، بينما جسدي يرتجِف، أين تلك التي تؤنّب ضميرها على عصفورٍ مات وفاءً لَمَن قتلَ آخرَ ببطء واسْتمتعَ بمقْتِله، أين أنا من تلك السّاديّة والوحشية التي يكتنزُها في قلبٍ مظلم، كيف سيمنحني النّورَ وروحُه تنْبتُ في الظلام؟!

كيفَ سيمنحني النّورَ وروحُه تنبتُ في الظّلام، كيف سيهَبُني الحياةَ وهو ميّت متحرّك، كفّنوني له بفستانٍ أبيضَ فخطفني أسفلَ الأرض في مقبرته فلمْ يعدْ يصلُني مِن سطح الحياة أيّ ضوءٍ؛ لا نور ولا نار، هل أخطأتُ عندما ملأتُ قلبي بحبّ محمّد وأنا متزوّجة؟ وهل ما أحياه هو معنى الزّواج؟ لن أقول كما تقول كلّ النّساء: ضعفْتُ؛ فحبُّ محمّد لم يكنْ ضعفًا؛ بل كانَ القوّة الوحيدة التي وهبتني إيّاها الأيّام، لكنّي سأقول إنّي كنت ظمأى وحيدةً هائمة في أرض فلاةٍ فقابلتُه، لم يكنْ سرابًا؛ بل كان نبعًا عذبًا صافيًا، وكنتُ على وشكِ فراق الحياة فارْتويتُ برشفةٍ تُنقذ روحي من الهَلاك، وهل على الهالكِ حَرَج! لم يلمسْ جسدي؛ لا عنْ عمدٍ ولا عن صُدْفة، لكنّي لنْ أكذب؛ فقدْ تمنّيتُ أن يحتضنَ جسدي المحرومَ ويُشْبعه، وها أنا على وشكِ العودةِ إلى نفس الصّحراء بظمأ أكبرَ ووحدةٍ أقْوى وجرحٍ غائرٍ نازفٍ لا يكفّ عن الأنين.

كان وجهي يسطّر ما حدث بحروفٍ من يأس ومرارة، وأنا أجلسُ أمامه صامتةً لا أستطيع النظرَ في عينيه، تنْهيداتي المُتكرّرة تُخرِجُ من صدري الحروفَ محْمولةً على الأنفاس، فقرأها محمّد كما اعْتاد أن يقرأني، لم يسألني ولم أجِبْ لكنّه عرف، ألمحُ في عينيه الحيرة، لن يقوَ على فراقي كما لنْ أقوى، لكنّه لن يستمرّ في هذا الطريق إلّا بعد انتهاء علاقتي بأشرف، وجهُه ماءٌ رائق يشفّ ما تحته، كلمةُ الفراق سكّين ستمرّ على رقبتِه ورقبتي قبْلَ شفتيْنا، لكنّه سينطقها لا محالة لتَسيلَ دماؤنا دونَ جُرح، وتزهقَ أرواحُنا دونَ خروج.

- هل سنفترق؟

هزّ رأسَه بيأس:

- حتّى اليوم كلانا يحملُ الحبّ في قلبه، لكنْ.. يومًا ما ستُجبرنا العيون والألسنة على الابْتعاد، الطريقُ الوحيد بيننا مُغْلق ولن يُفتح، كلّ ما سنحفرُه متاهاتٍ ستسحقُ كلّ ما هو جميلٌ بيننا، وتتركنا عرايا نتوارى من عيون الناس، وأنا أكرَهُ الاخْتباء، أنا مَن يجب أنْ يحميَكِ منْه لا مَن يدفعكِ إليه، شروقُ الشمس هو مَن سيدفئ نبتةَ حبّنا، ويمنحها النضارة والاخضرار، الاخْتباءُ ظلامٌ لن يمنحها إلّا العفنَ فتذْبُل وتذبل حتّى تتهاوى وتموت.

كرّرتُها بضعفٍ ودموع:

- هل سنفترق؟

هزّ رأسَه علامةَ الإيجاب:

- لن نفترق، لكنّنا لن نلتقي.

***

دموعي تنسابُ اليومَ بنفس حُرقتها يومَ فراقه، لم أكنْ أعلمُ عندما بدأنا الطّريق أنّه ليس طريقَ الحبّ؛ بل طريقُ الاكْتواء بنار الحبّ، عيني ذابتْ في النّظرة الأخيرة، واكتحلتْ بها، فصنعتْ أسفلها خطّي حِداد، لم يرحلْ وحدَه؛ بل رحلَ معه كلّي إلّا جسدي الذي لا أمتلكُ صكّ حريّته، اكتويت بنارِ الفراق وألم الاشْتياق وذلّ التّعوّد، أحاولُ السّيطرة بكلّ جهدي على

أصابعي التي يحرّكها قلبي حتّى لا أرسل له رسائلي الصباحيّة والمسائية، عيني تقطرُ روحي مع دموعي، وأنا أعيدُ قراءة رسائله، بدني يرتجفُ وأنا ألمحُه يدخلُ ويخرجُ فأتابعُه في صمتِ الأشْباح، وأتساءل: هل يشعرُ بظلّي كما كان يشعرُ به مِن قبْل؟ هل يتمزّق كما أتمزّق، أم أنّه تخطّى أمري بالعَمَل المُرْهق؟ اشْتياقي أصبح الدّائرة التي أدور فيها طيلةَ وقتي، السّاعات التي كانت تمرّ معه لحظاتٍ أصبحتْ جبالًا راسياتٍ تمرّ أعوامًا طويلة، وأنا أكافح رغبتي في رؤيته أو سماع صوته أو إرسال رسالة أقول له فيها إنّ دقيقةً معه أفضلُ مِن عمْرٍ كامل بدونِه..

الأيامُ تمرّ، وأشرف يستمتعُ بعذاب العصفور، جسدي ينحَلُ كنُحول روحي، قلبي تقلّص فلم يعدْ يمْنَحني ما يكفي مِن نبضٍ فتثاقلتْ أنفاسي، أولادي أصبحوا أطيافًا في عيني ألمحُهُم ببصيصِ قلبي.

لم أتوقّع مكالمَته وأنا مُلقاةٌ على أريكتي أعاني سكراتِ الموت دون رحيل، التقطتُ الهاتفَ كالميّت الذي يلتقطُ أنْفاس العودة إلى الحياة، كاللّقيط الذي عانى الوحدةَ والشّقاء، ثمّ وضعوه على صدْر أمّه، كالمهاجر الذي اشتدّت غربتُه فاحْتضنه وطن.

- حسبتُ أنّي لن أسمعَ صوتَك ثانية؟

قلتُها والدّموع تجري على وجنتي فتَصِل إلى شفاهي وتختلط بكلماتي لتخرج متقطّعةً بسكّين الشوق.

- أمّا أنا فكنتُ أظنّ أنه لا يوجد رجلٌ على وجْه الأرض يُبقي على امرأةٍ لا تُريده، كنتُ أحيا على أملٍ شنقَتْه الشهورُ الطويلة.

توقّفتْ كلماتُه المخنوقة هنا، سادَ صمتٌ سمعتُ فيه كلمةَ الرحيل قبل أنْ ينْطِقها..

- هل سترحل؟

تنهّد قبل أن يجيب:

- لم أجدْ مخرجًا إلّا الهروب، سأرحلُ وحيدًا وأتركُ ورائي ما عداي.

كنتُ صامتةً تستدعي مخيّلتي كيف ستكون أيّامي بعده..

- تكلّمي، أريد أنْ أسمعَ صوتك ليملأني قبل الرحيل.

- سترحل؟

- سأرحلُ وأحملُك معي طيفًا وحلمًا، أملًا ويأسًا، ذكرى وحقيقة لا غيرها في حياتي.

- إلى متى؟ وإلى أين؟

- للخارج، راسلتُ جامعاتٍ وحصلتُ على منحة دكتوراه، وقدْ لا أعود.

- هل ستختفي من أيّامي، وتأخذ كلّ الضياء لتنيرَ بقعةً أخرى مظلمة.

- كنتُ جسدًا معتمًا، وأنتِ شمسٌ مشرقةٌ منحتْني الضّياءَ، فكيف سأضيء لغيرك!!

لم يستطعْ إكمالَ كلماته، أراه بقلبي وهو يقاوم سقوطًا ما يدلّ على ضعفه، سادَ بعدها صمتٌ شقّه الوجع..

- والعيادة؟

- آخرُ يومٍ لي فيها، سأغلقُ معكِ الخطّ وأغلقها.

ساد صمتٌ لدَقائق..

- أنتَ هنا؟! ليسَ موعدك.

- انْتظري؛ هناك مَن يدقّ الباب.

"انْتظري؛ هناك مَن يدقّ الباب" قالَها وهو يفتحّه فلم يكنْ وراءه إلّا أنا، لم أتحمّل أنْ يفصلني عنْه سقفٌ، ويحْجزني عنه بابان، تحاملتُ بآخر قطراتِ القوّة التي استطعتُ اسْتجماعها، ذبلت العيونُ فالتقتْ في نظرةٍ ترويها وتشبعُ الحرمان، ارتعشتِ الأيادي، فالتقَتْ في أوّل لمسةٍ، تعبتِ الأجسادُ فانْهارتْ في عناقٍ طويل، لم تستطعِ الشّفاه الصّبرَ على لهيبِ الرّغبة فاسْتسلمنا لقُبْلةِ عشقٍ لن تشبعَ الحنين والَشّوق؛ بل ستزيدُ نارَهما، لفّ السّكونُ المكانَ إلّا من أنفاسنا الحارقة، أفقْنا من قُبْلة الوداع الطّويلة التي لا سبيلَ لها إلّا الانْتهاء لأهربَ قبل هروبه.. انتهى اللقاءُ بالفراق، والحبّ بالعذاب، واللهفةُ بلهيبِ الحرمان.. ليسير محمّد في طريق الهروب، وأسير وحيدةً في طريق الشّوك الدّامي.

عدتُ مِن رحلةِ حبّي الوحيد غير التي رحلت، أصبحتُ كالمسمار النّحيف الذي تسمّر في مكانٍ واحد لا يتحرّك منه، كمكعّب الثّلج الذي تجمّد لكنّه لنْ ينصهرَ مهْما ارتفعتْ درجةُ الحرارة حوْله، لم أبْكِه خشيةَ أن تتحوّل صورتُه في مقلتي إلى قطرات تتساقطُ مع دموعي، أمسكتُ عيني عليه كما أمسكتُ قلبي، لم أعدْ أتكلّم إلّا لأشدّ ضرورةٍ مع أبنائي، أقضي يومي مع طيفِه، وليْلي مع روحِه، لم أحصدْ من تلك الأرض التي اجْتزتها على رمالٍ حارقة وشوكٍ دام إلّا التخلّص من حقوقِ أشرف الزّوجية؛ فلم أعدْ أتكبّد دقائقَ امْتهاني، تحرّرت من عبودية الفراشِ لكنّي مازلتُ أسيرتَه التي ينفثُ فيها سمَّ نرجسيّته، مطفأتَه التي يلقي فيها شررَ أنانيتِه المشتعلة،

تلاحقني عيناه، أعلمُ أنه يريدُ أنْ يلتهمَ ما تبقّى منّي ويلفظَ بذرتي، لكنّه لن يلقيها أرضًا حتّى لا تصادف ماءً وهواءً فتُنْبت، سيحرصُ أن يُنهيني كعصفوره.

- هل تتخيّلين أنّك مهْما فعلتِ أو اكتأبت أنّني سأحرّرك من قيدي؛ على العكس.. سيشتدّ خناقي عليكِ أكثر، سأحاصرُكِ كشمعةٍ متّقدة أحمي شُعلتها من الانْطفاء حتّى تنصهرَ وتحترقَ بالكامل، فالأفضلُ لكِ أنْ تعودي.

نظرتُ إليه بعيونٍ ملؤها الوهنُ والاحْتقار:

- إنْ كان ولا بدّ، سأكونُ شمعةً محترقة، لكنّها لن تسمح لك يومًا بالرّؤية في نور شعاعها، سأتساقطُ كأوراقِ وردةٍ ذبلتْ باكرًا، على أنْ أمنحَك عبيرًا تستنشقُه، سأموتُ هنا كما تريدُ، لكنّي لنْ أمنحك باقي ساعاتي.

كنتُ- بالفعل- قد بدأتُ في الذّبول والانْهيار، ألمحُ طيفَ الموت لكنّه ما زالَ بعيدًا لا يقترب، استدعيتُه لكنّه لم يُجِب، لم تعدْ مأساتي في حبّي لمحمّد؛ فكمْ مِن حبٍّ ولِدَ مبتسرًا فلَمْ يحيا ولم يمُتْ، مأساتي كانت في ذلك الذي يحاصرني لينهي أمْري بلا قطرة دمٍ فيُحقّق الجريمة الكاملة، لا يترك دقيقةً يمكن أن يُسعرَ نارَ احْتراقي إلّا وينتهزها، شهرٌ واحد في حصاره وأصبحتُ هيكلًا محاطًا بساترٍ من الجلدِ الهزيل، وهو يرمُقني باستمتاع.

كنتُ أرقدُ في فراشي عندما سمعتُ صوتَ أبي يسأل عنّي، أدخله أحمد الغرفةَ فبُهتَ ممّا رآه، أينَ كان؟ هل تذكّرني فقط اليوم؟ هل ظنّ أنّ ابتعاده سيجعلني ضعيفةً فأسْتسلم؟ ضنّ عليّ بمُكالمةٍ أو زيارة ليعرفَ، أم أنّه يعرفُ

لكنّه فضّل الاخْتباء حتّى لا يمْنَحني وجودُه قوّة؟ يجهل أن وجودَه لم يكنْ يومًا مصدرَ قوّة؛ بل لم يمنَحْنِ إلّا الضّعفَ والخوف، فجعلني جاريةً لشبيه رجلٍ كلّ ما تمنّاه جسدَ امرأة.

اقتربَ منّي في ذهول:

– حسناء! ما الذي يحدث؟ كيف تكوني على تلك الحال ولا تتّصلي بي؟!

لمْ أعلّق، وتركتُ لعيني قولَ ما أراده كياني، أين كان.. وماذا فعل وأنا أستنجدُ به ليلحقَ ما تبقّى منّي قبل أن أغرقَ في بحرِ أشرف الهائج وتبتلعُني دوّامته، لم يرحمْ صّرخاتي الملهوفة ويدي المستنجدة، فهل جاء الآنَ لينتشلَ جثتي ويضعَها في مثْواها الأخير، أم ليجمع أشلائي الممزّقة؟ هل فضَّل أن يستردّ جثماني على أنْ يحرّر جسدي! أشحتُ عنْه بوجهي فقال أحمد

– لن تردّ، لم تعدْ تتكلّم مع أحدٍ حتّى أنا وآلاء.

– لا أفهمُ لماذا لم تعرضْها على طبيب يا أشرف؟ أسرعْ بطلبِ طبيب...

قالَها وهو يصرخ، صرخَ وروحي تتهادى بين الصّعود والهبوط، تمنّيت أنْ أصرخَ أنا أيضًا في وجْهَيهما، لكنّ صوتي لم يخرجْ وحُبِسَ كما حُبِس عمري وحلمي، آخرُ ما سمعته كان صوتَ ضجيج، وجسدي يعْلو ويهبط ثمّ يعْلو ويهبط، وخزاتٌ في ذراعي، شيء ما حُشرَ في فمي، وآخرُ أسفل منّي، ولا أعرف كم لبثتُ هكذا.

تنْتابُني اليومَ وأنا أتذكّر نفسُ سعادتي يوم إفاقتي من الغيبوبة التي طالت في مستشفى النّخيل، وقد ربحتُ مكسبًا لم أكنْ أتخيّله، الغرفةُ التي انتقلت

لها بعدَ العناية المركزة كانتْ أوّل إطلاق سراح من محْبسي، سمعتُ أسياخ الحديدِ تنْهار، والأقفالُ تُفتَح، والجدرانُ الخانقةُ تنقضّ؛ فشعرْتُ لأوّل مرّة بنَفَس الحرية، استنشقتُه فملأ رئتَيّ فابْتسمتُ بكلّ ما أحملُ مِن وَهَن وحُزن، لم تعدْ رغبتي في الارْتباط بمحمّد ولا في الطّلاق، تقزّمت فصارتْ في مجرّد الابْتعاد عنه، أحمد وآلاء أصبحا نقطةَ الأمل الوحيدة لاسْتمراري في سباقٍ مُنْهك، لا أطمع فيه بأيّة جوائز.

لم يبتعدِ التّشخيص عن الانْهيار العصبي والضّعف الجسدي الشديد، لم أعلمْ كمْ مكثْتُ في حريّتي حتّى سمحَ الطبيبُ بالخروج، مع رفع أيّ ضغط نفسيّ عنّي، تأهّبت للاعْتراض حين قال أبي:

- اسْمعني يا أشرف، إمّا أنّ حسناء ستأتي معي، أو ستترُكُ أنتَ البيت، أمرَ الطبيب برفْعِ أيّ ضغطٍ نفسيّ عنها، ولو مؤقّتًا، لا أريد مشاكل.

يعلمُ أشرفُ أنّ انْتقالي إلى بيت أبي سيُحرّرني، وينطلقُ العصفور بعيدًا عنْ محبسه، ويمكنُه ألّا يعودَ ليلقَى المصير الذي أعدّه له، ألمحُ عينيه وأعرفُ فيما يفكّر، سيترُكُ لي البيت ليوهِمَ الجميعَ أنّه رجلُ الأخلاق، ويُثبتُ أنّ رغبتي في الطّلاق جنايةٌ عليه وعلى الأولاد، سيرحَلُ مؤقّتًا ويترُك خلفَه ذكرياتي الممزّقة في كلّ ركنٍ من أركانِ مملكته، ثمّ يأتي ليفاجئني وقتَما أرادَ بما يريد، سيدقّ لي جرسَ ملَكيّته، ويشير نحْوي بصَكّ عبوديّتي الذي في يمينِه، قدْ يطْلقني يومًا، لكنْ بعد أنْ تكون قدِ انْتهت صلاحيتي، وأصبحتُ سلعةً راكدةً لا تمتدّ لها يد، سيطلقني رُفات.

***

سيُطلقني رفاتٍ أو لنْ يفعل، وأنا على سريرِ المرض مرّت سنواتُ عمري أمامي أبحثُ عن الذّنب الذي أصبتُه فابتُلِيتُ به؛ فلمْ أجدْ جريرةً واحدة، كنتُ فتاةً مطيعَةً في البيت والمدرسة، لم ألتفتْ لشابّ، لم أكذبْ وأتَسكّع وأهرب من درْس، كنتُ مُطيعةً، آه مطيعة!! الآنَ عرَفت، تلك الكلمةُ كانت هي السِّرّ، ناظرةُ المدْرسة صديقةُ والدتي ووالدته، فهل طلبَ منها فتاةً جميلةً ومطيعةً وصغيرةً؛ فحَظيتُ أنا بالتّرشيح؟! لا لن أكذبَ مرّة أخرى فلم أكنْ فقط مُطيعةً؛ بل كنتُ بلا شخصيّةٍ ومقهورة! هكذا أرادني.. وهكذا كنتُ، ولهذا انتقلتُ من سجنٍ إلى سجن.

عدتُ إلى بيتي مُستندةً على كتف حسام أخي، وزوجته نهى، لم أقبلْ أنْ يمدّ أبي لي يدَ العون، رفضْتُها ولم يستطع الاعْتراض، هو مَن سحقَ كياني، ودمّر قواي الدّاخلية، حطّمني لأكونَ الفتاةَ التي لا تعترضُ وإلّا فذلِكَ الكُرباجُ هناكَ على الحائطِ أراه منذُ أنْ تفتّحت عيناي، لم يُجلَد به جلدي ولو مرّة واحدة، أمّا روحي ونفسي وكياني، فكانوا يجلدون به في اليوم ألفَ مرّة، الخوفُ كان وسادتي التي أركنُ إليها حتّى لا يطال ذلك الكُرباج جسدي، اسْتمتعَ أبي بالانْتصار على قلبِ فتاتِه المهزوم، وسلّمني لجلّاد أقْوى وأعْتى، لا أتذكّر جيدًا لماذا وافقتُ على أشرف! هل أرْغمني أبي بنظرةِ عينيْه الآمرةِ كما كان يفعلُ في كلّ ما يخصّ أمري؟ أم أنّ أشرف تلفّح برداءِ اللّطف والمرح في مكر ليجذب طفولتي البَلْهاء؟ أمْ أراد داخلي الهربَ فهربَ من الخوف إلى الرّعْب الحقيقي؟ وجْهان هُمَا لعملةٍ واحدة، لكنّي ولأوّل مرّةٍ في حياتي

أستمتعُ برفْضي لهما مع عدم قدرتِهما على الاعْتراض، عرضتْ أمّي البقاءَ فاعترضت، حاولتْ أن تُثْنيني عن رأيي وتذكّرني بحاجتي للاهْتمام حتّى أستردّ صحتي..

- سأستردّها بعيدًا عنْكما، لا أريد أحدًا.

ثمّ نظرتُ لحسام نظرةً فهِمَها:

- اتْركيها لنا يا أمّي، سأمرّ عليها أنا ونهى يوميًّا طوالَ فترةِ أجازتنا حتّى يحينَ موعدُ عودتِنا لمكّة.

لم تعترضْ كأمٍّ تمتلكُ دوْرًا حقيقيًّا في حياةِ ابنتها الوحيدة، أين صدرُ الأمّ الذي كنتُ أسمعُ أنّه أوسعُ الصّدور وأرحبُها وأرْحمُها، لن أكذبَ وأقول أُغلقَ في وجْهي؛ لأنّه لم يُفتَح أصلًا، تفتّحت عيناي على اكتفائها بدوْر الزّوجة المُطيعة الذي حصدتْ منه كلّ ما تريده ببراعةٍ فائقة، كلّ ما تريد يقعُ عند أقدامِها؛ أمْوال، ذهب، مُمتلكات، لا يرفضُ لها أبي طلبًا بشرط أن تتركَ له دوْرَ البُطولة المُطْلقة في تربيتِنا ليحصد هو التّصفيق والجماهيرية وتحصد هي المُمتلكات المادية، وفهمتُ بعْد زواجي الشّرطَ الثّاني الذي كنتُ أجهله، عطاءٌ ماديّ مقابل عطاءٍ جسدي، هكذا كانت الصّفقةُ والتي كنتُ أنا خسارتها.

رحلَ الجميعُ وتركوني وراءهم بتلك الطّعنة النافذة التي لن تُشفى، البصمة القاتمةُ التي نقشها رحيلُ محمّد على قلبي ولن تنقشِع، ضممتُ أولادي بحَنان، نمتُ بينهما لأستظلّ بهما بعد أنْ أحْرقتني شمسُ الغياب.

خلَتِ الأيّام من صوتِه وصورتِه وذهابِه ومجيئه، رحلَ وأخذ معَه روحي ولم يبقَ إلّا الجسدُ ينتظر الذّهاب، هوّةٌ سحيقة فُتحت في حياتي، ولن يغلقها إلّا وجوده الذي لن يأتي، صدْمتي كانت هائلة عندما بحثتُ عن صفحته ولم أجدْها، هل أغلقها عامةً أمْ أغلقَها في وجْهي خاصّةً؟ من السّهل عليّ أنْ أصدرَ حسابًا جديدًا فأعرفَ؛ لكنّني لنْ أقوى على المعرفة، فليست كلّ المعرفةِ نورًا؛ بعضُ المعرفة ظلامٌ دامس، في كلّ الأحوال عدمُ وجوده كان لا يعني إلّا "البلوك"، فما الذي سيصنعُه الفارق، لكنّي أتساءل بكلّ ما يحملُه قلبي من ألمٍ ووهنٍ، هل الكونُ لن يصبح كوْنًا إلّا بالعذاب والرّحيل؟ وهل الإنْسان لنٍ يصبحَ إنسانًا دونَ اشتياقٍ وحنين؟ تلك الأسئلة كانت لا تغادرُ رأسي، تنعقُ به كما تنعقُ البومُ على الأرض الخراب، الصوت بداخلي لا يتوقّف، وسيؤدّي بي يومًا إلى الجنون.

مريم

انسلختُ مِن حسناء الحقيقية التي لم تنطلقْ منذ تفتّحت عيناها للحياة حتّى فارقتْ محمّدًا إلّا عامًا واحدًا، خرجتُ من جلدِها الضيّق أشعرُ بالعُري يخزيني، وبالبُرودة تجْتاحني، بتّ أستحلفُ مرورَ السّاعات ليفرّ عمْري ويأتي لي بلحظةِ فراقِ الأرض ومَن عليها، أجاهدُ صَدى صوتِه وصورتِه في مقلتي، وطيفه الذي احتلّ كياني لأنْساه.. لكنّ هذا لا يحدث! كلّ سنواتي عجاف إلّا عامي معَه، أمومتي هي الجذرُ الوحيدُ المتبقّي الذي يدبّ في قلبي فيضخّ لجسدي القليلَ من الدّماء لأحافظَ على شبحِ وجودي، ولوْلاهما لتركتُ ساقي تتهدّل ووريْقاتي تذْبُل، أنوارُ زوجةِ كرَم البوّاب لم تعدْ تتركني إلّا للنوم، لم يطلبْ منها أحدٌ ذلك إلّا أنّ تلك المرأة البسيطة كانت تمتلِكُ قلبًا ذهبيًّا عوّضني عنِ القلوب الزائفة التي تحيط بي، حَمَلت عنّي عبء البيتِ والكثيرَ من عبء الأوْلاد، أراقبُها وهي تتحرّك حوْلي بإعجابٍ، صُلبةٌ.. بالرّغم من ريفيّتها وضآلة تعليمها، فتيّةٌ.. بالرّغم من سنواتِ عمرها التي تقتربُ من الخمسين، صابرةٌ.. كصبْرِ الجِمال والجبال معًا، جميلةٌ.. بالرّغم من خطوطِ شقاءٍ تغْزو وجهَها، زوجةُ كرم الأولى التي لم تنجبْ؛ فقدْ كان رحِمُها أجفَّ من أيّامي.. هكذا عبّرت هي عنه، لم يصبرْ طويلًا حتّى تزوّجَ بأخرى، وجاء بها في العمارةِ المجاورة لنا فأنْجبتْ

له البنين والبنات، وللعجَبِ أنّ صغيرتَه الأخيرة تحبُّ أنوارَ كأمِّها، كانت تضحك وتتورّدُ وجنتاها، وهي تقول:

- حسبْتُ يومَ رُزق بالولد أنّي فقدتُه، لكنّه عادَ لي بعدها أكثرَ مِن قبْلِها، أصبحتُ له الهدوءَ والحنان اللّذيْن لا يجدْهُما هناك؛ حيث صراخُ العيال وكثرةُ الطّلبات وقلةُ الاهْتمام.

لم يرسمْ على شفتيّ ابتسامةً إلّا قولُها هذا، حقًّا لم يظلمْ ربُّك أحدًا؛ فقلبُها العامرُ بتقبّل قضاءِ الله وحبّ كرمٍ منَحَها سلامًا نفسيًّا لمْ تحْظَ به الكثيراتُ ممّن هُنّ مثْلي، كانت تُحني رأسَها وهيَ تردّد:

- غضبتُ منْه أوّلَ الأمر، لكنّي عذَرْته بعد مرورِ الشّهور، وبطني لا يثمر فظلّت بوارًا، احْتميتُ به مِن نقصي.. وهو حماني فلم تستطعْ زوجتُه الثّانية- بالرّغم من محاولاتِها المتكرّرة- أن تضغطَ عليه ليطلّقني، كان ينظرُ لي ويقول: "أنتِ أوّلُ نصيبي، ومستحيلٌ أن أفرّط فيكِ".

حتّى أنوار.. أحبَّها زوجُها وحماها؛ فأينَ حبّي وحمايتي!؟

لم أجدْ مهربًا مِن نفسي وضعفِها والفراغِ الشاسع الذي أحياه إلّا الجلوس أمامَ التّلفاز ليسحبَ- ولو جزءًا ضئيلًا- مِن انْتباهي بعيدًا عن الذّكريات التي تفتّت بقاياي، أقلّب القنواتِ كما يتقلّب قلبي على جمْرِ الحنين والشّوق، كنتُ أقلّبها بجنونيّة لا أبحث عن شيء بعينِه.. عندما لمحتّه استوقَفَتني ملابسُه البيضاءُ ولحيتُه المهذّبة المختلطة بالسّواد والبياض كخيوطِ فجرٍ شقّ

ليلًا مظلمًا، حديثُه عن التّسليم المُطلق لله سكبَ على قلبي كوبًا من الطّمأنينة فأصابَ بعضًا منْ جَمراته المُشْتعلة فأطفأها، شيئًا فشيئًا باتتْ جَمراتي تنطفئ فهدأتْ حرارةُ قلبي، وخرجَ دخانُ الألم، وصفا داخلي قليلًا، كنتُ أصلّي وأهجر.. فداومتُ عليها في أوقاتها، لم أكنْ أفتحُ مصْحَفي.. فصار لي وِرْدٌ يوميّ، حتّى وإنْ قلّ، تتبّعت نوافلَ الصّيام وأحْبَبتها، كنتُ مبعثَرَةً فرتّب داخلي، ونفضَ عنّي غبارًا علِقَ بي، وضعني على أوّل طريقِ الوصول لحبّ الله ورسوله- صلّى الله عليه وسلم-، الذي لا يعادله حبّ، شعرتُ أنّ جلدي يتجدّد.. لكنْ مَن تلك التي ولِدت بداخلِه لا أعرف.. لكنّه سترني ودفّأني.

علمُه واسع، وخلقُه حميد، ووجهُه مريح، استعذبتُه واسْتعذبتُ نبرتَه الهادئة التي كانت تذكّرني بصوتِ محمّد، أحببتُ وقارَه وهيبته، تابعتُ؛ صفحتَه، فيديوهاتِه، أحاديثَه، برامجَه.. لم أتركْ بابًا يمكن أن يوجد خلفَه إلّا وطرقتُه، قطَّب حديثُه جراحي الغائرة، ومسحَها بأثره الطيّب فطابت؛ أو هكذا تخيّلت، جهلتُ يوْمَها أنّي لمْ أشْفَ بلْ مرضْت، وبدأتُ السّير في طريقِ إدمان التعلّق بشيء يضيعُ فيه فراغي، ويعلَقُ به قلبي، ويستحوذ على فكْري، بيت أبي كان صندوقًا تجمّد، انتقلتُ منْه لآخرَ أكثرَ تجمّدًا، ويبدو أنّ خطئي لم يكنْ إلّا أنّني فتحتُ بابَه فلمسني دفءٌ استعذبتُه، سرْتُ مُغمضةَ العينين في طريقٍ فتحَه علي؛ ضغط أبي.. ونرجسيّة أشرف.. وسلبيّة أمّي؛ فشكّلوا تلك المخلوقةَ المهيّأة للسّير فيه، متاهةٌ دخلتُها من بابٍ ولمْ أستطعْ بعدَها الوصول إليه مرّة أخرى لأنجو.

لنْ أنسى يومَ فتَحَ أشرف بابَ مملكته ليطلّ على جاريته، كنتُ- وأنوار- نشاهدُ أحد برامجِ شيخي، نهشَ الغيظُ ملامحَ وجهه الباردة عندما وجدني أحْسَن حالًا، فلم يحْظَ بلهفةِ أنفاس العصْفور الأخيرة، أعادتْ لي تعبيراتُ وجهِه المُستفزّة المَشاهدَ التي كانتْ قد اقْتربتْ على الاخْتفاء من ثنايا عقلي، أشارَ لأنوار بالرّحيل فتشبّثتُ بيدِها، ربتتْ على كفّي بحنان، ودخلتْ غرفةَ الأوْلاد، شعرَتْ بحسّها الطيّب أنّ هناك ما سيحدث..

- أرَى أنّه قد تحسّن حالك.

لم تعدْ حسناءُ هي مَن تتصرّف، ولِدتْ بداخلي أخْرى أربّيها بيدي، أُجبر ضعفَها وأمنحُها القوّة، كبرَتْ بداخلي قليلًا.. فلمْ تعدْ تُخيفني لهجتُه، ولا نظراتُه، خلعتُ رداءَ القهْر، ولبسْتُ آخرَ مُعطّرًا بالمكْر، علّمتني المحنةُ أنّ لكلّ منّا نقطةُ هجوم ونقطةُ ضعفِه الوحيدة، أصبحت هي ذاتها دون أن يدري نقطة قوّتي، لم أعدْ أريدُ الحريّة، ذهب محمّد.. ولن يملأ كياني غيرُه، الطّلاق لن يُمكّنني مِن العيْش مع أولادي بمفردي تحت ضغط نسائيّتي، وقد أعودُ إلى جُبّ أبي، "زوجة تحت إيقاف التنفيذ" باتَ أفضل أوْضاعي.

أشحْتُ بوجْهي ولمْ أردّ، أثقُ أنّه لن يستطيع البقاءَ طويلًا، لكنّه لن يرحلَ أيضًا بسلام.

- سأحدّث أباكِ، أريدُ العودة لبيتي وحياتي وزوجتي.

الصّمتُ لنْ يحلّ الأمر، احترفَ هو وأبي التّمثيلَ طيلةَ عشرَةِ أعوام، وعليّ الآنَ أنْ أخرِجَ عرْضي المسرحي، فافتعلْتُ العصبيّة والصراخ..

– أيّ بيتٍ، وأيّ حياة، وأيّ زوجة، البيتُ الفندق أم الحياة الباهتة أم الزوجة الضّائعة!! حوّلت داخلها خرابًا تجوبُ به الغربان، تلتقط ديدانَ حياةٍ عفنةٍ راكدة.

ثمّ بدأتُ في تكْرار الكلمات، وألقيتُ بنفسي أرضًا، أسرعتْ أنوار لتتّصل بأبي، فأمسَكَ اشرف مِن يدِها السّماعة بغيظٍ وعصبية:

– لا داعي، سأرحل. (نظرَ لي شذرًا وهو يتّجه ناحيةَ الباب، وأكمل).. لكنْ لا تطْمعي في الطّلاق.. اجْعليه أحدَ مستحيلاتك.

أحد مُسْتحيلاتي! تردّد صداها في الفراغ القابعِ داخلي، ليتَ لي أحلامًا تتحوّل إلى مُسْتحيلات! لقد أصبحتُ ريشةً هشّةً في أرض الرّياح، هائمة في فراغٍ لا نهائي، لنْ أحظى برفقة، ولنْ تحتضنني يومًا أرض، أرضُ محمّد كانتْ مَنْبتي، وحبُّه مائي، وقلبُه مهْدي، وسأظلّ غريبة في عالم غريبٍ إلى أنْ ألقاه، حتّى وإن كان في العالم الآخر.

نهضتُ بعدَ رحيله، وإتْقان دوْري لألفّ في دائرتي ليصيبني دُوَارها، دائرة إدْماني التي أصبحتْ كسجائرَ احترفتُ لفّها ونفْثَ دخانها لأتوه عن واقعي، كأسُ الخمر الذي أتجرّعه لأتناسى، أعْتى حائطٍ بناهُ أشرف بيننا لم يكنْ حائطَ نرجسيّته؛ بل حائط التخلّي الذي جعل منّي غانيةَ مشاعر لم تعدْ تريدُ إلّا التّواصل الذي يهبُها حياة، الونَسَ الذي يهدهدُ شبابها في مهْدِه لتغفو قريرةَ العين.

علا صدْري وهبطَ في تنهيدةِ شوقٍ لإعلانِ رحْلةِ عُمْرةٍ سيكون شيخي مشرِفَها الدّيني، تعلّق قلبي بها، أرى كعبةَ ربّي ومسجدَ رسوله- صلى الله عليه وسلم-، وأراهُ وأستمعُ إليه دونَ حواجز، فهل سيكونُ كما أبصرَهُ قلبي أمْ أنّ لكلٍّ منّا سردابَه السرّي الذي يحوي خباياه، ولن تحظى يومًا برؤية حقيقته إلّا بعد أنْ يسمح لك باجْتياز سلالِمِه المُعْتمة، فإمّا نورُ حقٍّ، وإمّا زيفُ باطل؟ لم تهدأ أفكاري تلك الليلة، يتأرجحُ قلبي بين نواياي الخفيّة، أتمنّى أنْ أنْصهر، أذهبُ وأعودُ ليس كما ذهبتُ لكنّي أعرفُ أنّى لم أذهب إلّا للقائه، فلماذا لمْ ألقِ بالألمِ خلْفي، وأعْدو بعمري قبل أن تسرقَه نفسي الأمّارة بالسوء في راحلتها؟

***

لماذا لمْ ألقِ بالألمِ خلْفي، وأعْدو بعمري قبل أنْ تسرقَه نفسي الأمّارة بالسّوء في راحلتها؟ لماذا أصرّ على تعرّج مساري؟ أم أنّه متعرّجٌ، وما خطواتي إلّا قدَرٌ كُتِب على جبهتي؟ تسلّل نورُ الفجر، وبدأ شروقُ الشّمس وأنا ما زلتُ على سجّادة الصلاة أناجي ربّي بالتّوبة والرّحمة، فمَن منّا لم تتأرجَحْ نفسُه بين الفضيلة والرّذيلة، المعصية والتوبة، الخطأ والصواب؟! لم أنتبهْ إلّا على يدِ أنوار تهزّني، وعيناها ملؤها الحبّ كأنّي طفلتُها التي لم تنجبْها، ألقيتُ برأسي على صدْرها وبكيت، ليتها أمّي فأُسِرّ لها بما وصل إليه حالي، فتنهرُني، وتُغْلظ ليَ القول، فأتردّدُ وأعود.

طار حسامُ أخي فرحًا بطلبي للسّفر إلى مكّة، تخيّل أنّي سأقيمُ عنده لكنّي أسرعتُ بالرّد:

- لا يا حسام، ستكونُ التّأشيرة منْكَ، والسّفرُ والإقامة مع شركة سياحة، أريدُها عمرةً بلا قيود، سئمتُ القيود.

حسام! ليتَه هنا بلا زوجةٍ ولا ولد؛ فألقي بهُمومي على كتفَيْه، وأغفو قريرةَ العين، واثقةً أنّه كان سيحملُها عنّي، حقًّا لن يعاندَ أبي، لكنّه لن يخذلني، أخذ اسمَ شركة السياحة وأرقامَها، وتوقيتَ الرّحلة، وطمأنني.

- سأرتّب كلّ شيء يا حبيبتي لا تقلقي، عِديني فقط أن تكوني بخير.

تنهّدتُ قبل أن أجيب، خيرًا! هل يمكن أن يأتي يومٌ أكون فيه بخير، دونَ ترقّب أشرف لأنفاسي الأخيرة، دونَ جرحِ قلبٍ أو شبح حزن، متى سأكون بخير؟

- أعدُكِ أنْ أحاول.

حملَ صوتُ حسام، بعد عدّة أيّام، مفاجأةً سارّة كنتُ قد يئستُ منها.

- سيأتيكِ مندوبُ شركة السياحة، وسيأخذُ منْك جوازَ السّفر.

- وموافقة أشرف؟ (قلتُها بعدمِ اطْمئنان، فمازال اسمُه يلقي بداخلي شبحَ الخوف).

- لا تحْملي همًّا، رتّبت معه كلّ شيء، ووافق.

- بتلك البساطة!

- لا، لم تكنْ ببساطة، لكنْ كلّ ما يهمّ الآن أنّه وافق، ارْمي ألَمَكِ خلفَ ظهْرِك، واجْعلي تلك العُمرة بدايةً أو نهايةً كما ترغبين.

- بداية أو نهاية!! كيف يا حسام؟!

- اجْعليها بدايةً لحياتك مع أشرف، ابحثي بداخلِه عن بذرةِ حبّ مُهْمَلَة لم يرْوِها أحدٌ، أو نقطةِ نورٍ حجبتْها سحبُ النّرجسيّة، أو فلتجعليها نهايةً لمأساتِك معه، لكنْ لا تتوقّفي عند تلك النّقطة التي قد تبتلعُكِ أو تدورُ بكِ في فراغٍ لا نهاية له.

يتكلّم وكأنّه يشعرُ بالخطرِ القادم نحْوي، بالوحْشِ الذي ينمو بداخلي وأنا أحاولُ كبتَه، بحسناء التي ذابتْ ولم تتركْ لي طعمًا حلوًا أو حاذقًا؛ بل تركتْ طعمًا مرًّا لم أسْتسيغُه بعْد، هل يمكنُ يومًا أن تعود؟ لكن كيف سيعودُ شتاتي بعد ذوباني في سائلٍ تجمّع طيلةَ ثلاثين عامًا ليذيبني!

أراني الآنَ بعيوني السّاهرة الباهتة المجْهَدة كشبحٍ يجلس في طائرة، غمرتني السّعادة فقط لمعنى الرّحيل، حتّى لو كان رحيلًا مؤقّتًا، استضافت أختُ أشرف أحمدَ وآلاء بعد رفْضِ أبي لاسْتضافتهما، ألقيتُ خلفي كلّ ما يُمكنُ أن يُلقَى منّي ورحَلْت، أولادي فقط هُما مَن حرصتُ على التّمسّك بهما داخلي، فلا ذنبَ لهما في ضعفٍ عصفَ بي فقذفني كالقشّة في كفّ أشرف القذرةِ فلوّثتني.

منَحتْني الأقْدارُ مقعدًا قريبًا منْه، فشعرتُ بمَدَى حبّ النّاس له، واحترامُهم لعلْمِه ودينِه، لحيته السّوداء وعباءتُه البيْضاء تزيدان مظْهرَه

وضاءةً ونورًا، ابتسمتُ عندما دقّ بابَ خيالي طارقٌ، إنْ كان الشّيخ محمود بهذا الوَضَاء؛ فكيفَ بالرّسول ﷺ! تنهّدت تنهيدةً لم تخْلُ من حرارةِ جرحي الغائر، وأنا أنظرُ من شبّاك الطّائرة الصّغير على عالمٍ واسع يصغُرُ.. ويصغُرُ، فيستدقّ كلّما ارْتَفعنا، الارْتفاعُ يُقزّم الضّخم إلى أنْ يختفي، لكنْ ما هو طريقي للارْتفاع لتتقزّم همومي؟ هفوتُ إليه فوجَدْتني أحدّث نفسي..

– لو أنّ "محمّد" كان الآنَ بجانبي لشعرتُ أنّي ملكتُ هذا العالم بأسْرِه.

كلّ يوم يمرّ يحطّم بيني وبيْن الشّيخ محمود حاجزًا، حتّى انقضّ الكثيرُ منْها، روحُه رقيقةٌ كإجاباتِه على أسئلتي التي تشفي الصّدر، وتُزيل الهَمّ، نفسُه سمْحَةٌ وعذبةٌ تأسرُ القلوب، حتّى عندما دقّق النّظر فيّ كانت ملامحُه مُسْتكينةً كأبٍ يحملُ العقلَ والحنان تحتَ عباءتِه الواسعة التي تضمّ الجميع..

– أسئلتُكِ تحوي عذابًا دفينًا بداخلك، تدورينَ حوْله، ولا تقْوى على اختراقه.

ابتسمتُ ابتسامةً خافتة، وأنا أهزّ رأسي بالموافقة..

– عذابي نارٌ لا أسْتطيع الفرارَ منْها، فبداخلها وردتيْن لا أريدُ لهما الاحْتراق.

– أولادُكِ؟

– نعَم، ليس لي سِواهما، ولا أعرفُ ماذا أفعل؟

بكيتُ كما لم أبْكِ مِن قبْل، بكيتُ ليس حرقةً وألمًا، لكنْ خوفًا وتعاسة.

- كيف؟! بالفعْل أنتِ تعْرفين، والدّليلُ أنّك هنا في بيتِ الله الحرام، في القربِ من الله راحة تُطفئ كلّ نارٍ نفخت فيها رياح التّمزّق، وتُشعل كلّ نورٍ طمسَتْه يدُ الظلم.

يتكلّم كأنّه يعرفُ شكوتي، بالرّغم من أنّي لمْ أبُحْ..

- لنْ أكذبَ وأظْهِر غيرَ الموجود، أريد أنْ أقاومَ النّار، وأظفَرَ بالنّور، لكنّي ضعيفةٌ كلّما حاولت أفشلُ، وأسقطُ في حفرة الاسْتسلام.

خلْتُه مِن فرْط حنانه سيُخْرجُ من جيبه سكّينًا دقيقًا يشقّ به صدْري، ويُخْرج قلبي فيمسِكُه بيديه البَيْضاء، ويلفّه بنورِ كلماتِه، ثمّ يعيدُه حيث كان لكنْ ليس كما كان.

- ما الحياةُ إلّا شوكٌ تخْطو أقْدامُنا عليه، فإمّا أن تغوصَ فتدْمَى، ويدْمَى كلّنا معها، أو نرتفعُ فوقَه قليلًا، فلا نسمحُ له أن يغوصَ في أعماقنا، أو نرتفعَ أكثرَ فأكثرَ لنسيرَ على أوْراقِ ورودِه في طريقٍ من حرير.

- هل هناكَ مَن يسيرُ على طريقٍ حريريّ بلا أشواك، لا يعاني ولا يكابد؟

ابْتسمَ، وضاقتْ عينُه من فرْطِ ابتسامه:

- الحياةُ فتنةٌ كبيرة، لكلٍّ فتنتُه الخاصّة، قال تعالى ﴿أحسِبَ النّاس أن يُتْرَكوا أنْ يقولوا آمنّا وهُم لا يُفْتنون..﴾، لا بدّ من الفتنة حتّى يميزَ الله الخبيثَ منَ الطيّب، الفتنةُ هي الامْتحان.

- حتّى أنت؟

قلتُها بخجلٍ، ولم أتوقّع ردًّا..

- حتّى أنا.

قالها باستسلام لواقع أجهلُه، لكنّه ظهَرَ جليًّا عندما خطف لمعةَ عينيه، هناك ما يؤرّقه هو أيضًا.

هناكَ ما يؤرّقه هو أيضًا، تُرى ما الذي يُمكن أنْ ينغّص حياةَ رجلٍ مثله متمسّكٍ بحبْل الله ولا يُفلتْه، ما هي آلامُه التي ظهرتْ في عينيْه كشهابٍ مرَقَ سريعًا، وهل سأحْظَى يومًا بمشاركتِه إيّاها؟

مرّت أيّامي في مكّة كبرهةٍ مِن الزّمن سكنتْ فيها روحي، عُدت إلى أغلالي ووحْدتي يملؤني طيفُ شيخي لأفكّر فيمَن يجبُ أن أختار لأكون؟ مَن التي تليقُ لتلتقي به في العالم الافْتراضيّ الذي سأدخلُه بحصانٍ رماديّ لا هو بالحقيقة النّاصعة ولا بالكَذِب الأسود؟ مَن التي يمكنُ أن تمتطي ذلك الحِصان ببراعة، وتجمَحُ به؟ تحملني إلى عالم الخيال ليختطفني لأصبح أيّ هي إلّا أنا لأنْساني، أعيشُ ألَمها.. أتذوّقه، وأَستعْذِبه؛ فيسكنُ ألمي وعذابي، أغوصُ في أعْماقها لأخرسَ صرخاتِ أعماقي، أنْصهِرُ فيها لأصنَعَ قالبًا جديدًا في عالمٍ لا يهمّه مَن أكون، الجميعُ أسماءُ وصورُ وشعاراتٌ رنّانة مثاليّة، لا تمثّل الواقعَ في شيء.

أصبحتُ خبيرةً في إصْدار حسابات التّواصل، وتأكيد جديّتها بصديقات العالم الافْتراضي، وسأختارُ جنّيّتي الجديدة من بين عشرات الحكايا التي يحتفظُ بها عقلي، على أن تتوافقَ معه، تخطفَه ولوْ لفترةٍ تسمحُ لي أنْ أكونَها، بعد تفكيرٍ عَميق قرّرتُ أنْ أكونَها، ولنْ تكون غيرها التي سأخرجُها من داخلي، وأَجسّدُها حقيقةً تجتاحني "مريَم عيسى" ولأتقلّص منّي غيّرت لونَ شعْري البنّي إلى السوادِ، وأطلقتُ له العنان، حتّى عيني لوّنْتها للأسود

بعدساتٍ لاصقة، أصبحتُ أخْرى.. وأصبحتْ صفحتي الجديدةُ مهيَّأةً للتّواصل معه في شهرٍ واحد، وسأقتحِمُ مباشرةً بالمراسلة؛ فهوَ شيخٌ، ومِن الطّبيعي أنّ كثيرات يرسلْنَ له تساؤلاتهنّ، سأكونها وأستمتعُ بالحديثِ معه مِن وراء ستارٍ ثقيلٍ لنْ أزيحَه مهْما حدث، أزحْتُه يومًا لمحمّد لأنّه كان الحبّ الذي سكنَ قلبي، والبصمةَ التي لن يمْحوها وقت، الاخْتباءُ هو السّبيل الوحيدُ للّقاء، والبُلوكّ هو طريقُ الفِرار.

رسالتي الأولَى بالسّلام كانتْ بعْدَ صلاةِ الفجْر مباشرة، ذلك التّوقيت الهادئ الذي يمكنُه فيه الردّ كما ذكَرَ لي، صورتي بشكلي الجديد لا تقتربُ منّي، خصوصًا أنّني كنتُ قدِ ارْتديت غطاءَ رأسٍ في رحْلة العُمْرة، اسم "مريم عيسى" سيُثيرُ فضوله، أعلمُ أنّه سيفعل، أظنّ أنّ مخترع وسائل التّواصل الاجتماعي كان يحبّ ألعابَ الاخْتباء، فمتْعةُ التّواصل مع شخصٍ حقيقي، وأنتَ مجرّد شبح من عالمِ الأوْهام، متعةٌ لا يُضاهيها متعة، في عالَمٍ عُملَتُه الكلماتُ يُمكن لكلمةٍ أن تنقصَ قدْرَك وكلمةٍ تزيدُه، كلمة تروي قلبًا، وأخرى تحطّمه، صورةٌ كاذبة تملِكُ شِغافَك فتهيمُ بكَ في عالمِ الحبّ الكَذوب، قال رسولُ الله- صلّى الله عليه وسلم- عنِ الشّيطان في جزءٍ من حديثٍ استمعْتُ له على لسان شيخي "صدَقَكُم وهُوَ كَذوب"، فهَلْ خرجَ هذا العالمُ الافْتراضيّ عن هذا الوصفِ في شيء، فهل هوَ الشّيطان أمْ أنّ الشّيطان هو؟

انتظرتُ قليلًا وكادتْ عيني تغْفو مع أفكاري عندما سمعت صوتُ رسالته بردّ السّلام، تخيّلتُه وهو جالسٌ ليُحادثني، أنا أعرفُه وهو يجْهَلني.

- سامحني لوْ كنتُ قدْ أرسلتُ رسالتي باكرًا.

تلكَ الكَلماتُ التي بدأتُ بها لأستقبِلَ الرّدّ المتوقّع..

- على العكس، أصبتِ الوقتَ الصّحيح الذي أرُدّ فيه على التّساؤلات، لكنْ اسْمحي لي.. هل اسمُك "مريم عيسى؟"

استحوَذْت على اهتمامِه باسْمها كما أردت..

- نعمْ "مريم عيسى أحمد". (أعلمُ فيمَا كان يفكّر، فقطعتُ حبْلَ ظنّه).

- تفضّلي بسؤالك.

سؤالي! هو ليس سؤالًا؛ بلْ هي شبكةٌ من الأكاذيب ستلتفّ حوْلَه لتصطاد منْه بعضَ الوقت والتّواصل والوَنَس، وقد تتوغّل لتصْطاد ما هو أكثر.

- ليس لي سؤالٌ محدّد، أمرّ بأزمةٍ شَديدة يُمكن أن تجرّني إلى الجحيم، وأحتاجُ إلى يدٍ قوية تنْتَشلني، لكنّي وحيدةٌ بلا سند.

لم أكمِلْ، فداخلي بدا يضجّ بمريم، خرجت مِن ذكْرياتي كالجنّيّة، فسحبتني إلى بحيْرَتِها، وتلبّستني فانْهمرتْ دموعي تجري من فرْطِ إحساسي بالوحدة.

- معكِ.

- عذرًا، الكلماتُ تخنقني.

- لا عليكِ.. أكملي.

- أزمتي أقْوى من أنْ ألجأ بها لأيّ أحد، فهلْ لي أنْ ألجأ إليك؟

تعمّدتُ أنْ أستخدمَ كلمةَ اللّجوء لأنّي أعرفُ بماذا سيجيب.

- كلّنا نلجأ إلى الله.

لم تسحبْني مريم لبحيرتِها وحْدي، بدأتُ في سحْبِه هو أيضًا:

- تلكَ هي المشكلة، لكنّي لا أستطيع التفوّهَ بها.

- كُونِي على ثقةٍ مِن أنّ ما سيدورُ بيننا سيكونُ موْضعَ سرّ.

- مررْتُ بالكثيرِ في حياتي القصيرة جَعَلتْ قلبي يمْرَض، ليستْ علّة مرَضيّة لكنّها علّةٌ من نوعٍ آخر.

كأنّي أرى لوْنَ وجْهِه يتغيّر بعد تلك الرّسالة، الشّيوخُ عادةً يتوقّعون كلّ المَشاكل إلّا تلك، لا أعرفُ هل يخشوْنَها لخوْفِهم مِن الفشل، أم أنّ إيمانهم أكبرُ مِن أنْ يتصوّروا أن يفقدَ مسلمٌ إيمانه؟

تلقّيتُ رسالتَه التي أكّدت توقّعي:

- ما معْنى علّة من نوع آخر تحديدًا، كوني أكثر حريّة في التّعبير، أنا لن أخطفَ روحَك؛ بلْ أتمنّى أَنْ أعالجها إنْ كان بها ما يشوب.

تنهّدتُ وأنا أتذكّر مريم بوجْهِها الجميل وشَعْرِها الأسود المُنْسدل في رقّةٍ كرقّةِ بشْرتِها الخمريّة لأذوبَ فيها أكثر، صَديقتي في الفصل الابتدائي، لم أعرفْ بالتّحديد متى تبدّل حالُها من المَرَحِ إلى الحزن، من الابْتسام إلى البُكاء الصّامت الذي يُذيب قلبَها ببطء شديد، عيناها السوداويّان كانتا كجَمْرتيْن مشتعلتيْن ذكاءً وتوهّجًا للْحياة فخفَتَتا في سكونٍ ثمّ بدأتا في الانْطفاءِ رويدًا

رويدًا بغيْرِ دخان، تراه تجمّع في صدْرها فملأ رئتيْها لتستنشقَه عمرًا كاملًا! كنّا صغارًا فلمْ يهتمّ أحدٌ بما حدث، الصّغار لا يهتمّوا إلّا بالفتيات الجَريئات المَرِحات الثّريّات، ولمّا تبدّل حالها ذهبوا مع كلّ ما ذهب منها إلّا أنا، كنتُ دومًا بجانبها حتّى عندما أغْرقنا الصمت فلم أسمعْ صوتَها على مدار العام الدّراسيّ الأخير من المرحلة، كان حديثنا بالعيونِ والدّموع ونظرات الشّفقة والأسف، أشعرُ بالجوع يصرخُ في ملامحِها، ويمزّق أحشاءها، لكنّها ما رضيتْ أبدًا أن تقبَلَ منّي، ولو قطعة خبزٍ واحدة، آخر مرّة وقعتْ عليها عيني كانت بصحبةِ رجلٍ متوسّط العمر سحبَ أوراقَها من المدْرَسة، وعرفتُ منها أنّها ستذهبُ إلى مدرسة حكوميّة وسنفترق، تعلّقت روحي بها، فبكيتُها في بادئ الأمر كثيرًا وحلمتُ بها أكثر، أراها في حلْمي قبل حزنِها تارةً وبعدَه تارات، مرّة ضاحكةً ومرّات باكية، لا أعلمُ لماذا تمسّك خيالي بصورتها؟ هل أراد أن يمتَلِئ بشيء لعظَم مساحة الفراغِ الذي كانت تتلاعبُ به؟ أمْ أرادَ عقلي تنبيهي أنّ غلظةَ أبي ولامبالاةَ أمّي أمرٌ هيّن؟ لكنّها- وبمُرور الوقت- سقطتْ منّي معَ كلّ ما سقطَ مِن ذكْرياتي، حتّى صادفتْها في سوقِ صقر قريش القريبِ من المعادى، كنتُ وقتَها أحاولُ هزيمةَ الوحْدة والصّداع بالاهْتمام بصُنْع الحلويّات، فجمعتْنا الأقدارُ أمامَ محلٍّ يبيعُ كلّ ما يخصّ ذلك بأسْعارٍ مناسبة، لم أصدّق عيني عندما تقابلتْ مع عينيْها التي من المُسْتحيل أنْ أنساها، ومِن تلك التي يُمكن أن تنسى عينًا لفَظَ بريقُها أنفاسَه الأخيرة في حضْرتِها! وجدتْه كما ودّعَته بلا حراك، احْتضنتْني كمَن يَحْتضنُ أيّامَ عمْره الفائتة كلّها، التقَتْ في وجهي أيّامها الجميلة والتعيسة في برزخٍ

عمْرها الهائج، هكذا قالتْ لي وهي تُحاولُ أن تبتَسِم، جلسنا يومَها جلسةً طويلةً بطول أحْزانِنا، ما أسرّتْ به جعلني لا أصدّق أنّ التّعاسة يمكن أنْ تتواصلَ لتصنَعَ حبلًا لا نهاية له، إلّا بعدَ أنْ جدلته لي سنواتي بإحْكام، كانت تتكلّم كأنّها تنهي كلّ الكلمات التي تمنّت أنْ تقولها طيلةَ عمْرها، ولنْ تتفوّه بعدَها بحرف، وبالفِعْل صدقَ حدْسي، تنبّهت من شرودي، يجبُ أن أردّ على رسالته، فتجرّأتُ بالكلمة التي ستأسره..

- أخشى أنّه قد أصابَه الإلحاد.

لم تُظهرْ رسالتي علامةَ الوصول، ظلّتِ الدّائرة الفارغة تُعلن عن انْقطاع النتّ عنْ هاتفِه، فهلِ انْقطعَ على غيْر رغبته، أم أنّ وقتَ التساؤلات قد انتهى وأنا في شرودي؟ ثمّ لم أتلَقّ ردًّا طيلةَ النهار.

لم أتلقّ ردًّا طيلةَ النّهار، ظلّتِ الدّائرة فارغةً كفراغ أيّامي، لم يملأها اللّون الأزْرق، هاتفي لم يعدْ يترُك يدي، أصبحت مصباحَه الذي يسكنُه، وينتظرُ مسحةً واحدة عليها لينطلق، أفْتحه كلّ دقيقة لأتأكّد من وصول الرسالة، زادَ نبضُ قلبي عندما تلوّنْت، أشعرُ بجرْمي المُقْدمَة عليه، أفكّر في العودة إلّا أنّ قوّةً أكبرَ منّي تقيّدني وتجرّني كأنّ بداخل هذا الهاتف نخّاسًا يعرفُ مَن يصطادُ مِن الجواري والعبيد، يعرفُ كيف يزيّنهم للسّوق، ويجرّدهم مِن كلّ ما حاولوا التّمسّك به، وهو يجرّهُم خلفَه مسلْسَلين بلا أدْنى مقاومة.

توقّعت ردًّا بعدَ صلاةِ الفجر، لكنْ سرْعان ما جاءني محمّلًا بلهفةٍ وانْزعاج.

- هل الظّروفُ فقط هي مَن أوصلتك لتلك الحال؟

أهَذا الحدّ أزعجتْهُ كلمةُ الإلحاد!

- وهل هناك فرق؟

- قطعًا هناك فرْق، القلوبُ أرضٌ هُيّئت للإيمانِ بالله، والإلحادُ بذرةٌ إمّا أنْ تكونَ أصيلة في ثَنايا القلب متغلْغلة مُتشعّبة الجُذور فتنْمو كشجرةٍ عملاقة يصعبُ زحْزَحتها، أو أنّها بذرةٌ شيطانيّة هشّة جاءت مع رياحِ الضغوط والهُموم، هائمة على سطْحِ القلْب، فما تلبثُ بجهدٍ قليلٍ أن تُقتلَع.

- بذرتي شيطانيّة، لكنّها قديمة بقِدَم أحْزاني، لا أعرفُ مدى توغّلها، كلّ ما أعرفُه أنّها أخرجتْ أوراقَها مِن سطح قلبي معْلِنةً عمّا يمتدّ من جذورها بداخله.

يا لَتِلك الفتاة التي عانتْ كلّ ألوانِ المُعاناة، قابلتها في طفولتِنا يتيمةَ الأمّ تحبّ أباها وأختَها الأكبرَ منها بعاميْن حبًّا لا يعادله حب، يتمتّعون بحياةٍ صنعَها أبوها بدقّة ونظام، بدأتْ معاناتُهما عندما الْتهَمَه السّرطان منهما في عام واحد، فاضطرّ عمُّها الوحيدُ لضمّهما إلى بيتٍ لم تألفْه مع أوّلِ قدمٍ وضعتْهاً فيه، ضاقَ عليهما البيتُ الواسِعُ بحجْم ضيقِ قلبِ زوجة عمّهما، لم تتقبّلهما يومًا بيْن أولادها، كانت تصفُها لي فيضيقُ صدْري، فكيف بها؟ افْتعلت معهما المشاجراتِ في باديء الأمر، لكنْ سرْعان ما أرْشدتْها وسوساتُ صديقاتِها إلى أنّها تمتلك كنزًا فحوّلتْهُما لخادمتيْن، معَ القليل من كلّ شيء؛ الطعام، الثّياب، التّعليم، الوقت للمذاكرة، الاحترام.. ارْتفعتْ عليّ أجسادُهم الضّئيلة وأعمارُهم القصيرة كجبلٍ ثقيلٍ ناءوا بحمْلِه، انْحصرتْ مريمُ في شهورٍ قليلة كما ينحصرُ البحرُ عن شاطئيه، وعادَ إلى الوَراء خاطفًا أختَها التي لم تتحمّل فأنْهتْ أمرَها بيديْها، لم أتحمّل ما وصفتْه لي يومَ أنْ أفاقتْ مِن نوْمِها على وجْهِ أختِها الشّاحب الأزْرق وملاءتها الحمْراء بلونِ دمائها المتدفّقة مِن يدِها، اضطرّت دماءُ أختها النّازفة زوجةَ عمّها من رفْعِ المُعاناة عنْ مريم خوفًا مِن المَشاكل القانونية إنْ ألقتْ هي أيضًا بنفسِها لذاتِ المصير، لم يعلمْ أحدٌ أنّ مريم نزفت دماءَها وهي حيّة، فتحوّلتْ إلى جسدٍ متحرّك بلا روح، واعتبرتْ موتَ أختِها تضحيةً لتهبَها بموتِها الحياة، كانت تلك آخرَ كلماتِها قبل أن نفترق ليحوّلوا أوراقَها إلى مدرسة إعدادي حكوميّة.

جاءتني رسالتُه هادئة بهدوءِ نفسِه، وأشقى بضميري الذي يؤنّبني عليها..

- هل يُمكن للأحْزان مهْما كانت أنْ تسحبَ النورَ تاركةً للقلب الظلام؟

- لا يعرفُ تأثيرَ الأحزان المُتلاحقة على القلب إلّا مَن ذاقها، التذوّق هو السّبيلُ الوحيد للحُكْم على الأشياء.

- هل يُمكن أن أعرفَ حجمَ المعاناة التي تلاعبت بإيمانك؟

هل يُمكن لكلماتٍ أن تصفَ حجمَ ما ذاقتْه مريم! لا أعتقد، فحتّى بعد أن أفلتتْ من قبضةِ زوْجة عمّها لم تتركْ صورةَ أختِها النّازفة مقلتيْها، فتلوّنَت بلوْنِ دمائها من كثْرَة التّفكير بها حتّى قابلته، كان شابًّا رائعًا؛ خَلقًا وخُلقًا، أحبّها وأحبّته، وأهداها من هدوءِ النّفس في صحبتِه طيلةَ أربع سنوات الجامعة ما ضنّت به الحياة، عوّضها عن كلّ عزيز رحلَ، فضمّتْهم روحُه جميعًا، فقرّرت أنْ تجعلَ لحظة زواجهما بدايةً جديدةً لشروق شمس غربت بحمْرةِ الدّماء، لكنّها لم تكنْ تعلمُ أنَّ فترة الهدنة ستنتهي، وأنّ الحياة ستنقُضُ عهدَها وتُعيدُ كرَّةَ الحرْب عليها.. توقّفت عن التّفكير فيها لأرْدّ.

- وهل للمعاناةِ حجْم؟ المعاناة كالبالون يزْدادُ حجمُها بحجْم الألم المضْغوط، إلى أنْ يصلَ لدرجتِه القصْوى فتتمزّق، ويصبحُ حجْمُها هشًّا بعِظَم حجْم الألم.

لم أكنْ أنا مَن تتكلّم، كنتُ هي، هكذا كانت تقولُ دومًا.

- صدَقْتِ، لكنّي أريدُ أنْ أسمع منْكِ ما حدثَ فجعلَ الشّيطان يبذرُ بذْرته في قلبِك، هل يمكنُ أن نتواصلَ صوتًا؟

ما حدثَ كان غريبًا أن تقذفَ به الأيّام في قلب إنسانٍ واحدٍ ليَخرّ، فقد عاشتْ مريم الحلمَ الجميلَ في عام زواجها الأوّل، حتّى بدأت أمُّ زوجها في قذْفِ القولِ الثّقيل في وجْهِها، تأَخّر الإنْجاب فتراجعَ معه ودُّ أهْله الذين يجْمَعهم بيتٌ تسكنُ هي إحْدى شقَقِه، أجادَ زوجُها قراءةَ صمْتها وحديثَ عيْنيها وارْتعادَ قلْبها فطمْأنها سنين حتّى بدأ هو نفسُه في القَلَق، حطّم الحرمانُ الهدوءَ، وشَرخَ الحبَّ، وزَعْزع الوفاء، الحرمانُ.. ذلك الشّرسُ اللّعين هو بطلُ قصّتها، الحرمانُ من الأمّ والأبِ والأخت، من الحنان والشّفقة، وأخيرًا من الوَلَد.. ثمّ الزوج، كسرتْ عودَها الواهنَ نطفةٌ تتكوّن كلّ ثانيةٍ في أرحام نساءٍ لا يردْنَها، حلالًا كانت أمْ حرامًا؛ فيجهضْنَها، ضنّتْ عليها السّماء بها فأعادتْها إلى شقاءِ السّنوات الأولى فتجمّع العذاب في بحيْرةٍ غرقتْ فيها إلى آذانها عندما تزوّجَ بأخرى، وجاءَ بها بالشّقة التي تعْلوها، صعدَ بالجديدة جسدًا وترَكَ روحَه وقلبَه عندها، لكنهما سَرْعان ما صعدا وراءه عند أوّلِ صرخاتِ ابنِه الأوّل، كان يأتي ويرحل ثمّ ما لبث أنْ رحلَ فقط تاركًا البيتَ عليها خواءً مع صرخاتِ ابنه الثّاني، سمعتْ بأذنيْها توعَّدَ زوجتِه بطلبِ الطّلاق إنِ اقْترب منها، جاء عند بابها ولم يستطعْ جسدُه الدخولَ لتقولَ لها عيناه ما لم يبُحْ به لسانُه..

"لن أكونَ رجُلَك بعد الآن، حتّى لو بقيتِ زوجتي"

قالتْ لي "أعرفُ أنّها ستُجبره يومًا على طلاقي، أعرف أنّني سأعود حيث لا أريد، وحيث لا يُريدني أحد، أتأرجحُ بين حفرتيْن كلاهُما نارٌ، فأيّ النّيران أحقّ أنْ ألقي بنفسي إليْها يا حسناء؟ وهل أخطأتُ عندما لمْ ألْحَق بأختي ذاك اليوم؟

وأيّ إيمانٍ يُمكن أن يدبّ في قلبي وأنا أتخبّط في ظلام دامسٍ تُحيط بي خفافيشُ القهْر والعذاب من كلّ جانب؟ أيّ صلاةٍ تلك التي ستُنَجّيني مِن وحْدتي؟ وأيّ قرآنٍ الذي سيملأ فراغَ أيّامي؟ وأيّ صيام الذي سيهذّب جسدي المجلودَ بكَرابيجِ الحرمان والخُذلان والقسوة؟!!"

لُجِمتُ أمامَ يأسِها ولم أسْتطعِ الإجابة، ابتلعتُ ريقي مع صمتي، أكْملتُ مشْروبي دفعةً واحدة لأبتلعَ كلماتٍ صَعُب عليّ نطقُها، لو نطقتُ سأزيدها يأسًا على يأس، تصافحْنا ومضيتُ تاركةً خلفي شبحَ طفلةٍ سكنتني ولم ينطلقْ من داخلي إلّا الآن؛ فهل أطلقتُه لأحظى بإجاباتٍ لتساؤلاتِها؟ أم لأنّني كنتُ على ثقةٍ أنّ قصّتها ستجذبُه وتربطُه بي بحبلٍ متين؟

كنتُ على ثقةٍ مِن أنها سترِبطُه بي بحبْلٍ متين، ولأحْظى بإجابات تساؤلاتها التي شقَّت نهرَ ألمٍ في قلبي، وخصوصًا بعد معْرفتي بأنوار، القصّتان مُتَشابهتان لكنّ النّتيجة ليستْ واحدة.. ما الفارقُ بينهما! قد يتنوّع الحرمانُ على أنفسنا، لكنّه في النهاية يبقى حرمانًا.

اسْتجبتُ لطلبه، وتحدّثنا يومَها حديثًا لم ينْهِ قصّتَها، أكادُ أسمعُ دقّاتِ قلبه تعْلو، والأسفُ والشّفقة تملآه وهو ينصتُ بهدوء، أجهلُ سببَ تفاعلِه معي بهذا الكيْف؟ هل هو الخوفُ مِن فقْد الإيمان؟ أمْ خوف من شدّة اليأس التي تحملُه رائحة كلماتي؟ أم أنّه يحمل في قلبه مِن المعاناة مثلَ ما أحملُ فتشابهتْ أحمالُنا؟

تكرّرت المحادثاتُ القصيرةُ لانْشغالِه حتّى صارت شبْهَ يوميّة، كأنّه اسْتعذبَ ألمي، وصار مخدّرًا يأتيني في وقتٍ محدّد فأحْقِنه به، شهرٌ كاملٌ ملأتْ مريم قلبَه ووجدانَه كما امتلأت حياتي به وبها، استعذبتُ وجودَه الذي طغى على آلامي، وألقى على نارِ قلبي قليلًا من الرّمال، فكانت تهدأ أوقاتَ وجودِه ثمّ ما تلبثُ أن تشتعل، أحكي ومريم تتحرّك حولي تذكّرني بما نَسيت، تنظرُ لي في صمتٍ وتهزّ رأسَها بموافقةٍ أو معارضة، تشبّعت بها وأنا أجهَلُ أنّها تقتلُ كلّ يوم جزءًا مِن حسناء، أقفُ أمام مرآتي.. فتارةً أراني، وتارات أراها شاردةً أو باكيةً.. لكنّها أبدًا ما ابتسمت.

أجادَ الاستماعَ لشكواي دونَ كلمةِ عتابٍ أو لومٍ أو موعظة، ممّا أثار عجبي وفضولي، حتّى سألني:

- أنْتَهيتِ هنا يا مريم، أمْ أنّ هناك ما هو مدفونٌ بداخلك ولم يخْرجْ بعْد؟

كنتُ بالفعل قد انْتهيت، أخرجتُ ما في صدري عنْها، ولم يعرِفْه غيري..

- لا يوجدُ مدفون، أسررتُ لك بما لم يعرِفْه عنّي مخلوق.

- هل ارْتاحتْ نفسُك ولو قليلًا؟

- ارْتاحت، لكنّي أتعجّب!

- وما سرّ العجب؟

- لم تقاطعني أو تلُمني أو تعظني، وخصوصًا عندما ذكرتُ لك انْقطاعي عن الصّلاة وقراءة القرآن والصّوم!!

وبضحْكةٍ خفيفةٍ اسْتشعرتُها تأتي من داخله قال:

- أردتُ أن تغسلَك همومُك، النارُ التي اتّقدت وأنتِ تحْكين ستُطهّر الشّوائب التي علَقَت بقلبك بإذنِ الله، كما أردتُ أن تتحرّك أمواجُك الرّاكدةُ طويلًا بداخلِ قلبك حتّى أصابَه عفنٌ شيْطاني مِن كثْرة الرّكود.

أمْواجي الرّاكدة التي أصابت قلبي بالعَفَن! هذا بالفعلِ حالي في كلمات، ركدتْ حركةُ قلبي حتّى تعفّن، وما أفعلُه الآنَ ما هو إلّا رائحتُه الكريهة التي

تملأ حياتي وحياةَ غيري، فكّرتُ لحظتَها في التّراجع.. لكنْ كانت قوّةٌ أعظم من ضميري تجْذبني لأسْفلَ دونَ مقاومةٍ منّي.

– لكَ الحقّ، أشعرُ بأنّ العفنَ دبّ في قلبي، وكلامي معكَ حرّك قليلًا من دمائي الراكدة...

مَن التي تكلّمت حسناء أمْ مريم؟ كلاهُما وجْهان لعُملةٍ واحدة، مريمُ ألقتْ بنفسها للموتِ، وأنا ألقي بنفْسي للضّياع.

– لكنْ هل تطمئنّين لَمن تُسرّين له بآلامِك وأسْرارك؛ أنّه لنْ يكشفَها أو يستغلّها يومًا؟

عاجَلتني كلماتُه بوخْزةٍ أخْجلتني منّي، فها أنا أستغلّ مأساتِها، والتي ما كان يجبُ أن تخرجَ مِن داخلي في مغامرةِ لْهوٍ لنْ تشفي جرحي، ولن تعدو كوْنَها دورَ أرجوحةٍ سيلُفّ رأسي، ويُصيبُني بالدُّوار والخَدَر، ثمّ ما ألبثُ أنْ أفيق، اكْتشفتُ أنّ حسناء ما زالت بداخلي، وأنّها تختنقُ بما أفعل، ليتني أخرجتُها ولم ألقِ بها لذلك الوحْشِ الذي ابْتلعها.. فقلتُ في خَجل:

– ولِمَ لا؟! أنا أحْكي لك وأنا مطمئنّة.

– كاملَ الاطمئنان؟

لم أجدْ ما أقول؛ فأكْمَل:

– أرأيتِ، لا أمانَ ولا اطْمئنانَ إلّا معَ خالق، مع الله، في أيّ وقتٍ تشائينَ تتوضّئين ثمّ تُصَلّين وتتكلّمين معه بآياتِ القرآن، تسجدينَ وتنتَحِبين

وتشْكين وتدْعين... دونَ خشيةِ ملل أو فضْح أسرار، تُلْقين بسريرتِك بين يديه، وأنتِ على كامِلِ الثّقة من أنّه لَنْ يفضحَكِ أو يخذلك، بل سيمنَحُك سترًا لنْ يمنحه إيّاكِ غطاءُ العالم، سيرحَمُ دمْعَك الذي سالَ في سجْدة، وقلبّك الذي تفطّر في دعوة...

- والشّعورُ الطّاغي بالحرْمان.. مِن أين يأتي؟

- الحرمانُ شعورٌ يأتي مِن دَواخلنا، تلقي شفاهُنا به كبذرةٍ نلفظُها لا نبالي بها فيحْتضِنُها الشّيطان في أرضِه، ويرْويها بوسْوساتِه حتّى تصيرَ شجرة عِملاقةً لا نستطيع أن نزيحَ عيونَنا وقلوبَنا عنها، شجرة تسدُّ طريقَنا فتُعمِي أعينَنا عنِ النّعم فلا نتذكّر إلّا النّاقصَ؛ في حينِ أنّنا لو احْتفظْنا به سرًّا بيننا وبينَ خالقِنا لصارَ نبتةً هشّةً تذْرُوها رياحُ الرّضا والإيمان بالله، نحنُ يا مريمُ مَن نضخّمُ إحْساسَ الحِرمان الذي نُريدُه حتّى يصبحَ وحشًا لا يلْتَهمُ سوانا.

استأذنَني هنا لنُنْهي حديثنا قبل أنْ أسأله ما معْنَى نضخّمُ الإحْساسَ بالحرمان الذي نُريده.. أصبحتِ الفترةُ القصيرةُ التي نتكلّم فيها جلاءً لصَدَأ روحي، يمسّها شعاعٌ لا أعرف.. هلْ هو نورٌ أمْ أمل؟ كنتُ في أوّل الطّريق ولم يهْدني قلبي أنّه إنذارٌ بالعودةِ لم أستجبْ له.

كان إنذارًا بالعودةِ لم أستجبْ له مِن طريقٍ يضيقُ كلّما تقدّمت، الإشاراتُ تتراجعُ يومًا بعد يوم، السّحبُ والضّباب يلبّدان سماءَ طريقي، ويحْجزان نورَ الحقّ عن عيني المُغْمضة غير عابئةٍ بالسّقوط، لم يهتمّ بشرودي والسّوادِ الذي أحاط عيني مِن طولِ السّهر، ونوْمي المتقطّع الذي قطَّع أنفاسَ صدْري معه إلّا أنوار.. كوبُ الحليبِ كان أوّلَ ما تعدّه عندما تدخل البيْت، تقدّمه لي- دونَ أن أطلبَ بعد نزول أحمد وآلاء إلى مدرستِهما- بطيبةٍ لمْ أرَها في عيون أحدٍ ممّن حوْلي، أتناولُه مِن يدها، لا لأنّي أحبّه ولا لأقوّي جسَدي المُنْهار؛ بلْ لأنّه تعبيرُ الحبّ والحنان الوحيد الذي تبقّى في حياتي؛ فتمسّكتُ به وبها، ولم أعدْ أتخيّل يومي بدونها، أذكّرها به إذا غفلتْ عنه لأرتشفَ قطراتِ حبّها التي تهْوي من قلبِها وهي تسكبُه، ودوائرُ المودّة وهي تقلّبُه، وأسْتمتعُ بالنّظرة الحانية التي تسكبُها على قلبي وهي تمدّ يدَها لي به.. قالت لي يومًا على اسْتحياء:

- أخشى عليكِ من الوحْدة، كانت أمّي تقول "لو جوزك غول مش هياكلك!" لكنّ الوحدةَ يُمكن أنْ تلتهِمَك.

كلامُ البُسطاء دائمًا ما يصيبُ حقًّا أو مَقْتلًا، لكنّ كلامَها أصابني في الاثْنين، فوحْدتي بدأتْ في الْتهامي! لكنْ ما معنى "لوْ جوزك غول مش هياكلك؟!" وبعدَ ضحكتِها الرّقيقة الخجولة قالت:

- مهْما كان فيه مِن عيوب، لن يؤذيكِ كما سيؤذيكِ الآخرون.

ابتسمْتُ بسُخريةٍ وأنا أردّد:

- لنْ يؤذيني!! لقدْ آذاني بالفعل.

- اسْمعيني، الرّجلُ كالطّفل يجنّ جنونُه إذا فَرَضتِ عليه أيّ فرض، حتّى لو حقّ، يريدُ أن يشعرَ دومًا أنّه هو مَن يفكّر ويقول ويقرّر، امْنحيه الغرورَ تسلبي عقلَه، غذّي أنانيَتَه وطفولتَه تملكي قلبه، عانديه تفْقدي كلّ شيء، جرّبي واقْتربي، أسِرّي له بكلّ ما يُحْزنك علّها تصيبُ بقعةً بيضاء في قلبِه، فيحنّ لكِ وعليكِ.

ما زلتُ أقفُ أمامَها عاجزة، تلك المرأةُ الرّيفية البسيطةُ تمتلِكُ مِن الحكمة ما لمْ تمتلكْه متعلّمات أعلى درجاتِ التعليم، كلماتُها أحْكَم مِن محاضرات سيّدات التّنمية البشرية ومتخصّصات العلاقات الزوجية في المؤتمرات والنّدوات اللاتي يعقِدْنَها لمناقشةِ مشاكل المرأة، ثمّ يَخْرجنَ منها بلا أيّ حلولٍ؛ بل بزيادتِها تعقيدًا، وكأنّ "أنوار" لم تمتلِكِ الحكمةَ فقط؛ بل امتلكتْ معها شفافيةً روحيّةً أدْهشتني، فلم تكدْ تُنْه كلماتِها حتّى دقّ جرسُ الباب ولم يكنْ وراءه إلّا أشرف، لكنْ لماذا لم يفتحِ البابَ بمفتاحِه ليُفاجئني كالإعصار كما اعْتاد؟! استئذانُه ونظرةُ عينِه الغريبةِ، ورفْقُ كلماتِه يلوّح بشيء في الأفق..

- أريدُ أن أتحدّث معكِ قليلًا.

تملّكني خوفٌ، فترقّبتُ ما سيقول بعينيْ صقْرٍ يريدُ أن ينقضّ على أولى كلماتِه قبل أن تصلَ إلى شفاهِه فيلتهمُها ويلتهمُ معها قلبَه الذي عذّبني

وأذاقني المرّ، التحفتُ بصمْتي، وعيناي يملؤهما تحدٍّ وعناد، ألحظُ تردّدًا يصيبُ عقلَه فيمنَعُ لسانَه من البوْح، مرّت دقائقُ.. وكلانا صامتٌ، لكنّ تعبيراتِ وجْهَينا، ونظراتِ أعينِنا؛ كانت تقولُ الكثير. قطعَ الصّمتَ ليفاجئني قولُه:

- ما رأْيُكِ في بدايةٍ جديدةٍ ونسيانِ ما فات؟ سمحتُ لكِ بالعُمْرة على أمَلِ هذا!

خرجتْ كلماتُه متَتَعْتعةً كأبكمَ يحاولُ التّعبير عمّا يريد، ابتعدتْ شفتاي عن بعضِهما في دهشة، واتّسعت عيناي، ومالَ رأسي مُسْتندًا على كفّي الأيْسر حتّى كاد يلامسُ كتفي وأنا أحدقُ فيه، هل ما سمعتُه حقيقةٌ أمْ وهمٌ مِن فرْطِ وحْدتي وصمتي!؟ مَن هذا الذي يجلسُ أمامي!! كدتُ أستعيذُ بالله، وأحرّك يدي أمامَه علّه يكون شبحًا جاءَ ليخدعني؛ فينصرف، لكنّي خفتُ أن يظنَّها سخرية، طالَ صمتي وملأتْ أنفاسُ الدّهشة الهواءَ الذي بيننا.

- لماذا لا تجيبين؟!

- أجيب! وهل هناكَ ما أجيبُ عليه؟ (قلتُها بتعجّبٍ عبّر عنه كياني كلّه)

- هلْ أخطأتُ عندما فكّرتُ في محاولةٍ جديدة؟

اجتمعتْ في عيني ما استطعتُ تجميعَه من سحبِ الغَضب من كياني المَقْهور لتمطِرَ عليه كلماتي كإعْصارٍ أتمنّى أن يبتلعَه ماؤه، أسمعُ صرخاتِه الملهوفةَ تطلبُ النّجدة فلا أجيب، ثمّ أراهُ يدورُ ويدورُ حتّى تبتعدَ صورتُه

وصوتُه إلى يوم الدّين، أليسَ هذا هو القصاصَ العادل؟ ألمْ أصرخْ وأمدّ يدي لينتشِلَني، لكنّه تركني للغَرَق؟ كنتُ له طوالَ عشْرِ سنوات دمْيةً تتناقصُ قطعةً كلّ يوم بلا أدنى اهْتمام، حتّى تشوّهتْ معالمي، لم يكنْ حضْني يومًا؛ بل خلعَ عنّي ستْري وتَرَكني على قارعةِ طريقِ الحرمان، ثمّ قذفني لتلكَ الدّوامةِ التي أدورُ فيها الآن، أتغذّى على مشاعرَ ليست من حقّي، أمتَصّها لتمنَحَ روحي الميّتةَ روحًا، وحياتي الضّائعة حياةً.

– محاولةٌ جديدة لماذا؟ لعودةِ العُصفور للقفصِ، أمْ لقتله ببطء؟!

قلتُها ببرودٍ بحجْمِ كتلةِ الثّلج الذي خَلَّفها وراءَ ضلوعي، رفعَ حاجبَه الأيمن ونظرَ إلى الأرض، غابَ ببصره عندها كأنّه يحدّثها هي..

– مِن الواضح أنّي أخطأتُ بالتّفكير في إصلاح الأمر.

– هلْ تظنّني غبيّة! أيّ إصلاح بعد كلّ ما قيل، الإصلاحُ الوحيدُ بيننا هو بقاءُ الوضْع على ما هو عليه، أو الطّلاق.

– قلت لكِ مرارًا....

قاطعتُه وأنا أرفعُ كفّي أمامَ شفتيْه، وأقولُ بتهكّم:

– لا تحْلمي بالطّلاق، اجْعليه من مُسْتحيلاتك، ستَموتينَ هنا وليس في مكانٍ آخر كالعصفورِ المسكين.

ثمّ أرسلت له نظرةَ اشْمئزازٍ أجرتْ شيئًا على وجْهِه، هل كان خجلًا عمِي بصري عنْه؟ أمِ استفزازًا أعاد أشرف الحقيقي من مخْبئه؟!

- اطمئنّ، أحفظُ تلك الكلماتِ البالية، ولنْ أنْسَاها، وثِقْ أنّي لنْ أمنحك متعةً بنَكهتى وأنا أستميتُ في طلبها، لنْ أحقّق رغبتَك في كوْني شمعةً ستحرقها بنورها، أو عصفورًا ستقتلُه برغبته في الحرية، الآنَ أنا لا أريدُ شيئًا، رفعتُ أيادي الاسْتغناء حتّى لا تدَهَسني أقدامُ عبوديّتك.

قلتُها وأنا أشيحُ بوجْهي عنه، آلَمه كبرياؤه فحمَلَ ما أتَى به من حقيقةٍ أو خدعةٍ، وانصرف.

حَمَلَ ما أتى به من حقيقةٍ أو خدعةٍ.. وانصرف، لم تزحزحْ تلك المواجهةُ الثقيلة حجرًا واحدًا من الحائطِ السّميك الذي أحكَمَ أشرفُ بناءه على باب كهفِ قلبي، فأغلقَه ولن يفتحَ إلّا بكلماتٍ سحرية تخرُجُ من قلبٍ لتصلَ إلى قلب، وهل لمثلِهِ قلب! فلو أنشَدَ شعْرَ العالمِ وقصائدَه في الحبّ، ولوّنَ جدرانَ بيتي بلوْحاتِ العشْق، لو ألقى تحتَ قدمي ورودَ الكون لأخْطو عليها؛ فلنْ تتحرّك صخْرتي إلّا بتلْكَ الكلمات من قلبٍ لتصِلَ إلى قلب، بخِلَ بها وقالَها محمّد ففتَحَ كهفي، دخلَ وقبَعَ به، ثمّ تلا تعويذتَه فأُغلِق.. ولن ينفتِحَ يومًا لسواه.

اسْتحلفتُ ساعاتِ النهار والليل لتمرّ ويأتي فجْري ليحْملَ معه خيوطَ صوتِه الفضيّ ليهدأ روعي بعد تلك المقابلة، ما زلتُ أذكُرُ آخرَ كلماته "نحنُ يا مريمُ مَن نضخّم إحساسَ الحرمان الذي نريد، حتّى يصبح وحشًا لا يلتهمُ سوانا".. فكانَ أوّل ما سألت:

- ما معْنى الحرمان الذي نريد؟

كنتُ أشعرُ في صوتِه بنبرةٍ مُختلفة عن ذي قبْل، وهو يجيب:

- لو حرمتِ مِن المال هل ستتأثّرين؟ هل سيُخرج الفقرُ منْكِ ما أخرجه الحرمانُ من أبٍ أو أخت أو زوجٍ أو طفل.. وبالذّات الطّفل!؟

- لا، المالُ لا يهمّني في شيء...

- في حين أنّ الفقر يُمكن أنْ يستولي على غيرك، بينما هو يمتلكُ كلّ ما تفْتَقدينه، فيُخرجُ من قلبِه الجريمةَ والشرّ والعقوقَ والكفْر، لا يخطئ في حقّ نفسِه فقط؛ بل في حقّ الآخرين، ثمّ يُرجع أفعالَه للفَقْر وليسَ لنفسِه الجائعة، الحرمانُ جوعُ نفسٍ يا مريم، وقد تجوعُ نفسٌ وبطنُها ملآى، وقد تشبعُ نفسٌ والبطونُ خوالي.

يتكلّمُ وخيالي يهيمُ مع كلّ حرفٍ ينطقُه، مُحقٌّ هو؛ فلقدْ أخرجَ حرماني من زوج حقيقيّ أسوأ ما بداخلي، فهل كان عليّ أنْ أجتازَ المحنةَ بأفضلَ ممّا أصبحتُ عليه؟ وهل يُمكن أن أعودَ قبل أنْ أتحوّل إلى وحشٍ يلتهِمُ قلوبَ الآخرين ليغذّي قلبَه؟!

- لكنْ هل يُمكن لخالقٍ أنْ يقسو على مّن خَلَقَ بالحرْمان؟

لم يجزَعْ من كلماتي؛ بل تلقّاها بالصّبر والحكمة، يعاملني كطفلتِه الصّغيرة فكانَ كمَن يحكي لي قصّةَ قبل النوم ليغفو قلبي الذي لا ينام.

- الحرمانُ محنةٌ إمّا أنْ تنقّي النّفس أو تُخرجَ منها خبثَها، إمّا أنْ تزيد النّورَ والاقتراب أو تنشُرَ الظّلام والابتعاد، هل تحبّين الذّهب يا مريم؟ أغلبُ النّساء يَحْببْنَه.. (قالها وصوتُه يرتفعُ بضحكةٍ انْتقلت لي فضحكت).

- أحبّه.. (قلتُها كلمةً لم يحمِلْها قلبي يومًا؛ أنا أكرَهُ الذّهب لأنّه هو الذي جعلني يتيمةَ أمٍّ على قيْد الحياة).

- تعْرفينَ كمْ مرحلة يمرّ عليها الذّهب كي ترقى قطعةٌ باختيارِك لتضعيها في صندوقِ مُجوهراتك؟ البحث، التّنقية، الاحتراق، موادّ كيماوية، تشكيل، ثمّ قطعة قدْ تعجبُك أو لا..

- حقًّا لم أفكّر في ذلك من قبل!

- كلّ تلك المراحل تمرّ بها حُبيْبات الذّهب لتتحدّد العيارات ما بيْن الذّهب الخالص والمخلوط بفضّة أو نُحاس، أو ذهب كسْرٍ يعودُ مرّة أخرى إلى النّار لأنّه لم يستجب.

بلعتُ ريقي لأرطّب حلقي الجافّ، أرْعبني وصفُه لمراحل تنْقية الإنسانِ ليصْفو.. ويصْفو.. ويتحدّد عيارُه أمام خالقِه حتّى لا يكونَ له حجّةٌ يوم القيامة، المحنةُ والحرمانُ كالنّار للذّهب، فإمّا الخالص وإمّا المختلط وإمّا الكسر، فمَن أنا فيهما: المختلط أم الكسْر الذي سيستحقّ النار؟ روحي تتأرجحُ بينهما.. كنتُ في تلك اللّحظةِ ما زلت أمتلكُ الفرصة، فلماذا لم أتمسّك بها؟

بادرتُه بكلمةٍ واحدة، وبهدوء:

- فهمت.

هل تمنّى أن ينهي حواراتِه معي وينصرفُ إلى اللّاعودة فصَمَت! أسرعتُ خوفًا من الرحيل:

- لكنْ هناك مَن لا يمرّ بتلك المحَنِ الشّديدة، فلماذا عبدٌ دونَ عبد؟

تنهّد تنهيدةً طويلة، وهو يكرّر كلماتي: "لماذا عبدٌ دون عبد؟"

– هل تمتلكينَ نظرةً خاصّة فيمَن يعملْنَ عندَك بالبيت؟

أسرعتُ دون تفكير:

– طبعًا، لي نظرةٌ خاصّة فيهنّ، وفي الغالب يصْدُق حدْسي، عندي مَن لم أرَ في أمانتِها ولا خُلقِها؛ لذلك أحبّها وأسْتبقيها دون الأخْريات.

– كلّ هذا وأنتِ بَشَر، تعرفينَ الأمينةَ مِن الخائنة، فتصْنَعين الفخّ للخائنة دونَ الأمينة حتّى تتأكّدي مِن حدْسك وتضعيها أمامَ نفسِها، ولو طردتِها دونَ ذلك الفخّ فستبكي وتتّهمك بالظّلم، أليس كذلك؟!

لم أفهَمْ تلك المرّة ما يرمي إليه؛ فتساءلتُ عن معناه..

– اللهُ يا مريمُ يعلمُ خائنةَ الأعين وما تُخفي الصّدور، يعلمُ الخائنَ والمخلِص والمُخلَص، الفتنةُ والمحنةُ والحرمانُ ما هي إلّا ذلك الفخّ لتكشف القلوبُ عنْ دَواخلها، لله عبادٌ مُخلَصون؛ ختمَ الله علي قلوبهم ختمَه بالإخلاص واسْتخْلَصهم دونَ البشر فلا يقدِرُ عليهم شيطانٌ ولا نفس، لا يهتمّون لمحْنة أو حرمان، قلوبُهم ذاكرةٌ شاكرةٌ صابرة، وله عبادٌ مُخلِصون؛ أعمالُهم خالصةٌ لوجهه الكريم، لا يكْفرون به.. ولا يشْركون معه شيئًا، قد توقِعُهم محنةٌ أو فتنةٌ لكنّهم سريعًا ما ينْهَضون وينْفُضون عنهم غبارَها، وهناك مَن خَلَطوا عملًا صالحًا بآخرَ سيئ عسى اللهُ أن يتوب عليهم، وهناك مَن اسْتحقّوا الطردَ مِن رحمة الله، لكن بعدَ المحنِ التي أوقعتْهم وأخرجتْ من قلوبهم الخبثَ الذي تحمِلُه.

الطّردُ من رحمة الله كلمةٌ أوقعتِ الخوفَ في قلبي، فتسارعَتْ دقّاتُه.

- مَن يُطرَد مِن رحمة الله؟

- الكفرةُ الفجرةُ والمشركون؛ قال تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ . وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

- والذي يقتُلُ نفسَه؟ (فكّرتُ بها؛ بمريم).

- معاذَ الله، إيّاكِ وإنْهاء أمْرِك بيَدِك، قال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ . إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، والذي يقتُلُ نفسَه لا يدخلُ الجنّة؛ لأنّه لم يتذكّرْ أنّ له إلهًا وهَبَه الحياة، فواهبُ الحياةِ هو مَن يأخُذُها.

- تحتَ أيّ ضغط؟

- لو أعْطاكِ أحدُهم أمانةً، وكتبَ عليك إيصالًا بها لو بّددتِها ستَصلينَ للسّجن؛ فهلْ ستفرّطين بها؟

- لا، لكنْ يمكنُه الهروبُ بها.

- ومَن هذا الذي يهربُ مِن الله في كوْنِه!! أيّ بقعةٍ تلك التي لا يوجَدُ بها!

ظهَرَ طيفُها أمامي يبكي، كأنّها تمنّت أن تسمعَ كلّ هذا قبلَ أن تفعل ما فعلتْ، قبل أن تتمرّدَ على عُبوديّتها لله، ثمّ تنهي حياتَها بيدَيْها، لو عادتْ أظنّها لن تفعل، وستتمنّى أنْ تبقى عبدةً لله على أن تخرُجَ مِن رحمته،

تذكّرت حسناء، فهلْ أنا الآنَ أنتحرُ لكنْ بطريقةٍ أخرى أقتلُ فيها روحي آلافَ المرّات، ثمّ تبادرَ إلى ذهني ما أريدُ أن أستفسرَ عنْه.

- بعضٌ ممّن تقولُ عنهم كفرةً ومشركينَ ينعمونَ في الدّنيا دون احتراق..

لمْ أنْهِ سؤالي الذي تخيّلت أنّه سيعجز عن الإجابة عنْه؛ إلّا وبادرني بالجواب:

- قال تعالى ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾؛ اللهُ يعلمُ قلوبَ الكافرين، ولوْلا أنّ النّاس يروْنَ الكافرين مُنعّمين فيفتنون بهم؛ لجعَلَ الله سقوفَ بيوتِهم من الفضّة.

أخرجتُ كثيرًا مِن حبّ تلك الدنيا- التي لا تساوي شيئًا- في تنهيدةٍ شقّتْ صدري، ليتني مريم وقابلتُه فتبدّلت حياتي، ليتني قابلتُه قبل أنْ ألقاها علّها نجَتْ، وأنا! ألنْ أبحثَ عن نجاتي!

- وكيف أنجو؟ (قلتُها رغمًا عنّي فوَصَلت إليه).

- النّجاةُ في أنْ تعودي إلى إيمانك بالله قبل أن يفوتَ الأوان، قبل أن تغربَ شمسُك، ولا يَقبَل منْك توبةً بعدها، قومي واغتسلي وتوضئي، وكرّري الشّهادة، ثمّ اطْرحي قلبَك في ركعاتٍ وسَجَدات، واطْرقي البابَ بدموع عينيْك؛ وسيُفتَح لكِ، اللهُ لا يردّ تائبًا، وسيبدّل سيئاتك حسنات.

"اللهُ لا يردّ تائبًا، وسيبدّل سيئاتك حسنات" كلماتٌ طرقتْ قلبي وعقلي وكياني كلّه، وعدتُه أنْ أفعلَ، ووعدني أنْ يطئمنّ عليّ غدًا بعْد الفجر. كانتِ الشّمس قد بدأتْ في الشّروق، ارتديتُ ما يستُرُني ووقفتُ في الشرفة أتأمّل السّماءَ في ذلك الوقتِ المَهيب، أتمنّى أن يلمسَ قلبي شعاعٌ كالذي تسلّل إلى نبْتاتي المُحيطة بالشّرفة فتفتّحتْ زهورُها التي أغمَضَها الليل، التفتّ لأعودَ إلى حجرتي فاصْطدمتُ بعيونِ أحمد وآلاء البريئة تنظرُ لي بخَجل، هناك ما يردْنَ قولَه:

- ماذا تريدان؟

تبادَلا النّظراتِ قبل أن يجيب أحمد:

- ألنْ يعود أبي يومًا؟ هل سنظلّ بدونِه؟

ثمّ أكملتْ آلاء، وشبحُ دموعٍ ظهَرَ في عينيها:

- اشتقتُ لأبي.

وضَعَا حملًا فوق أحمالي، فمَالَ ظهْري، ويبدو أنّ السّقوط أصبحَ وشيكًا، ألقيتُ جسدي على كرسيّ أمامَهما، ووضعتْ كفّي على عيني وأنا أتنهّد من فرْطِ ألمٍ، فأكْمَلت آلاء وهي تلمسُ شعْري بكفِّها الصّغير الحنون:

- نعرفُ أنّه يضايقك، لكنّه أبونا، ونحبّه ونشعرُ بتعبِك ونحبّك، نريدُكما معًا.

رفعتُ رأسي محاولةً الاحْتفاظَ بهدوئي:

- نتكلّم فيما بعد حتّى لا تتأخّرا.

رحَلَا وترَكَا لي أزيزًا ينخرُ في عقْلي، أدورُ في البيتِ كالهائمة على وجْهِها في صحراء، ناولتني أنوارُ كوبَ حبِّها وهي تنظرُ لي بعطفٍ جعل دموعي تنهارُ وتجرِفُ معَها السّدودَ الذي منعتُها منذُ فِراقه، لم يعدْ لي غيرُها أشكو له:

- ماذا أفعل؟

- سمعتُ الأولادَ وهُم يتكلّمون معكِ، حقّهم، يحبّون أباهما، ويريدانه.

- أعرفُ ولا أُنْكر عليهما ذلك، لكنّي لنْ أستطيع.

نظرتْ لي بتردّدٍ يُنبئ عن ما تخشَى الإفْصاحَ به..

- قولي ما تريدين بلا تردّد.

- جاءَكِ راجيًا مستعطفًا، فلمَ لا!؟ جرّبي مرّةً أخرى حتّى لا تندمي يومًا.

- أنتِ لا تعرفينَه.

وبابتسامتِها الهادئة السّاحرة التي كلّما ابْتَسمتْها تمنّيت أنْ أخْتطفَها وأجّمّلَ بها شفاهي الجافّة، قالت:

- قد تكوني أنتِ مَن لم تعرفيه، أو لمْ تحاولي فتباعدتْ بينكُما المسافات وزادتْ، تحتاجان قطاريْن سريعيْن يتقابلان في المنتصف، يتنازلُ فيه كلُّ منْكُما عن بضْع محطّات قطعَها وحيدًا، أو تقابلَ فيها مع آخرين.

علتْ وجْهي الدّهشة، كيفَ لتلْك المرأةِ أن تنطقَ بتلك الكلمات! فأسرعَتْ لتَمْحو دهْشتي:

- تتعجّبين مِن كلامي!! أكملْتُ تعْليمي حتّى المرحلة الإعدادية، وكنتُ متميّزة بالرّغم من فقرنا، جرفَتْني عاداتُ الرّيف وتزْويجُ الفتيات صَغيرات، كما أنّني كنت أحبّ "كرم"؛ فتنازلْتُ عنِ التّعليم من أجله.. (ثمّ ابْتسمتْ واحْمرّت وجنتاها، وأكْمَلت) كان ينتظرُني كلّ يومٍ وأنا عائدةٌ من المدْرسة، ونتقابل في غيطِهم، كانت أجملَ أيّام حياتي.

بزغَ قمرُ الحبّ في عينيها فشرَدَتْ عيناي فيهما، هل هذا هوَ ما منَحَها الهدوءَ النّفسي الذي يكسو داخلَها وانتزَعَه من داخلي مقابلة الحبّ لكنْ بعْدَ فواتِ الوقت! ألهذِه الدّرجة تتحكّم فينا علاقتُنا بالجنْسِ الآخر؟!!

- لا أحبّه كما أحببْتِ "كرم"؛ على العكس يحمِلُ قلبي له كراهيةً لم يحملْها لسِواه، أفزعُ من رؤيتِه، فما بالُكِ بـ ......

ثمّ تنهّدتُ وشددْتُ على جفوني لأمسَحَ مشهدَ علاقتي به من عيني.

- أفْهمُك، لكنِ اعْلمي أنّكِ لن تستطيعي مهْما فعلْتِ أنْ تُمسكي بالعَصا من المُنْتصف، خاصّةً في علاقتِك بزوْجك، إمّا الوجود وإمّا عدمه.

هززْتُ لها رأسي لأنْهي النّقاشَ الذي لاحتْ فيه بوادرُ انْتصارِها، استدارتْ وغابتْ في المطبخ، وكلامُها الواعي بالحياة يدبُّ دبيبًا في رأسي يتخبّطها يمينًا ويسارًا، متى سيأتي فجْرِي ليُشْرق صوتُه في قلبي فيُنير.

لم يكنْ رنينُه يمتلِكُ شغافَ قلبي كما كانَ يحدُث مع محمّد، إلّا أنّه كان يُطَمئنُه، توقّعت قولَه قبل أن ينطقه:

- صلّيتِ أمس؟

- كلّ الصلوات.

- ما شاء الله، أراحَ الله قلبَك يا مريم، وبماذا شعرتِ؟

- شعرتُ أنّها بداية أتمنّى أن أتمسّك بها قبل أن يفرّ حبْلُها من يدي.

كنتُ أقولُها بصدْق، أتمنّى بداية لكنّي لا أعرفُ لها طرفًا لأتمسّك به.

- قولُك سيشَجّعني على مفاتَحتِك في أمْر....

قالَها والخجلُ يكْسو صوتَه، فجعلني أتوقّع ما سأسمع..

- انْتهينا مِن قصّة مرضِ قلْبك، وأعْتقد أنّك واعيةٌ وستنْتَصرين، لكنْ في ظلّ ظروفك قدْ تقَعينَ مرّة أخرى، المرأةُ الوحيدةُ دونَ رجلٍ فريسةٌ سهلةٌ للشّيطان.

"وأنا يا شيخي أصبحتُ تلك المرأة" أردتُ قولَها، ومنعني خجَلي من نقائه، وقمّة زيفي الذي استمتعتُ به في باديء الأمر.

- تقولينَ إنّ زوجَك يُريد طلاقَك، وتمنعُه الشّفقة عليكِ وعلى ظروفك الماديّة والاجْتماعية، هو لا يقْرَبُك بالفعل، وهذا مِن أبْشَع الشّرور التي نَهانا الله عنْها؛ قال تعالى ﴿فَلَا تَمِيلُوا كلّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾، فلنْ يكون هناك

ما يمنَعُ أنْ نلتقي به ونخيِّره؛ فإمْساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان، وإنْ كان تسريحًا؛ فلنجِدْ بدايةً جديدةً يطمئنّ بها قلبُك.

تمنّيتُ أن أصفَ له إمساكي بأذى وتسريحي المستحيل..

- وأينَ أجدُها تلك البداية؟

قلتُها، وأنا أشتاقُ لبدايةِ حياةٍ حرّة نقيّة خاليةٍ ممّا علقَ بي.

سادَ صمتٌ غريبٌ في تلك اللّحظة شَقَّه بما أجرى عرقَ الخَجل على قلبي قبْلَ وجْهي:

- عندي بإذْن الله مَن تبدَئين معَه تلكَ البداية.

ارْتفعَ كفّي لِفَمي مِن هوْلِ الدّهشة، ودقّ قلبي، وارْتفَعَ نبضُه وأنا أقول:

- ومَن هذا؟!! (توقّعت أنّه سيكون هو، لكنّه أجاب)

- أخٌ كريم، أعرفُه كما أعرفُ نفسي، أرملُ منذُ ستّة أشهر، ماتتْ زوجته وهي تلد، شابّ.. ووسيم.. ويعرفُ الله حقّ معرفته.. وعلى خُلُق، سيُحَلّ معه كلُّ أمْرك، رجل.. وأمان.. وحياة.. وولدٌ تحقّقين فيه أمومَتَك التي لم يشاؤها اللهُ، وتأخذينَ أجرَ تربيةِ يتيم.. (ثمّ سكت طويلًا قبلَ أنْ يُكْمل) لكنّي لنْ أستطيعَ أنْ أتكلّم أكثر إلّا بعد مقابلةِ زوْجك، حتّى لو كانَ هذا الرّجل لا يقْرَبك فأنتِ مازلتِ زوجَه، لا يجبُ أن نتعدّى عليه.

ابتسمتُ ابتسامةً نبعَتْ من داخلي، ما زالَ في الدّنيا خيرٌ مهْما جالَ الشّرّ وانْتَشر.

– لكنّكَ لا تعرفني، فلماذا تقفُ بجانبي؟

خرجتْ من أعماقِه تنهيدةٌ قطَعَها بصوتٍ مُخْتنق كأنّ على صدره جبالًا:

– ولوْ لمْ نقفْ نحنُ لأخواتِنا المُسلمات لنُحْصِنهم، فمَن يفعل؟!! اعْتصرتْنا المدنيّة بسلبيّتها، وابتعدْنا عن أحكام شرْعِنا، أدارَ كلٌّ منّا ظهرَه للآخرين، اهتمّ الجميعُ بشأنه مُتَناسين تفريجَ الكرب وإغاثةَ الملهوف والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، والكثيرَ مِن الذي لو طبّقناه لصارتْ دنيانا جنّة.

– وهل أستحقّ أنا شرفَ تدخّلك لي؟

وبحزمٍ وجديّة قال:

– إنْ كان هذا شرفًا كما تَحْسبين؛ فأنتِ تستحقّين برُوحِك الطيّبة التي خافت وحاولتِ التمسّك، تستحقّين بقلبِك الذي شعَرَ ببذرةِ الشّيطان فأسْرَع لَمن يُعينُه على اقْتلاعها، تستحقّين بصَبْرك، لكنْ....... (ثمّ سكتَ طويلًا)

– لكنْ ماذا؟

– شُفي مرضُ قلبِك بفضْل الله، وسيتوقّف حديثُنا إلى أنْ يُهاتفني زوجُك.

ذُهلتُ ممّا قال، هل سأحْرَم منْه هو أيضًا! إنّه النّسمةُ في نهار صحرائي، والدّفء في ليْلِها، نجمةُ سمائي التي أظلمتْ، لكنّه سيرحلُ بنَسَماته ونوره وسأعودُ للجَفاف والظّلام، حان وقتُ الهُروب، اعتصرَ قلبي وأنا أضغطُ "البلوك"، وأمْحو الحسابَ الزائف كزيْفي؛ فالوجودُ بعدَ ذلك لنْ يجْدي، فقدتُ القربَ منه، فأنا لستُ مريم، لكنّني أيضًا لم أعدْ حسناء.

أنا لستُ مريم، لكنّي أيضًا لم أعدْ حسناء، وقفتُ أمام صديقتي الوحيدة تنعكسُ فيها صورةٌ لم تعدْ تشبهني شكلًا أو روحًا. ذابتْ مريم في حسناء فمَن أنا فيهما؟ أزلتُ صبغةَ شَعْري وعدساتي السّوداء علّني أعودُ، لكن مريمُ كانت قدْ طبعتْ على قلبي بصمةً لنْ يمحُها وقتٌ ولا نسيان. عدتُ من رحلتي مع مريم ومحمود بالكثيرِ من الألمِ والأمَل، روحُه الشّفافة اجْتازتْ صلابةَ روحي، فصنعتْ بها شرخًا من نوعٍ جديد، لم يكنْ كشرخِ تخلّي أشرف، ولا شرخِ هجران محمّد؛ اللذيْن لم أتسبّب بهما، كان أوّل شرخٍ تشقّه يدي بكامل إرادتي، الندمُ يدبّ نصْلَه الغائرَ في قلبي، فينزفُ دمي بكاءً دونَ صوتٍ أو قطرات، لم أجدْ في روحي موْضِعًا للجَلْد؛ فجلدتُ قلبي، الصمتُ عقَدَ صفقتَه مع لساني فامْتَثل لعقدهما، النومُ قدّم أوراقَه وأخذ تأشيرتَه فهجَرَ عيني، رحَلتْ روحُه مع روح مريم، وتركاني في مُنتصفِ طريقٍ لا أعرف كيف سأكملُه.

جاءا لا أعرفُ لماذا، كنتُ مُلقاةً على أريكتي تتدلّى يدي لتلمسَ أصابعي الأرضَ كمَن لفظَ أنفاسَه الأخيرة، تابعتُ "أنوار" بعينيْن متجمّدتيْن وهي تفتحُ البابَ ليدخلا، استقبلتْهما بحذرٍ خشيةَ الرّياح التي هاجتْ بهما، احْتضنتني.. وأقْسمُ أنّها كانتْ تغمزُ لأبي بعيْنَيها من خلْفِ ظهْري:

- كيفَ حالُك يا ابنتي؟ لا يبدو عليكِ أنّك بخيْر حال!

قالتْها أمّي وهي تخشى أن تكونَ قد قالتْ ما لا يرغبُ فيه أبي، ترى ما الذي يلمعُ في عينيْها، ويشتدّ بريقُهما إليه فيظهرُ خضوعًا وتذلّلًا؟ طقمُ ذهبٍ أم خاتمُ ألماس، أمْ تراه سوارًا سيقيّد معصمَها أكثر، ويُنْسيها بريقُه أمومَتَها لشابّةٍ شاختْ قبل الأوان، نَهَمُها لا يشْبَع، تركتْ روحُها بحْرَ الأمومةِ الهائج وسكَنَتْ مغارةَ علي بابا، جلستُ أمامَهما بنظرةٍ واجمة أظنّها كانت مُخيفَة..

- مَن قال إنّها ليست بخير! النّساء يفضّلنَ إنقاصَ أوزانهنّ، وابنتُك منهنّ، ليستْ مثلَك ترْعى في حشيش!!

يا لَتِلك العروضُ المسرحية التي لا تنتهي، والتي ضجّتْ بها خشبة مسرحي، أسندتُ رأسي لكفّي بصَمْتٍ منَعَهم مِن إكمال العرض.

- هل انْتهى العرضُ المسرحيّ هنا، أمْ أنّ هناك مشاهد أخرى؟

قلتُها وأنا أَضَعُ أمامَهم أكوابَ العصير التي أتتْ بها أنوار.

- أيّ عرض!

قالَها أبي وقدْ عقدَ حاجبيْه فالْتقيا، واتّسعت عيناه في مشهدٍ محْفور في عيني، لكنّه لم يعدْ يُخيف.

- جئتما لسببٍ فلماذا لا تقْتَصرا المسافة وتريدانِها دومًا طويلة، لم أعدْ صغيرةً، كبرْتُ..

هزّ رأسَه موافقًا بعد أنْ تبادلا النّظراتِ الماكرة.

- نعم، جاءنا أشرفُ أمس، يريدُ العودةَ إلى بيته، تذلّل، أظهَرَ ضعفًا لم أرَه عليْه من قبْل، أعرفُ أنّ شخصَه ليس بالمُريح، وأنّه ليس بالزّوج الذي حقّق لك السّعادة والاحْتواء، وكلّ هذا؛ لكنّه زوجُك وأبو أولادك.

يعترفُ ليحقّق هدفًا! جمْدت وجهي بقدْرِ ما اسْتطعت، فتحوّل إلى لوحِ ثلجٍ بلا تجاعيد أو ملامح.

- هل ستقبَلُ طلاقي بما تقرّ، أمْ ستأتي به لينهَشَ ما تبقّى منّي؟!

- قلتُ لكِ مرارًا.. لا طلاقَ في العائلة، كلمةٌ واحدةٌ لنْ أكرّرها مرّة أخرى، يمكنُك فقط بعد وفاتي.

بعدَ وفاته! إذًا فلأجْلِس وأنْتظرُها لأبْعَث، أدفنُه في قبري ثمّ أصعدُ للحياة، حياتي صارتْ مرهونةً بموْتِه! أيّ عقول تلك! وأينَ شرعُ الله ممّا أنا فيه! هززتُ له رأسي بالموافقةِ وأنا أقول:

- فليَعُد.

ترقّبتُ هالاتِ النّصر على وجهه دقائق، ظنّ أنّه تمكّن من تهْديدي حسبما أراد، فاستمتعتُ بالفرْحةِ التي سيَعْقُبها خيبةُ أملٍ تركاني لها.

- قلْ لي متَى واحْضر معَه لتأخذَ جثّتي، وقد أبالغُ وأجعلهم ثلاثة؛ فلا عيشَ لأبنائي بعْدِي.

قلتُها وأنا أسندُ كتِفَيّ ورأسي على ظهْرِ الأريكة، همَّ ليتكلّم لكنّي حاصرتُه قبْلَ أن يتفوّه بكلماتٍ أعِيَها منذ صغري..

- هذا خدّي إنْ أردتَ أنْ تلطمني، أو فلتأتِ مرّةً أخرى بصُحْبة الكرباج الملتَفّ على نفسي لتجْلِد جسدي كما جلَدْتَ روحي عمرًا فتشَوّهت، مَن تجلسُ أمامَك الآن ليستْ حسناء، أنا قتيلةُ روحٍ دونَ جُناة، ولا عزاء للضّعفاء.

انْصرفا وتركا لي خيبةً فوق خيباتي، انصرفا لمّا لمْ يجدا ما يقولانِه، وأيّ عقوبةٍ تلك التي سيفرضُها عليّ وأنا أجلسُ أمامَه ميّتة في ثوْب الأحياء، ألم تكْفِ عقوبةُ الوأدِ بعْد!

حُـور

ضاقتْ السّاعات على روحى بعدَ انْتهاءِ علاقتي بشيْخي فخَنَقتني، نعمْ أوقاتُ الكلام بيْننا كانت قليلةً، لكنّها كانتْ تغمُرُني، كشعاع ألقتْه الشّمسُ في يوم باردٍ على نبتة صغيرةٍ مَنْسيّة ملتصقةٍ بالأرض تكافحُ ضدّ الموت، ككوبِ ماءٍ بارك الله فيه فوضَّأ عابدًا لخمْسَةِ فروض، لكنْ ما لبثتْ أن زالت طهارتي التي غمَرَتني معه.

كرهتُ جدرانَ سجْني؛ فالسّاعة بينها تنقضي عمرًا، أصبح النادي بيتي الذي لا أتركُه إلّا للنّوم، أهربُ إليْه من حياةٍ تعيسةٍ وحبّ فاشلٍ وضمير لم يمنعني من خِداعِ رجلٍ كان يُمكنُ أن يكون ركني الشّديد، ساعدني وجودُ أنوار، وانْتهاءُ العامِ الدّراسي؛ فتابعتُ تمريناتِ أوْلادي، وامتزجتُ بهم أكثرَ، فغابَ ضيّ شبحِ أبيهما من عيونهم، غيابٌ مؤقّت.. لكنْ لا بأس به، الْتَهمتْني شلَلُ السّيدات في كلّ رياضةٍ فخَفَتَ ألمَ قلبي ووخزُ ضميري، وجدتُهنّ لسْنَ أفضلَ منّي حالًا، الوقتُ يضيعُ بينهنّ كبُرْهة، متابعة أولاد غيرهنّ إذا تميّزنَ عن أولادِهنّ كان شاغلهُنَّ الأكبر، يسعينَ دومًا للشّراء بداع وبلا داعٍ من معرضِ النّادي، الأكلُ المستمرّ في حفلاتٍ لأسبابٍ واهية والتّنظيمُ لها مبارزةٌ لا تنتهي، مقارناتٌ معْقودةٌ طوالَ الوقت حول لوْنِ الشّعْر و"مكياج" العين وطلاءِ الأظافر، يحملنَ حكايا أرمُقُها في عيونِهنّ، منْهُنّ مَن تحيى حياةً عادية تلهَثُ فيها وراءَ الأولاد؛ متزوّجةً كانتْ أو مطلّقة أو أرملة، وفيهنّ أسيراتُ

تواصلٍ اجْتماعي لم يتحَلّين بالحَذَر مثْلي؛ فوقعْنَ في علاقاتٍ بشخصيّاتهِنّ المعْروفة، فأصبحْنَ إمّا قيْدَ الحبّ المحرّم أو التّهديد المُباح الذي يخطفهُنّ مِن آنٍ لآخرَ في رسالةٍ تضجّ مَضْجعَهنّ، وقليلُهُنّ مُطلّقات عرفْنَ كيفَ يهْرَبنَ من حياةٍ فُرضتْ عليهنّ ليبحثْنَ عنْ حياةٍ أخرى أنْضجُ، لكنّهنّ لم ينجَحْنَ إلى الآن.

كنتُ قد بدأتُ التّعافي، أو هكذا توقّعتُ حين بدأ في مُشاغلتي، مُدَرّب أحمد، موفورُ الشّباب، مرحٌ، ذو حضورٍ طاغٍ، يعتني بهِنْدامه عنايةً فائقة، جذّاب لعيونِ النّساء حوْلي، يتهامسْنَ عند ظُهورِه بضَحكاتٍ وغمزات، أفصحتْ إحْدى المطلّقات أنّها حاولتْ إيقاعَه في حبّها فأبى، لكنّه تركهنّ وأكثرَ منهُنّ؛ والتفَتَ لي، لم تكنْ حسناء التي تتكوّن بداخلي قد امتلكتِ الوعْي الكاملَ بعْد، جَرَفني سيْلي الأوّل لحبّ طاهر، ثمّ لشيخٍ يعرف حدودَ الله، فما الذي يريدُه منّي؟! وهل سيكونُ هو السّيلَ الذي سيحطّم السّدود؟

لم يعدْ وليدُ يقتنصُ فرصةً لوحْدتي ويضيّعها، مستوى أحمد ومشاكلُه وكيفيّةُ حلّها حجّتُه وهو يحاصرُ عيني بنظرةٍ ساهمةٍ متأمّلة مُحمّلة بالشّغف، لن أنكرَ تورّد وجنتّي خجلًا، وبريقُ عينيْه يداعبُ عيني كما يداعبُ النّسيمُ خصلاتي؛ ولا دلالَ شفاهي مع كلّ كلمةِ إعجاب، ولأنّني أعترفُ فلنْ يستطيعَ جسدي نكرانَ الشّعور بغريزةٍ قويّة لم تغزُه مِن قبْل، فأنا زوجةٌ مع إيقافِ التّنْفيذ منذُ يوم زواجي الأوّل، لم أرزقْ بأيّ متعة جسديّة، سمعتُ عنْها وتشوّقتُ إليها، لكنّي لم ألتقِها، الرّفضُ الجسديّ فقط هو ما منَحَني أشرف إيّاه، وعلاقتي بمحمّد لم يتخلّلها إلّا قبْلةُ وداعٍ جمعَتْنا لدقائقَ وما

زالت تتراقصُ على شفتي بنشوى رقيقةٍ تفوحُ عطرًا كلّما تذكّرتُها، ولم يتحرّكْ جسدي شبرًا في علاقتي بشيخي؛ فالوجودُ وحده هو ما أَرَدْت، لكنْ أمامَ وليد.. كان كلّ شيء يختلف، أرادَه جسدي واستجابَ له في أحلامٍ اسْتنكَرْتُها، فما زالَ طيفُ شيخي يُضفي على روحي طهارةً ونقاء.

زادتْ هَمْهَماتُ النّساء مع ازديادِ اهتمامِه، ليس شرفًا بلْ حقدًا وغيرة، تُنكر كلّ واحدةٍ بداخلها أنّني أكثرهنّ حُسنًا..

- كابتن وليد لا يفوّت فرصةً لمشاغلتِك ويترُكُها يا حسناء!

قالتْها إحداهُنّ وهي تنظرُ للأخْريات ليتكاثَرْن عليّ، صعدتْ علاماتُ الغيرةِ مِن أعماقِهنّ تطفو على الوجوه بملامحَ امْتعاضٍ ونظرات لا مبالاة وتكذيب، فآثرْنَ الصّمت.

- ومَن قال إنّي أهتمّ؟

قلتُها وأنا أعِيَها، قطعًا لن أهتمّ به كحسناء، بل سأطْلِق له واحدةً من جنّيّاتي القابعاتِ بداخلي، يتزاحَمْنَ لتتأهّب واحدةٌ منهنّ للقائه في العالمِ الافْتراضي، كلّ واحدةٍ منهنّ تريدُ دورَ البطولة للمغامرة القادمة، مغامرتي مع وليد، فمَن تراها ستفوزُ بالصّعود على السّطح دون الأخريات؟

صاحباتُ النّادي سيجعلنني- لفترةٍ- موضوعَ نقاشاتِهِنّ المُمْتعة في عدم وجودي وعلى الهواتف، سيسبحْنَ بخيالِهنّ فى علاقتنا التي نُخْفيها عن العُيون، النّساءُ يعشقْنَ إلقاءَ الاتّهامات التي قدْ تودي بحياةٍ زوجية،

بينما تبقى تبرئة الاتّهام قابعةً في ظلام دامس لنْ تُخرجها إحْداهنّ للنّور حتّى لو كانتْ تعرف أنّها الحقيقة. قالتْ مَن أرادتْه فرفَضَ بسُخريةٍ ممتزجةٍ بغيظ:

– وليد لا يُقاوَم، كيف لا تهتمّين؟!

انطلقَتِ الضّحكات فلمْ يهتزّ جفني، علَتِ الجديّة وجْهي، وقلت:

– أنا لا أهتمّ بذلك الذي تهتَمّون به، أمرُه الذي يعنيكُنّ سأنْهيه حتّى لو وصلَ الأمْرُ لتغْيير مجموعةِ أحمد، أو تغْيير اللّعبة بأكملها.

قلتُها وهممْتُ بالوقوف، فتبادلْنَ نظراتٍ تنوّعت بين اتّهامي بالغرور والكذب، حملتُ حقيبتي وترْكتُهنّ خلفي لأجِدَه شاخصًا أمامي..

– إلى أين؟

قالها وهو يحاولُ أنْ تظهرَ كدُعابة، لكنّها لم تكنْ كذلك، كان قد وصلَ إلى مرحلةِ عشقِ تواجدي طوالَ فترةِ التّمرين، يلتفتُ ليجدني وسْطهنّ، يُشْبع عينيْه بنظرةٍ خاطفة لعيني فأبتعدُ بهما، فهلِ الامْتناعُ هو ما أسَرَه بي؟! أمْ تراهُ يعشقُ ذواتِ العيون الملوّنة والشّعْر النّاعم البنيّ المُنْسدل؟

لم أهتمّ بسؤاله، اكتفيتُ بابتسامةٍ خافِتَة، أكملتُ طريقي وتركتُه خلفي بمشاعرَ خُذلان أثقُ أنّها ستحتلّه، وتركتُهنّ لمشاعرَ غيظٍ وغيرةٍ ستأكلُهنّ وقتًا ليسَ بقصير.

وصلتُ بيتي، ودفعتُ بجسدي إلى أريكتي، والأفكارُ تتنازعُ على رأسي..

- "لا يوجدُ في عالم البَشَر راحة، ولا راحةَ لي في عالم السّكون، البشرُ يضجّون رأسي وصدْري، والوحْدةُ تضجّ قلبي وروحي، وبينهما تائهةٌ أنا في عالم الضّياع".

سحبَ الصّمتُ يقظتي، حاولتْ جفوني الاسْتسلامَ لغفوةٍ لأجدَها تخرج من داخلي تتهادى أمامي، تبتسمُ بشقاوةٍ ودلال.. "حُور جلال" زميلة مدرّج الجامعة، تحوّل جسدي لمصباح علاءِ الدين بلمسةٍ يُخرج لي مَن تَليق بالمُغامرة، ومَن غيرُها التي يُمكِنها أَن تتقابلَ مع وليد في عالم الخيال، لكنْ تراه مَن الذي اسْتدعاها؛ خيالي لأحيى معه قصّة العشق التي تمَنّاها دومًا، أمْ جسدي ليطفئ بداخله شيئًا ما؟

***

هلِ اسْتدعاها خيالي لأحيى معه قصّة العشق التي تمنّاها دومًا، أمْ جسدي ليطفئ بداخله شيئًا ما؟ لنْ يشغلني ذلك طويلًا، كلّ ما يهمّني أنّها خرجت وستسكنُني طالما أريدُها.

امتلكتْ حورُ جَمالًا كنتُ أوازيها فيه، لكنّي لم أكنْ في مرحها ودلالها وهندامِها، جلدني خوْفي فتشَوهتْ روحي وأطفأتْ جَمالي في العيون، دخلت الجامعةَ قطّةً في صندوق أشرف، فلم يسمعْ أحدٌ لُموائي صوتًا، دبْلتُه كانت قيْدًا حرصتُ على عدمِ كسْرِه، ولا حتّى في خيالي.

انْتصفَ الليلُ، وهدأ البيت، لكنّ عيني لم تهدأ بعد، أستعدّ بأدواتي لأغوصَ في عالمِ وليد، الهاتفُ في يدي.. والحسابُ الجديد انتهيتُ من

إصداره، البحرُ خلفيّتي، والصّورة الشخصية غدًا ستكونُ جاهزة، سأتبدّل تحت يدِ مصفّف شعْري بعْد تحويله من بنيّ طويل إلى أصفر قصير، العدساتُ اللّاصقة ستكونُ رمادية، أعشقُ هذا اللونَ وسيناسبني، إمكانية الإضافات على الصّورة ستبعدُها عن شخصي الحقيقي، حورُ تتراقصُ أمامي سعيدة بالمغامرةِ كعادتها.

كانتْ من عائلةٍ كبيرة من عائلاتِ الجيزة الثريّة ذات الأصلِ العريق، اجتمعَ فيها الثّراء والجَمال والدّلالُ؛ فكانت حلمَ الكثيرين، لكنّها كانت عصفورةً حرّة بارعةَ الجَمال، تنظرُ للجميع من مسافةٍ مرتفعة، الحرية التي منَحَها لها والدُها ولم تستغلّها يومًا، بينما أنا مقيّدةٌ بأغلال الخوف كانت موْضَع ألم عميق يدبّ في روحي كحائطٍ يُعاني شرخًا قديمًا يزداد يومًا بعد يوم ولا يعرفُ ليوْم التّصدّع موعدًا، كلّها كانَ يصرخ بشخصية فريدة حتّى ملابسها الحرّة باتّزان، بينما أنا مُكفّنة في ملابس لا تعني سوى الكبْت والإهمال.

ثلاثةُ أعوامٍ جامعة لم تُصغِ لقلب، ولم تلتفتْ لعَيْن، حتّى ظهر فجأة، كابتن طيار إيّادُ السّعيد، تعرّفت عليه في إحْدى رحلاتهم الأسرية الصيفية للخارج، التفتتْ أوّل يوم جامعة من عامنا الأخير لتجدَه أمامها بنظرةِ حبّ ووردة حمراء وابتسامةٍ تحمل شغفًا. تراجَعْنا للوراء لنفسحَ له الطريقَ، وتركْناها لكيوبيد الحبّ ليُلقي سهمَه في قلبها بعد طول محاولات، نظرةُ الحبّ التي سرَتْ بينهما شعاعٌ اخْترق سكونَ قلبي فضَجَ بشوق، تمنّي مفاجأة ووردةَ حبّ حمراء ونظرةَ شغف، بحثتُ عن أشرف فلم يصْغِ لقلبي المتلهّف؛ بل ألقى على عاطفتي رمالًا أسكتت ظاهري، بينما ظل صراخي

الدّاخلي واحْتياجي مُشْتعل، غاصَ فقط في الأعماق، ويبدو أنّه يتأهّب للطّفو الآن.

تركتُ الأولادَ أمام باب النادي، واتّجهت لأنهي صورتي الجديدة. صوتُ مجفّف الشّعر ذكّرني بيوم زفافِ حور الأسطوري، فبالرّغم من كثرة الورودِ الزهريّة والبشرية، إلّا أنّهَ لم تكنْ هناك إلّا وردةٌ بيضاء واحدة، حور ببساطتها ورقّتها في فستانِها البديع المطرّز، وطرحتها القصيرة الملتفّة حول شعْرها الأصفر، إياد في بدلِته كأوركيدة سوداء طاغية الجَمال، كانا كوَرْدتيْن تعانقتا ففَاحَ عطرُهما يملأ الأرْجاء، أخذ يدَها برقّة ولفّها حول يده، تلفّتّ حولي لأتقابل ووحْدتي، وألفّ يدي حوْلها، فلم يكنْ أشرف ليكلّف نفسَه عبْء التقرّب من جاريةٍ امْتلكها بدبْلةٍ انتقلت من اليد اليُمنى إلى اليُسرى بعْدَ عقْد قرانِنا اسْتعدادًا لزفافٍ اقترب، بل زادَ برفْضه لحُضوري وسانده أبي، حسام هوَ مَن ذلّل لي تحدياتِها، ومنحَني فرصةً ألتقطُ فيها بضعَ أنفاسٍ بين صديقاتي بعيدًا عن أيّ سطوة.

– اسْتمتعي بوقتِك، اطْلبيني عندما تُريدين الانْصراف، سأكونُ قريبًا.

قالَها وانصرف، كنتُ الوحيدةَ بين زميلاتي المعقودُ قرانُها، لكنّها دونَ رجُلِها، فالتبَسَ أمري على أصدقاءِ إياد، تطلّعت ليَ العيون بين راغبٍ وخاطبٍ، فتعثّرتُ في خجَلي وخوفي، وألقياني على منضدةٍ لم أتركْها طيلةَ الحفل، راقبتُ رقصتَها التي كانت كمشهدِ حبٍّ في فيلم رومانسيّ، تدفّقت لحظتَها دماءٌ تعصرُ قلبي، خرجتْ كتنهيدةٍ من صدري، لم أعرفْ وقتَها هل كانت تلك التّنهيدة تذمّرًا، أم رغبةً لم تتحقّق قطّ.

تمنّيتُ دومًا أنْ أكونَها، لكنّه كانَ تمنٍّ يضيع في فضاءِ الكبْت والخوف العميقيْن، خوفٌ مِن خذلانِ أمٍّ لا تعرفُ عمّا يجول في صدْر ابنتها شيئًا، وكبتٌ مِن سوطِ وسطوةِ أبٍ، وخوفٌ أكبر من زوجٍ بطعْم التخلّي.

لم أدخلِ النّادي، انْتظرت أولادي أمامَ بوّابةٍ جانبية حتّى لا يلحَظْني أحد.

- كابتن وليد سألني عنْكِ.

قالَها أحمد وهو يجلسُ بجانبي، ويربطُ حزامَ الأمان، نظرَ لي بضحكةٍ صبيانيّة مستترة أعرفُ مصدرَها، قبّلته من رأسِه، ثمّ انْطلقت دونَ أيّ ردّ، وما الذي يمكنُ أن يُقال! تناولنا عشاءنا مع ابتساماتِهما على تغْيير شكْلي الذي أعجبَ طفولتَهما الرّقيقة، وحكايات النادي التي لا تنتهي ليتحوّلا بعد قليلٍ إلى دميَتَين تتحرّك جفونُهما رغمًا عنهما ليسقطا في نوم عميق، وقفتُ أمامَهما لدقائقَ وعيني معلقة على براءتِهما لأنَبّه نفسي قبل أَنْ تخطفني حور داخلَ بُحيرتِها؛ أنّني ما زلتُ حسناء، حتّى لو كنتُ مُمتزجةً بقطعةٍ من مريم، أخافُ أن يختلطَ أمْري على نفسي فأؤكّد لها، أخافُ أن أفقدَ دليلي إليها في وسط طريقٍ يدْعوني كأسْطورة القمر المُكْتمل فأتحوّل معه ذئبًا لا يلتهمُ إلّا قلوبَ ومشاعرَ الرّجال لأغذّي مشاعري، أحمد وآلاء هما فقط دليلي إلى حسناء، وأنا لا أريدُ أنْ أفقد الدّليل، سأطرقُ عالمَ وليد بحور التي تتأهّب للصعود، وأنا لا أدري ما الذي سيحدث.

***

لا أدري ما الذي سيحدُث، لكنّي مستمرّة في طريقي، حقًّا بحرص شديد وخُطى أحاول ألّا تقودني للسّقوط المدوّي، لكنْ ما زالتْ تشغلني كيفيّة الإقْتراب دون أنْ يساوره الشكّ في شخْصي، لن تجدي معه فكرةُ متابعة صفحتِه والتّواجد المستمرّ، سيشكّ.. وستكونُ فضيحةً لن أرضاها لنفسي ولا لأوْلادي وأخي؛ أمّا أشرف وأبي فصدقًا كمْ أتمنّى أنْ أعرّضهما لتلك الإهانة التي سأعتبرُها نصرًا، كما أنّي لنْ أستطيع اقتحامَ خاصّته، الطريقُ إلى وليد يجبُ أن يكون ملتويًا، لكنْ ما هو؟

حور تناغشُ مخيّلتي ذهابًا وإيابًا، تُلاحقني دعاباتُها وشقاوتُها أينما ذهبت فلم تعدْ تتركُني، صورتُها في مرآتي، وصوتُها في أذني، حبّها لإياد وعشقُها لقربه اللّذان جعَلاها لا تخجلُ مِن سرْدِ تفاصيل شخصيّة لا يجوز ذكْرُها وهي تضحَكُ فتتوهّج وجْنتاها، وتلمع عيناها ببريقِ نشْوى واسْتمتاع، زارتني لتهنّئني بعد زفافٍ اكتفى فيه أشرفُ بحفلٍ بسيط كأنّي عزْباء، كان حفلًا قاتمًا كحياتي قبْلَه ومعَه، فلم أستطعْ دعوةَ زميلاتي، ولم يعترضْ والدي، وجَدَتني شاحبةً باهتةً، فتعجبت قائلة:

– هل هذا منظرُ عروسٍ تمّ زفافُها منذ أقلّ من شهر؟!

أرخيتُ جفوني على عيني لأستُرَ حسْرتي، ورفضتْ شفاهي الكتومةُ البوحَ بالزّواج من وغدٍ يُعاملني كقطعَةِ لحم ينهشُها، وما أنْ يكتفي إلّا ويلقي ببقاياها دونَ أدنى اكْتراث. حاولَتْ يومّها نُصْحي بما يدلّ عنْ كوْنها امرأة عاشقة،

لكنّها لم تكنْ تعلمُ أنّ نصائحها لا تعْني إلّا أنْ أجعل الوغدَ يلتهمني أكثرَ.. لا أكثر، لم أرَها بعدَها؛ فسجّاني الجديد كان قد أحْكَم سجني، وحدَها الاتّصالاتُ الهاتفيّة هي التي لم تنقطعْ بيننا إلّا عندما رحلتْ للخارج وتركتْ خلفَها ألمًا كبيرًا.

لم أعدْ أتركُ على صفحةِ وليد شاردةً ولا واردةً إلّا وأتابعُها، عضوٌ هو في أكثرَ من جروب، فنفَثَ الشّيطان في أذني بالفكرة، تقدّمت لهم جميعًا بطلباتِ انْضمام وقُبِلت، لفتَ انتباهي انْتظامُه في التّعليق على جروب رحلات يسافر معهم دومًا، تواجدتُ على الجروب بتعليقاتٍ تقترب من تعليقاتِه في بعض الأحيان، وتهاجُمها في البعض الآخر، الأمرُ يحتاج وقتًا أكثر ممّا سبق، وتمهيدًا أقوى، وصبرًا أعمق.. صورتي بالشَّعْر الأصفر والنّظارات الشمسية مع ضحكةٍ مثيرة جعلتْ منّي فاتنةً لا توجد بداخلي، حتّى جاءت اللّحظة التي انْتظرتُها شهورًا، تعليقٌ مخالفٌ لرأيه جعلَه يتبادل معي الحوارَ ليُقْنعني، المعترض دومًا يجذبُ الأنظار عن الموافق، فقدتُ طُهْري ونقائي، ومرضتْ روحي، وتحوّلت إلى ذئب متعتُه الوحيدةُ سحبُ الفريسةِ إلى وَجَاره، أشعُرُ بزهو وأنا أحقّقه، أشعرُ بأنفاسه تقترب من وجهي، لكنّي حقًّا ما توقّعت سرعَةَ الاسْتجابة! تلقّيت أوّلَ رسالة، والتي بدلًا مِن أن تكون ثمرةَ متعتي؛ كانت صاعقةً أرجفتْ قلبي.

- تغيّر موعدُ التّمرين مِن الرّابعة إلى الخامسة لظروفٍ شخصيّة.

هدمَ الذّهولُ والخوفُ قلبي بمعْوَلين بلغا من الضّخامة ما لا أحتمل، أصابني غثيانُ المفاجأة فقرأتُها أكثرَ مِن عشرين مرّة، وأنا أدورُ حولي في

حجْرتي.. هل عرفني!؟ يا لَلْكارثة! ما الذي يقصد! فكّرت في التّراجع، لكنّي عُدت، التّراجع قد يثبتُ شكًّا، الهجومُ هو أقربُ طرقِ الدّفاع، تعلّمت هذا من زوجي المهاجم بدرجةِ مُقاتل، نجحَ في الهجوم على روحي فدمّرها..

- أيّ تمرين؟

تلك كانت رسالتي، كلمتان فقطْ ولم أزِدْ، سأعرفُ مِن الرّد ما يقصد.

- عذرًا، الرّسالة وصلتْكِ بالخطأ.

هل أخطأ بالفعل؟ أم أنّه شكّ في شخصي، وأرادَ التّأكّد؟ أم أنّها مجرّد حيلة لاخْتراق خاصّة رسائلي، بشكلٍ مقبول ومهذب؟

- لا عليك.

لم أزدْ عنْ كلمتين، فالشكّ حصادُ زراعة، وأنا لن أزرعَ ما يُنبت شكَّه، لو أرادَ اقْتحامي فسيُكْمل ولنْ ينتهي عندَ هذا الحدّ، وهذا ما حدث..

- ظننْتُك والدةَ أحدِ متدرّبيني في النادي، اختلطَ عليّ الأمر.

فتحَ وليد البابَ الذي طرقتُه بخفّة، تأهّبت للمرور فلمحْتُ وجهَ شيخي يلومُني، روحُه ما زالت تَسكنُني.. تُخجلني من نفسي وقبْحِها، لكنّى لم أكنْ قد ارْتقيَت بها لأتركَ ما أردت، ألمْ أذكُر من قبْل أنّي قدْ أصبحتُ غانيةَ مشاعر! أمتصّها كما يمتصّ النّبات أشعةَ الشّمس فيزداد اخْضرارًا حتّى وإنْ كان مؤقّتًا، وحور بعشقِها كانت قد دبّت لهيبَ الرّغبة في أوْصالي، فلم أستطعْ إلّا أنْ ألقي إليها ببعض الحطب.

- فتاتي في الثانيةِ مِن عُمرها، ما زالتْ صغيرة. (ثمّ أرسلتُ رمزَ ابتسامة)

- اسمُ والدتِها حور، أثقُ أنّ اسمَها جنة. (وبادلني الرّمز)

منحني ابتسامةً حقيقيّة منذُ وقتٍ طويل لدعابتِه الرّقيقة، جسدي كلّه ينجذبُ نحْوه، أشعرُ بقشْعريرةٍ مُمتعة لم أعتَدْها تسري في أوْصالي، وتدفع دماء الرّغبة التي توقّف جريانُها في خلاياي مع كلّ رسالة يرسلها.

- صدقْتَ، لم يبتعدِ اسْمُها عن الجنّة، اسمُها أفنان.

كانتْ حور بالفعل قد أنْجبتْ فتاةً جميلة كأمّها أسمتها أفنان. أرسلَ لي رمزَ ضحكاتٍ متكرّرة قبل أن يرد:

- لا تقولي لي إنّ والدها اسمُه رضوان؟

دعاباتُه تخطفُ روحي، وترسلني إليه، يعيشُ الحياةَ ببساطة دون تعقيدات.

- لا، ليس هذا اسمَه، وهو لا يمتّ للجنّة بِصِلة، كان زائرًا مِن الجحيم انْخدعْنا به، فطردْنَاه مِن جنّتنا.

بالفعْل تحوّلت زيجة حور وإياد بعد فترةٍ إلى جحيم فعْليّ خشيتُ معه أن أكونَ قد حسدتُها دون أنْ أشعرَ، لكنّي أقسمُ أنّني ما تمنّيت لها- ولا لغيرها- يومًا إلّا الخير. كثرتْ علاقاتُ زوجها النّسائية وهو ينتقلُ من بلدٍ إلى بلد، زادتِ الخلافاتُ بينهما، وخاصمَتِ السّعادة بيتَهما، زادتِ المأساة عندما تعرّف إياد على فتاةٍ أجنبية شابّة أوقعتْه معها في الإدْمان، فتحوّلت حياتها إلى معزوفةٍ حزينةٍ، داومتْ حور على الاتّصال بي في ذلك الوقت لنعزفَها معًا،

هي تذرفُ دموعَ حسرتها على الحبّ الذي مات صبيًّا، وأنا أذرف الدّموع على حبٍّ لم يولَد، بل أُجْهِض فوْرَ تكوّنه في خيالي وحْدي، ولم يعاني آلامَ سقوطِه غيْري، يا لَتعاسة أمنياتِ الحبّ الصادمة!

- لا أعرفُ كيف يمكنُ لرجلٍ أنْ يحظى بامرأةٍ في مثْل جَمالك، ثمّ لا يتحوّل إلى ملاك، حتّى وإنْ كان في الأصل شيطانًا؟!

الآنَ فهمْت! يعشقُ الجَميلات، يا لَتلك السّتائر المُعْتمة التي تحجبُ رؤيانا عن البشر، فنعرفُ عنهم ما جَهِلنا، تحدّثنا ذلك اليومَ حديثًا طويلًا على شخصيْن تعرّفا منذ ساعات، كلّما حاولت إغلاقَ بابِ الرسائل فتحَها بطريقةٍ ذكيّة، بأسلوبٍ شيّق جعلني أشعرُ بانْتعاشٍ بعد انْكماش، تورّدٍ بعد شحوب، ابتسامةٌ لا تنقطع تداعبُ شفتي، حالةٌ من الاسْتمتاع غير المَسْبوق جعلتني أقفُ بعْدَ انْتهاء رسائلنا أمام مرآتي لأوّل مرّةٍ أتفحّص جسدي ومفاتنَه التي دفنَها أشرفُ في تابوتِ أنانيتِه العَفِن، أُدقّق في لوْن بشرتي الورديّ، شَعْري الغزير، وعيني التي- ولأوّل مرّةٍ- يظهرُ بها نجمٌ لامع، إحساسٌ غريب يغزوني، كدودةٍ تشرْنَقتْ طويلًا.. ثمّ تحوّلت لجَمالٍ بعد قُبح، لحريةٍ بعدَ اخْتناق، لبراحٍ بعد ضيق، لرفقةٍ بعد وحْدَة، لكنّي ما زلتُ أحذرُ أنْ أقتربَ من النّور أكثرَ لئلّا أحترق.

لنْ أقتربَ من النّور أكثرَ لئلّا أحْترق، فعلاقتُه بي توشكُ أنْ تتحوّل إلى نار ستلتهمُني بعد أنْ عرفَ أنّي بلا رجل، فقد طُلِقت حور عندما حوّل الإدمان "إياد" لرجلٍ غير الذي عرفتْه وأحبّته، إياد.. الذي كانتْ تستعدّ لمجيئه بكلّ ما تمتلكُ مِن طاقةِ حبّ، وبكلّ ما يحمل جسدُ امرأةٍ من أنوثةٍ؛ أصبحتْ تخْشى من طرقةِ يدِه على بابها، استوْلى على مَصاغِها وكلِّ ما استطاعتْ يدُه أن تمتدّ إليه، حتّى امتدّت إلى وجْهِها، صفعَها وصفعَ حياتَها معًا، أصبحتْ شاردةً حزينةً تبحثُ عنْه فلا تجده، هاتفتني يومًا وهي في حالة انْهيار واحْتياج له، لم أتخيّل أنّها يمكن أنْ تصيبَ امرأةً، لم أعرفْ أبدًا أيّنا كانتْ أفضلَ حالًا، مَن ذاقتْ وحُرمت.. أمْ مَن لمْ تذُقْ وعاشتْ تتمنّى؟!!

رفضّ طلبَها للطّلاق حتّى ساومَه والدُها، ونجحَ في تخليصها منه بمبلغ ليس بقليل، لكنّه ما لبثَ أن أنْفقه، وعاد يهددُها بانتزاع ابنته، لم أتمنّ يومًا والدًا إلّا كوالِدِ حور وهو يقفُ وراءها وأمامَها كأسدٍ يحمي عرينَه، يدافع عنْها وعنْ سعادتها بكلّ ما يملكُ مِن وقتٍ ومالٍ وحبّ، فأين أنا وأبي منْهما! قالت لي يومًا بكلّ أسى وألم:

- الرّجالُ كالنّار ترينَها من بعيدٍ نورًا ودفئًا، أمّا مِن قريبٍ فشَرَرٌ وسعير.

لم يهدأ لوالدِها بالٌ إلّا عندما قبضتِ الشّرطة على إياد وبحَوْزته كميّة من المخدّرات أوْدتْ به خلفَ الأسوار، فاستنشقَتْ حور هواءَ الحرية، وامتلكتْ أمرَ ابنتِها، وعادتْ للطّيران.. لكنْ ليس ذي قبل، جرحت الحياة

أجنحتها الرّقيقة فخدشتْ ألوانَها الصافية، فحمَلَها أبوها على جناحيِ القوّة وطارَ بها خارج البلاد، ولم أعرفْ عنها بعدها شيئًا.

الرّسائلُ بيننا لم تعدْ تهدأ ليلًا أو نهارًا، يرغبُ وليد دومًا بالمزيد، يحرّك داخلي كلّ ساكنٍ وجافّ، كلّ ما ماتَ منّي وصلّيتُ عليه، متواصلٌ معي طوالَ الوقت، أعرفُ أين هو.. ولماذا، يعرفُ أين أنا.. وماذا أفعل، منَحني ونَسًا وأنسًا بعد وحدةٍ وفراغ، اندفاعُه نحْوي حفّزَ طيشًا لم أعلمْ بوجودِه بداخلي للنّهوض من غفوةٍ ثقيلة، اعتنيتُ بكلّ تفاصيلي؛ شَعْري، مكياجي، ملابس جريئة طوالَ فترةِ تواجدي بغرفتي، إكْسسوارات لم أرتدِها فظلّت حبيسةَ أدْراجي؛ خرجتْ مع خروجي من قوْقعتي، لنْ يراني.. لكنّي أرى نفسي، وأريدني لؤلؤةً متدلّلة، ازدادتْ ثقتي بنفسي.. لكنْ ضعفتْ إرادتي.

لمْ أستطع الرّفضَ عندما اتّصل بي فأعلنَ خروجَ علاقتنا من مرحلة الرّسائل الضيّقة إلى مرحلةٍ أوْسع، أجبتُ لأنّني أشتاقُ لهمْس كلماته، لم يكنْ صوتي منَ النّوع المميّز فلمَ يلتفتُ للأمْر! منعَه العشقُ من التفكير، نسي حسناء معي كما نسيتُها معه، أحاطني بحديثٍ لا يتوقّف عن مغازلتي، همسُ الحبّ يقطُرُ عسلًا من بيْن شفتيْه، مع القليلِ من العبارات الجريئة التي لنْ أنْكِر أنّني كنتُ أحْتاجها، أكفّ عن الردّ ولا أتجاوبُ معه حين يقولها، أخشاها نعم.. لكنّها كانتْ تذكّرني كوْني امرأة، عشتُ معه مرحلة الخطوبةِ التي تمنّيتها مع التّمثال الذي تزوّجته فحوّلني لحصى وحجارة لم يستطيعا منعَ مياه الرّغبة التي تندفعُ بداخلي الآن من التدفّق، تحوّلت بين يديْه إلى قطعةِ عجينٍ ليّنة يسهُل تشكيلُها، ملكني ومَلَكَ شغافَ قلبي

فنسيت إلّا أنّني حور، تلاشتْ حسناء الجافّة المعقّدة بما تحمله من مريم الحزينة من داخلي، حتّى أحلامي امتلَكَها فلم يترك جواري فيها لحظة.

– لم أعدْ أفكّر في شيء إلّا أنتِ، سلبتِ قلبي وعقلي فلم أعدْ هنا، أنا هناك عندَك لا أتمنّى إلّا أن أكونَ بيْن يديكِ، ألقي برأسي على صدرك وأنسى مَن أنا، وأنسيكِ من أنتِ..

قالَها وليْتَه يدري ما يفعلُه بي، أنفاسي الصّامتة تعلو، تتمنّى شفاهي أن تلمسَ كلماتِه فوْرَ خروجها على شفتيْه، وتقولُ ليتَك تنْسيني مَن أنا، حرارة الشّوق تندفعُ في أجْزاء جسدي تحفّزها للنّهوض وأنا أحاولُ إخمادها، أفقتُ مِن خدْرِ كلماتِه، وبابُ غرفتي التي أصبحتُ سجينتَّها مِن أجله يدقّ لتستأذنني أنوار في الدّخول، وبصوتٍ خفيض قالت:

– والدةُ الأستاذ أشرف بالخارج.

اعتذرتُ له، أصرّ أنْ يعرف ما في الأمر، أخبرتّه بأنّ الزائرة والدةُ زوجي السّابق، استشاطَ غضبًا...

– ماذا تريد؟

– تأتي بين الحينِ والآخر لزيارة حفيدتِها يا وليد.

امتعضَ قليلًا قبل أن يقول:

– حور، كلّميني فوْر انتهائك من لقائها.

أنهيتُ حديثَنا، ألقيتُ بجسَدي على سريري لتهدأ نارُه التي أشعلها، ولينْخَفض صوتُ دقّات قلبي التي كانتْ قد وصلت لذرْوتها، لماذا جاءت في

ذلك التّوقيت؟ هل هذا جرسُ إنْذارٍ أرسلَه الله لينبّهني مِن تعرّج مساري؟ وهل سأستجيب؟

خرجتُ إليْها والدّهشة تنعقدُ على وجْهي، ملامحي كلّها لا تصدّق وجودها، فطيلةُ ما يقرُبُ من اثني عشرةَ سنة لمْ تزُرْنا أمّ زوجي إلّا ثلاثَ مرّات؛ مرّة بعد ولادتي، ومرّة بعد مرض شديد ألَمّ بأشرف، والمرّة التي اتّصلتُ بهم لأخبرَهم أنّي وأشرف سننفصلُ فأتتْ مُسرعة هي وأبوه، فتعاملّ أشرف مع الأمرِ وحوّلها لعزومة عَشاء مفاجئة، فلماذا أتَت؟ إنّها امرأة ذاتُ طبيعةٍ خاصّة، معتزّة بنفسِها اعتزازًا شديدًا وصلَ حدّ الغرور، تعالج كلّ الأمور بمعيار ماديّ، كبرياؤها أعلى مِن أن تكون قد أتتْ لتحدّثني عن ابْنها، لكنّي حقًّا.. ومعَ كلّ هذا لم أسمعْ منْها يومًا كلمةً سيّئة في حقّي من أمامي أو مِن خلفي، احْتضَنَتْني فوْر خروجي مع ربتةِ كتفٍ شعرتُ أنّها تضجّ بالحديث، نظرتْ لوجْهي وشعْري المصْبوغ وعدساتِ عيني؛ نظرةً متأمّلة، لم يكنْ مظهري يبدو عليه أيّ ضيقٍ أو حُزنٍ لفراق زوج، توقّعتْ أنْ تجدني مهلهلةً في ثيابِ الخادمات، أبْكي رجلًا ليس برجلٍ، وحياة ليست بحياة!

- ما الأمرُ يا حسناء! طالتْ فترةُ تباعدِكما، ولا أجدُكِ تهتمّين!!

قالتْها وهي تنظرُ لي ولثيابي، سادَ صمتٌ لا تريدُ فيه إحْدانا التنازل، جاءت أنوار بالشّاي، ووضعتْه ثمّ غادرت، اتّجهتْ بنظرِها نحوَها.

- تبدو عليها الطيبة.

- هي كذلك، لم أعدْ أتخيّل يومي بدونها.

وكأنّ هذا ما كانت تريدُه، فقالتْها بتؤدةٍ وهدوء، وهي تمدّ يدَها لتسحب فنجانَ الشّاي، وترتشفُ منه رشفة:

– وتتخيّلين يومَك بدون أشرف؟

رَفعتُ عيونًا يملؤها تحدّ لم ترَه مِن قبْل لأواجِهَ عينيها:

– نعمْ أتخيّله، وأستمتعُ به، ولم أعدْ أتخيّل غيرَه.

ذُهِلتْ مِن وقْع ردّي الذي بدا جريئًا على حسناء الدّميةِ الجميلةِ ذاتِ العيون الخَضراء والشّعرِ البنيّ التي اختارتْها ليلعبَ بها ابنُها لعبةَ الحياة، تنتهي بها كما تنتهي؛ ممزّقة، مخيطة بغُرزٍ واسعةٍ أو ضيقة، فقدت جزءًا من أجزائها، أمْ كاملة لكنّها مخدوشة ومجروحة، لا يهمّ.. المهمّ تسليتُه! فتلعثمت.

– كيفَ هذا؟ هل وصلَ الأمر لهذا الحدّ! تخيّلته خلافًا أنْهَك أعصابك وسينتهي حتمًا بعودةِ أشرف لبيتِه وأولاده.

رجعتُ بظهْري للخلفِ لأسندَه على الأريكةٍ في لامبالاة أدهشَتْها.

– الخلافُ هو مَن أنْهَك أعصابي، أم صاحبُه؟

احتدّت نبرتُها وهي تعلّق على كلماتي التي اعْتبرتْها تحديًا كبيرًا..

– وما الفارق؟

– الفارقُ كبير، الخلافُ يكون بين اثنين، لم يكنْ هنا قبل رحيله أيّ شيء بين اثنين، كان هو فقط.. في كلّ شيءٍ كان هو فقط..

ثمّ كرّرتُ آخرَ كلماتي بعصبية.

أطالتِ النّظرَ لملامح وجْهي الباردةِ فأصابَها الاهْتزاز لأوّل مرّة، ألحظه على وجْهِها لكنّها تحاول إخفاءه..

- لكنْ هل يمكنُ أن تستمرّ الحياةُ هكذا، هو بجانب وأنتِ والأولاد بجانب، أشرف عنيدٌ كما تعرفين، هو إلى الآن يُنفق كما لو أنّه هنا، أخشى من تغيّر موقفِه مع طولِ عِنادك.

التّهديد! أوّلُ نقاشٍ حقيقيّ يدورُ بيْننا منذُ زواجي، أسقطتِ القناعَ الدّبلوماسي.. وظهرَ الوجْهُ الحقيقيّ، إنّها أشرف بكلّ ما يحملُه من أنانية وسطوةٍ وتجبّر وتكبّر وتهديد، حقًّا الأمُّ هي مهْدُ كلّ شيء، إنْ صلح المهدُ كبرَ الطّفل مع طمأنينةٍ له ولَمن حوْله، وإنْ ساءَ المهدُ أخرج شيطانيّته له ولَمن حوله.

- هو يعلمُ ما أريدُ، ويرفضُه رفضًا قاطعًا، إنْ أراد فليحقّقه، ومعه ما يريد أنْ يمنعَه، كلّ ما يريد.

احْتقنَ وجْهُها، وازدادَ حنقًا عرفتُ منْه أنّ هذا ما لم يرسلْها أشرف من أجلِه؛ لكنّ كِبرَها هو مَن أوْصل النّقاش لتلك النّقطة التي لا يريدها سواي، اقتربتْ منّي قليلًا وهي تضعُ كفّها على كفّي بحنانٍ زائف اصطنعتْه لتهربَ من حائطِ التّصادم الذي دخلتْ فيه لتوّها:

- ليس هكذا تُدارُ الأمورُ في الحياة الزوجية.

لم أمهِلْها لتكمل، فعاجلْتُها بسؤالي:

- وكيف تُدار؟

ثمّ أرسلتُ لها نظرةَ سخريةٍ وامْتعاض، أعرفُ أنّ أشرف أرسلها لتمكّنه من العودةِ باللّين، لكنّها اختارتْ طريقَ التّهديد الذي أفسدَ طريقَهما، أسندت رأسي على كفّي أنتظرُ محاضرةَ إدارةِ الحياة التي لم تنجحْ فيها فأنتجتْ أسوأ ما يُمكن أنْ تقدّمه أمٌّ للبَشَرية، لم تستطعِ اسْتدعاءَ حسناء دميتَهما الصّغيرة، فقالت وهي تهزّ رأسَها، وترفع حاجبًا عن آخر.

- تغيّرتِ يا حسناء!

***

تغيّرتِ يا حسناء! قالتْها ثمّ سَرَحت طويلًا وهي لا تستطيع النطقَ بالأحرف التي جاءتْ بها فأبقتْها في فمِها، يا لَلْكِبر الذي يُزلزلُ علاقاتٍ ويحطّم أسرًا ويهدمُ سدودَ الصّبر لتغرق الحياةُ بفيضان العناد، استأذنتْ بالرّحيل بعد جلسةٍ قصيرةٍ مع أحمد وآلاء التقطتْ فيها أنفاسَ فشلِ المحاولة، أرى على وجْهها التّساؤلَ الذي سيطرحُه أشرف، كيف دارَ الحوار.. ولماذا فشلتْ فيه؟ سعيدةٌ أنا لكوْني أصيبُ الآن كلّ مَن جرحني في مَقْتله، البَشرُ لا يهابون مَن يعطي؛ بلْ يهابون مَن يبْخَل، كنتُ كالذبيحة المهيضة وسطهم يتناوبون نهشي، كلّ مَن أراد قطعةً أخذها، الآنَ جاء دورُ الذبيحة المترنّحة لتسمّم أجسادَهم بما نهشوه، والله وحدَه هو من يعلم متى سأنْهار.. وكيف! كلّ ما أصبح يعْنيني كرامتي وسمعتي من أجل أولادي، بعد أنْ أصبح وليد

وهمسُه إدمانًا يسري في جسدي، فلا أنا أقوى على ابْتعاده لكنّي أخشى من اقترابه، أشعرُ أنّه شررُ جهنّم سيتطاير ليحرقني، وأنا سأستمتعُ بالاحتراق.

لم أصطحبْ شيطاني في جلستي معها، أعرفُ أنّ "وليد" لن يكفّ عن الرّسائل التي ستثير شكوكَها فينقلبُ أمْري من غالبٍ لمغلوب مرّة أخرى، فتحتُه بعدَ انْصرافِها لأجدَ أكثرَ من عشْرِ رسائل ومكالمات..

– وليد.

لم أتلقّ ردًّا، وهذا ما لم أعتَدْه، كان في السّابق كمَن يجلس خلفَ باب الرّسائل، يردّ فوْر وصولها، أشعرُ بغضبِه..

– أينَ أنت؟

تلقّيت اتّصاله الذي زادَ حنينَ روحي؛ لأنْ يكون هذا الرجلُ رجلي، فهَمَس:

– أين أنا! أتمزّقُ من أنْ تكون زيارةُ والدة زوجك مبادرةَ صلحٍ تُلقين بي بعدَها خلفَ ظهْرك، وقتَها سأكرَهُك بقدْرِ ما أحبَبْتك.

– ما تقوله مستحيل، لن يحدث.

– أنتِ لا تعرفين مدى حبّي لكِ، ورغبتي فيكِ.

قالَها بنبرةٍ أسرتْ حمَمَه في جسدي، فأشعلتْه.

– أنا أيضًا أحبّك.

- وتريدينني كما أريدُكِ.

سرتْ كلماتُه القليلة مع دمائي كالخدر، نبشتْ بداخلي فأخرجتْ غريزة ظلّتْ حبيسةَ جوانبي فانْطلقت، جرفتني نعومةُ كلماتِه في علاقةٍ هاتفيّة مُتبادلة كما يبتلعُ البحرُ رمالَه المشتاقة لهدير أمْواجه، ابتلعني في دوّامة اسْتغرقت أكثرَ مِن نصفِ ساعةٍ لم أسمع فيها إلّا صوتَه، ولم أشعرْ فيها إلّا بلمسةِ جسدِه لجسدي كحقيقةٍ من فرْطِ إحساس الكلماتِ لتصيبني رجفةٌ محمومةٌ بذرْوَة الاشْتعال.

أفقتُ على نبْضِ قلبي يعلو.. وأنفاسي تلهث، احتقاري لذاتي سالَ دموعًا رغمًا عنّي، حاول تهدئتي، حاول كثيرًا أنْ يُفْهمني أنّ ما حدث أمرٌ عاديّ بين مُتَحابين.

- لا تحمّلي الأمرَ فوقَ ما يَحْتمل، لم يحدثْ شيء لكلّ هذا، أعشقُكِ كما تعْشَقيني.

لم أردّ، أغلقتُ الهاتف، وألقيتُ به جانبًا، ذلك الجنيّ الذي خطفني للجحيم، ذلك الماردُ الذي يلبّي رغباتي، لكنّه يتغذّى على سلامةِ قلبي، ويرتشفُ براءةَ روحي وأنا في استسلام.. جلستُ على سريري القرْفُصاء أغطّي وجْهي بكفّي غيرَ مصدّقةٍ ما صار إليه حالي، صراخي تساءل...

- مَن تلك التي كانت؟ ومَن تلك التي ستكون؟ مَن أنا؟ حسناء بضعفِها وانْهزامها.. أمْ مريم بحزنها وأساها.. أمْ حور بخزْيِها وعارِها الذي حدث للتّو؟ كيف سأقابل وجْهي في مرآتي؟ كيف سأنظرُ في عيون أولادي البَريئة،

آخرُ ما توقّعت أنْ أكون ما أنا عليه الآن؟ ثلاثةُ أطياف تلاقتْ لتصنعَ قبْحًا يزدادُ تشوّهًا يومًا بعد يوم.

لم أشعرْ إلّا وأنا ألقي بكلّ ما تصلُ إليه يدي على صورتي في المرآة التي لم تتحطّم، وأصرّت على أنْ أراني بوضوح، هرول أحمد وآلاء، وأسرعا بالنّداء على أنوار، فاتّصلت بأبي وأنا أتهاوى، سمعتُ بعدها أصواتٍ تختلطُ، وصفارات ونداءات، وخزٌ في يدي أطفأ كلّ الأنوار في عيني إلّا نور شيخي، رأيتُه يلومني ويعنّفني، رأيتُه ينصحني ويحدّثني، رأيته يدعو لي بالهداية وصلاحِ الحال والغفران، لكنْ.. أين أنا ممّا يدعو لي به! أين أنا من صَلاح الحال!! حالي يسوء يومًا بعد يوم، أدورُ في ساقية لا تضخّ ماءً، أظمأ فأرتوي من ماءِ غيري ظنًّا منّي أنّه سيرويني، لكنّه ما يلبث أن يغرقني في ظلماتِ غضبِ الله، بينما مائي الحلالُ سراب، ساقية لا تسقي حرثٍ فأجوعُ لأشبعَ جسدي بحرام لا تقْوى نفسي عليه، والحلالُ لا يسمنُ ولا يغني من جوع.. متى ستتوقّفً تلك السّاقية، ألا مِن قلبِ رحيم يحلّ عنّي رباطي الذي ربطني بها قبل أنْ أسقطَ فيها مكبّلة؛ فأغرق؟!

سأسقطُ مكبّلة في ساقيتي.. فأغرق كما أغرقُ الآن في عالم الأطياف، وخزةٌ وراء وخزة تنقلني من عالمٍ إلى عالم، حسناء ومحمد حبّ قلبي الطّاهر، مريم وشيخها محمود بصفائه ونقائه، حور ووليد برغباته وولَعِه الذي أزال عنّي طُهْري، لم يسحبني من بئري المُظلم إلّا أياديهم الصغيرة التي ما إنْ لامستْ يدي إلّا ودبّ في قلبي نبضُ أمومتي فعرّفتني، أفقتُ أتلمّس نظراتِ عيونهم البريئة علّها تغسل داخلي بحنان وحبٍّ طفوليّ وتعيدَ لي طُهْري.. رفعتُ رأسي لأجدَه وراءهما بنظرةٍ لم أعتَدْها، يحملُ بين يديه ورودًا اشْتقتُ لها عمرًا جاءت الآن عزاءً على رفات روحي.

- حمدًا لله على سلامتِك.

قالَها أشرف وهو يمدّ يدَه بالورود، أدرتُ وجْهي بعيدًا، وسالتْ من عيني دموعٌ لم أعرفْ منبَعَها، فهل أتتْ من بئرِ الحِرْمان الذي فاض، أم أتتْ من بئرِ الخيانة الذي حفرَه وليد بداخلي؟!

- أعرفُ أنّي أخطأتُ كثيرًا في حقّك، أعرفُ أنّي أهملتُك، وعاملتُك كجاريةٍ لا أكثر، أعتذرُ.. لا لنعود؛ لكنْ لتعودي.

غرقتُ في صمتي وعجبي، أعود! مَن التي ستعود؟ تاهتْ منّي حسناء البَريئة وضلّتِ الطريق، فهل خرجَ من غيبوبته بعد أنْ دخلتُها أنا! هل كان يجبُ أن أضلّ ليهتدي، أنْ أتوهَ ليعود!! ثلاثةُ عشَرَ عامًا لم تكنْ كافية لتشعرَه أنّي لستُ بجارية، عشْرُ سنواتٍ منهم أسيرُ مُغْمَضة مقيّدةً خلفه مربوطةً

بجوادِ أهوائه، حتّى مزّقتني خشونةُ أرضه، وتركتْ آثارها- التي لنْ تزولَ- على بقاياي، لقد ألقاني في بئرٍ سحيقةٍ لن تستطيعَ يدُه القصيرة التي يمدّها لي الآن أنْ تنتشلني منْها، لكنْ ما الذي أتى به؟ هل حقًّا جاء مُسْتغفرًا، أم جاء ليحظَى بأنفاسِ عصفورِه الأخيرة، ويستمتعَ بها؟!

- اقتربتْ أنفاسُ العُصفور من النهاية، هل أتيتَ لتُلاحقَ روحَه أثناء الصّعود؟!

نكّس رأسَه أرضًا ولم يردّ، الحائل بيننا لن تهدمَه بضعُ وردات ونظرة عطفٍ، بنى حائلَه بإحْكام وضميرٍ جعَلا مِن سقوطه المستحيلَ بعيْنه، الأحجارُ الثقيلة التي وضعَها على الميثاقِ الغليظ أقْوى من أنْ تحطّمها بضعُ ورداتٍ أثقُ أنّ لوجودهم سببًا لكنّي أجهلُه، هزّ رأسَه بامْتعاض لم أعرفْ هل كان ألمًا من كلماتي، أمْ ندمًا على كلماته، أم شيئًا آخرَ لا أعرفُه؟.

نظراتُ الممرّضات مِن حوْلي باتتْ لا تحملُ إلّا الشّفقة على وجه جميلٍ أذبله جفافُ الأيّام، وشعْرٍ ناعم يتطاير حوْلي بلا تهذيبٍ كما تتطاير سنواتُ عمري هباءً، وعيونٍ تمطرُ ما إنْ تتلقي نظرةُ عطف أو شفقة، وجسدٍ يرتعشُ ما إن تلمسَه كفُّ حنان، مكالمةُ حسام من الخارج كانت فيضانَ قلبي الذي انْهار...

- حسناء، قلتُها وسأقولُها ثانية، لا تتوقّفي عند تلك النقطةِ التي قدْ تبتلعُك أو تدورُ بكِ في فراغٍ لا نهاية له، إمّا أن تبدئي مع أشرف بدايةً جديدة، أو أنزلُ لأخلّصك من قيْده، وسأفعلها حتّى ولو رغمًا عنْ أبي، لن يهتمّ بكِ أحدٌ إذا انتهى بكِ الأمرُ في مصحّة نفسيّة، الكلّ سيتباكى.. ثمّ ينفَضّ الجمع لغايتِه، وتبقين فيما ستلقين نفسَك فيه.

- أعدُكَ أنّني سأجلسُ مع نفسي طويلًا، وأحدّد ما أريدُ وأهاتِفُك، ادعُ لي كثيرًا يا حسام.

رفعتْ كلماتُه من روحي المعنوية، فما زال يوجدُ بجانبي مَن سيخلّصني إنْ أردت، لم أنسَ أنْ ألقى بورْداتِ عزائه في أقربِ سلّة قمامةٍ قبل انْصرافي من المشْفى.

إلحاحُ أحمد وآلاء جعلني أستجيبُ لرغْبَتهما، وميضُ أبيهما عادَ يلمعُ في عيونهما، ولا أريدُ أنْ أكون مَن يُخْبته، فآخر ما أتمنّى كراهيتُهما لي. جلستُ بجانب أشرف ليُعيدنا للبيت، سنواتٌ مرّت لم يلمسْ جسدي ذلك المقعدُ الذي أشعُرُ بخشونتِه، ووخَزَ أجسادَ الأخريات، لمحة رضا أصابت وجهَه سأحطّمها له كما حطّمني مرارًا، رغبتُه في إرضائي جعلتْه يقف عندَ محلّ حلويّات شهير ليشتري لنا كعكةً احتفالًا بخروجي، فتّشت في ذاكرتي أبحثُ عن يوم واحدٍ من أعياد ميلادي العَشرَة التي عشتُها معه حظيتُ فيها بكعكةِ عيدِ ميلادٍ فلم أجدْ، انطفأت الذّكرى في عقلي، ووجدتُها ظلامًا دامسًا بلا شموع، فما الذي يدفعُه لهُدْنةٍ لا تنفذُ ريحُها لعقلي، ولا لقلبي، في الأمر شيء غيرُ مفهوم!

أدخلتُ أحمد وآلاء، ونظرتُ له نظرةً مانعةً من الدخول، أجبرَتْه على عدم التقدّم.. فقالَ بخجلٍ أعتقدُ أنّه مُصْطنع:

- أريدُ فقط أنْ أحتفلَ معكم بعودتك.

ثمّ اقتربَ منّي يهمسُ في أذني همسًا لمْ يحرّك فيّ ساكنًا؛ بل ذكّرني بأوقاتي البغيضة معه.

- اشْتقتُ لكِ، ألمْ تشتاقي لي؟

رفعتُ وجْهي الذّابل ليواجهَ وجهَه الماكر الذي يختبأ خلفَ ألفِ قناع، لكنّي أراه وأشتَمّه، فيفسد عليّ أنفاسي:

- اشتقتَ أنتَ لأنّك كنت تأخذُ بغيْر عطاء؛ فلماذا أشتاقُ أنا!؟

أدرتُ وجْهي عنْه، ودخلتُ وأغلقتُ البابَ خلفي، كمْ أتمنّى أن يأتي اليوم الذي أقلّب فيه كتابَ أيّامي ولا أجدُه في صفحاته، لكنْ كيف لي هذا وأنا وحيدةٌ في بحرٍ تتلاطمُ عليَّ أمواجُه دونَ سندٍ أو عون، أحتضنُ عصفوريْن صغيريْن أخشى عليهما من دوّامتي.

***

أحتضنُ عصفوريْن صغيريْن أخشى عليهما من دوّامتي التي أشعرُ أنّها ستبتلعني قريبًا، فقد عدتُ وعاد، لم أتحمّل رنينَه المتكرّر دون أن أسْتجيب، إلحاحُه ورغبتُه زادتْ جسدي إلحاحًا ورغبة، شعرتُ بحور واحتياجِها المجنون الذي لم أقدّره وقتَها، لم يعدْ يُطفئ نارَ أنوثتي الذي اتّقدت إلّا همسُه، تخلّيت عن أيّ خوفٍ أفْزعني به كرباجُ أبي، عن كلّ نهرٍ نهرَتْه لي أمّي اسْتكمالًا لمشاهدِ التّربية المسرحية، لكنْ أين هي الأخلاقُ والتربيةُ القويمةُ فيما أنا فيه، هل الأخلاقُ خوفٌ وقهرٌ وفزع، أم قربٌ وصداقةٌ وتفاهم وإفهام! قهْرُ الضّباب أم قدوةُ الصّواب!

نظراتُ أنوار القاتلة تمزّقني، أنحّي عيني عنها حتّى لا تراني على حقيقتي في مقلتي، كنت كما يقولون كمَن على رأسِه بطْحَةٌ يتحسّسها، نظراتها المُتَناقضة بين الشّفقة واللّوم، الحبّ والتّراجع عنه، الحنان والغضب؛ جعَلتني أواجِهُها بالقليل من ماءِ الوجْه..

- لماذا تنظرينَ إليّ هكذا؟!

قلتُها وكوبُ الماء يرتعشُ في يدي، يكادُ لا يصل لفمي، وحالي يقول لها "لا تتْركيني، لا تتوقّفي عنْ حبّي مهْما حدث".

- كنتُ قبلًا أخافُ عليكِ من زوجك وأبيكِ، الآن أخافُ عليكِ من نفسِك.

- تخافين عليّ مِن نفسي!

نظرتْ للأرض بعيونٍ خجلى، وهي تقول:

- سامحيني إذا تجرّأتُ بقولي.

جعلتني كلماتُها أبكي كما لم أبكِ من قبْل، احتضنتني فوضعتُ رأسي قربَ قلبِها الذي ينبض حبًّا وحنانًا، ليتَ لي في الحياة أختًا أو أمًّا مثلها، لما صارَ حالي إلى ما أنا فيه.

- احْذري، أراكِ مِن حيث لا ترينَ نفسَك، أنتِ في حالةٍ لا تُحسدين عليها.

كلّما نطقتْ أنوار تأكّدتْ لي شفافيتُها وطهرُها، فلم تتوقّف مكالماتي ووليد وأنا أجهلُ أنّ رغبتي التي تندلع بداخلي ما هي إلّا ترابٌ يُخمِد ناره

شيئًا فشيئًا حتّى خبَتْ، بدأت أعراض الانسحاب.. تغيّر شكل علاقتِنا تمامًا، كان مَن يحاصرني فأصبحتُ أنا، كانت رسائلُه أوّلَ وآخرَ ما أرى في يومي فتباعَدَت، تباعدَ فاقْتربتُ، هدأ فثارَ داخلي يبحثُ عنه.

- أشعرُ أنّكَ تبتعد، لو هذا ما تريدُ لِمَ لا تفصح؟

- حساسيّتُك الزّائدة هي مَن تصوّر لك هذا، مجرّد انْشغالات زائدة.

انشغالاتٌ زائدة! أين كانت أيّام حصاره الأولى، ظهرتْ فجأةً على سطح لم تكنْ عليه إلّا صورتي لأهتزّ وأختفي.. أزلتُ عدساتي، والشّهورُ الطويلة كانت قدْ أعادتْ شَعْري إلى لوْنه وطوله، ومرضي أصابني بهُزالٍ، فنحَفَ وجْهي.. دخلتُ النّادي بصحبة أحمد وآلاء، الصّيحات التي أثارتها شلّةُ النّساء فوْر دخولي لفتَتْ نظرَه، لم أعرْهُ أيّ اهْتمام بالرّغم من محاولاته لجذْبِ نظري، اضطرّ تحتَ ضغط الإهمال أنْ يقتربَ فوْرَ أنْ منحته الفرصةَ للانْفراد بي.

- حمدًا لله على سلامتك، سألتُ أحمد عنك كثيرًا.

- كنتُ مريضة.

حرصتُ على قلّة الكلام مع بحّةٍ في صوتي، حتّى لا يجذبَ أذنَه.

- أضاءَ النادي بقدومك. (ثمّ احْمرّ وجهُه وتجرّأ قليلًا وهوَ يُكملُ)

- وحشْتينا.

رسمتُ على وجْهي ملامحَ دهشةٍ واستنكارٍ وتجهّم، جَعَلته ينظرُ بوجهِه في الأرض، لكنّه لم يستسلم.

- هذا ما أشعرُ به، وما وددتُ دومًا أن تستشعريه، لستِ كأيّ واحدة، أنت تملئين شيئًا بداخلي لا أستطيع مقاومته، و...........

رفعتُ يدي تِجاهَه ليصمت، بدّلت نظراتِ دهشتي واستنكاري إلى حدّة..

- تلك الكلماتُ الرّخيصة اجْعلها لغيري، ولأجل سمعتك! أنتَ لم تقلْ شيئًا وأنا لم أسمع.

تركتُه خلْفي وقد ألقيتُ عليه كثيرًا ممّا حمَّلني من الخزي والنّدم، الدّماءُ ترتفع لوجهه كمَن يقتربُ من جلطةٍ دماغية أعادتْ لي جزءًا مِن كرامتي، حتّى لو كنتُ في نظره "حور" فأنا مَن استدعيْتُها، وأنا مَن يجبُ أن تثأر لها، عرفتُ لماذا تغيّر نحْوي؟ نال الذئبُ وجبتَه الطازجة، وما تبقّى منها لا يعنيه، وسيتركُها لَمن بعده لينهشَ بقاياها العَفِنة، اشْتَهى لحمَها فتذوّقه، فلماذا لا يبحثُ عن مذاقٍ مختلف!

أجلسُ في غرْفتي أقلّب شيْطاني بيْن يديّ، يا لَتِلك القطعة التي جعلتْ من الحياة فتنةً كبيرة، حفرةَ نارٍ متّقدة، أرعدت جسَدي رسالةً طالَ انْتظارها، صدّتْه حسناء وتعالتْ عليه فجاءَ لَمن ظنّ بها رخصًا، تلك هي الحقيقة التي كنتُ أجْهلها وأنا أنْعمُ ببراءتي، المرأةُ نجمةٌ عالية إذا اقتربتِ انْطفأت، وإذا خانتْ هانت، وإذا فَرّطت تحطّمت، وأنا لن أنكرَ أنّ شيئًا بداخلي تحطّم، حتّى ولو كنتُ في نظره "حور"، أنا أعرفُ أنّني كنتُ أنا ولنْ أنسى زلّتي ما حييت.

- أينَ أنتِ؟

كلمتان سيَسْتدعيني بهما كمَن يلمسُ المصباح فتخرج العاهِرة، تحوّلت معه مِن غانيةِ مشاعر إلى غانيةِ هواتف، لنْ أكذبَ وأقولَ لم أخطئ وألقي بذنبي عليه، الذئبُ لا يلتقطُ من الغنمِ إلّا القاصية، وأنا كنتُ قاصيةً ووجبةً سهلةً فالْتَهمني، يجبُ أنْ أتجاوزَ تلكَ النّقطة القاتمة، وأخطو بعيدًا حتّى لا تسحبْني لظلامٍ أعمقَ علّني أحظى بغفران يعقُبُه نسيانٌ أو تناسي، لم أعِرْ رسالتَه أيّ اهْتمامٍ، نفَد وقودُ علاقتِنا وانْطفأتْ روحي تجاهَه، مرّت ساعة فأرسلَ أخرى..

- ما الذي يشغلُك عنّي؟

استمتعتُ بتلكَ الرّسالة؛ لأنّني سأستطيعُ ردّ كلماتِه عليه.

- انْشغالاتٌ زائدة!

لم يصبحْ بينَنا ما يُقال، وبيدي لا بيدِه ضغطتُ "البلوك" بلا أيّ ندم أو تردّد، سأفتقدُ "حور"، لكنْ يجبُ أن أخلع عباءتها التي لوّثتني، أتمنّىً أنْ أعود لحسناء القديمة التي هامتْ بمحمّد حبًّا نقيًّا لا يعكّره كذبٌ أوْ خزي، فهلْ يُمكن أنْ أعود؟

مَرام

أمسكتُ صفحاتي الملوّثة بالرّغبة، ومزّقتُها بيديْن وضّأتُهما للصّلاة، ركعتُ كثيرًا وسجدتُ بضعفٍ وتذلّل في صلواتِ توبةٍ واستخارةٍ ورجاء، أدعو الله بدموعِ ندم تمزّقني بالغُفْران والرّحمة، استدعيتُ كلّ ما تعلّمته على يدِ شيخي، فملأَ قلبي نورٌ لو استمرّ لتغيّر حالي، لكنْ ما بالُ الطّاعة تنقصُ بالوقت! وما بالُ الشّيطانيّة التي بداخلي تتفوّق على الملائكيّة التي أتمنّاها فلا أستطيع العبورَ من الظّلام إلى النور! الطريقُ شاقٌ تعيقني عثراتُه التي لم أنجحْ في اجْتيازها حتّى الآن رغمَ المحاولات، دومًا ما تسقِطُني وتتركني مململة جريحةً كسيرةَ القلب والعين.

علاقتي بوليد نالتْ منّي، وأوْرثتني ذِلّة لنْ تمحُها الأيّام من أذني وشفاهي وجسدي وكياني، مَن تلك التي كانت تهاتفه؛ أنا أمْ ثمرةُ الرّغبة التي أشعلتْها "حور" في قلبي فارتفعتْ بوقودِ الحرْمان الذي طال، لن أكونَها تلك المرأةَ مرّة أخرى مهْما كان احتياجي، لكنّي وحيدة! انقطعتُ عن النّادي بعد ما حدثَ فرؤيتُه ستذكّرني بزلّتي، الصفحاتُ نافذةٌ مطلّة على عالمٍ أريدُه ليسحبَ منّي عمرًا لم أعدْ أريدُه، هكذا همسَ لي شيطاني لأبدأ الطريقَ، وأنا اسْتمعتُ إليه، أصدرتُ حسابي الشّخصي الذي تأخّر طويلًا.. لا ليكونَ مصيدةً لأحدهم؛ بل ليكونَ نفَسَ الحريّةِ في سجنِ الاعْتقال، نافذةً أرى منها العالمَ الذي أحاطتني جدْرانُه مبكّرًا، ستكونُ صفْحتي تلك المرّة بشخصي الحقيقي حتّى لا أتوه منّي ستكون باسْمي "حسناء مسعود".

كان أولُ ما هداني إليه قلبي البحثَ عن محمّد بحقيقتي.. لا بزيْفي، بحسناء لا بغيْرها، تردّدتُ كثيرًا في دخول صفحتِه، وتوقّفت كثيرًا أمام صورته، الآن فقط عرفتُ أنّ البلوك كان شخصيًّا، صورتُه استدعت ذكرياتِ حبّه كأنّها كانت بالأمسِ القريب، ولم يمرّ على فراقنا سنوات، تمنّيت أنْ أرحل بسلامٍ لكنّي لمْ أستطع، جذبتني صورةٌ حديثة جعلتني أندَمُ على عدم رحيلي، ليتني تركتُ البابَ موصدًا! فتحتُه وفتحتُ معه جرحي لينزف كما لم ينزفْ مِن قبْل، صورتُه هو وزوجتُه وأولادُه وطفلُه الجديد! ترى هل عادتْ مِن غفوتِها أمْ رحلَ هو إلى عالمِها أمْ تلاقيا في نقطةِ المُنتصف التي لم أستطعِ الوصول بحياتي إليها، هل نسيني وألقى أيّامي خلفَ ظهْرِه، أغْرقتني تلك اللّقطة في عالمِ الشّرود والحزن، توقّفتْ مرْكبي بعدَه في ترعةٍ راكدة عفنة، بينما سارَ هو بمركبه في نهْرِ الحياة العذب، يحصدُ ثمارَ تفوّقه، ويزيدُ أواصرَ علاقتِه بزوجتِه، حقًّا قلوبُ الرّجال تسَعُ الكَثيرات، وقلوبُ النّساء لا تسَعُ إلّا واحدًا، هل أخطأتُ عندما أحببْتُه وطلبتُ الطّلاق مِن أجله؟ سؤالٌ لن يستطيعَ أحدٌ ممّن حوْلي أنْ يجيبني عليه!

سحبتني الذّكرى، لكنّني لنْ أنْهارَ مرّة أخرى من أجل أولادي، كفاهُم خوفٌ وقلق، سأحاولُ اكتسابَ القليل من القوّة حتّى لا أسْقُط، سأتخلّى عن ذلك الضّعف الذي أوْقعني في شبكةِ الزّواج من أشرف، ثمّ حبّ محمد، ثمّ السّقوط في بئر وليد، تشاغلتُ قليلًا بحدثٍ جديد، الشّقة التي أمامي، والمُغْلقة منذُ سنوات يتمّ تجْهيزها لاستقبال عروس، أعمالُ التّشطيب تجري

على قدم وساق، جميعُ الجيران مُنْزعجون من الضّوضاء، أمّا أنا فسعيدةٌ بها، فقد شقّت صمتًا يقبعُ على أيامي، كان الطَّرْق المبكّرُ يهبط على جيرانِنا وبالًا، وعلى قلبي سكينة وطمأنينة، أشعرُ بحياةٍ تدبّ في المكان بعد موت، ترى مَن التي ستسكنُ تلك الشّقة؟ وهل يمكن أن تكون طوْقَ نجاةٍ أرسله الله لي لأخرج من وحْدتي فنتصادق!

اتّسعت صفحتي الشّخصية لصديقات النادي، أخي وزوجته، وشيخي الذي أرسلت له طلبَ صداقة، وسعدتُ بقبوله له، فأصبحت زائرةً يوميّةً لصفحته بتعليقٍ أو مشاركة أو إعجاب، أصبحتُ عضوًا في مجموعات متنوّعة، تابعتُ صفحاتِ شخصيات شهيرة، عالم التّواصل الاجتماعي واسعٌ بحجْم العالم، لكنّه ضيق المشاعر بحجم ثقْبِ الإبرة، الأخلاقُ طيّبة، الأمنياتُ نبيلة، الكلماتُ برّاقة، الكلّ أمينٌ ووفِيّ وصادق، ونقي، وبعضُهم تقي، كلّهم مصلحون! فمِن أين يأتى الفاسدون الذين يخنقون الكرة الأرضية بأنفاسهم المزعجة؟ أصبحت شخصيتي - التي اكتسبتُ سماتِها من تجاربي - مختلفةً عن حسناء القديمة. أرسل لي أشرف طلبَ صداقةٍ فلم أستجِب، أرسلَ لي رسالتَه الأولى في حياتي، هرولَ خلفي فقط عندما أدرتُ له ظهْري، يا لَلْبشر! يختفونَ منْك في ظلماتِ مكْرِهم إنْ بحثت عنهم، وإنْ ولّيت لهم ظهرَك يقفون في دائرةِ ضوءٍ شديد علّهم يخْطفون بصرَك مرّة أخرى.

- لماذا لم تقبلي طلبَ صداقتي؟ تناسي مشاكلنا وتذكّري أنّني صديقُ تواصل، علّنا نستطيع التقاربَ مرّة أخرى.

قلبي لا يستجيبُ لندائه الذي أشعرُ بعكارتِه، لكنّ عقلي يحدّثني أنه ما زال زوجي، استقرّ محمّد في حياته وعليّ الآن أنْ أحظى بالاسْتقرار، إلى متى ستتوقّف أيّامي! إلى متى سأصبح حواءَ بلا آدم حقيقيّ!

– سأقبلُه بشرط عدمِ القيود، كفاني قيودًا، لا تحاصرني.

– موافقٌ لأنّني أعرفك، وأعرفُ أنّك لن تخترقي حاجزَ الأخلاق.

حاجزُ الأخلاق! لو علمَ ما آلَ إليه أمري، لو علم أنّني أصبحتُ غانيةَ مشاعر.. ثمّ غانيةَ هواتف! لماذا يظنّ الرّجال أنّ زوجاتهم قدّيسات! أنّهنّ أرضٌ لا تحتاج لمتابعةٍ ورعاية، ولن تجفّ وتتشقّق وتتصحّر مهْما حبسوا أمطارَ ودّهم، أو لم يفيضوا عليهنّ من نهْرِ عطائهم، كثيرٌ من الرّجال يتزيّن ويتعطّر ويتخايل ويُغْدق ويلقي بكلّ جَميل على الغريبات، ولا تحصدُ زوجتُه منه إلّا كلّ ثقيل وشاقّ وشحيح، يريدُها راهبةً في دير التّعاسة الذي افتتحه لينجبَ فيه ذريةً تحملُ لقبَه ولقبَ آبائه، وعليها هي وحدَها أنْ تتكفّل بعبء رغَباتِهم جميعًا بلا عطاء، لو علم الرجالُ معاناةَ زوجاتِهم الخفيّة لاتّقوا الله فيهنّ، لو علموا ما تزرعُه التّعاسة في نفوسهنّ ما حبسوا عطاءً وما بخلوا بحبّ أو حنان، لو علموا كَمَّ الذّئاب الذين يطاردهنّ بكلمة لم تسمَعْنها منهم، أو بنظرةٍ لم ترَيْنَها من عيونِهم لأصبحوا أسودًا بحقّ يعْرفون كيفَ يحْمون عرائنهم.

لوْ علمَ الرّجالُ ما تزرعه التّعاسةُ في نفوس زوجاتهم ما حبَسوا عطاءً وما بخلوا بحبٍّ أو حنان، لو علموا كمّ الذّئاب الذين يطاردهنّ بكلمةٍ لم تسمعْنَها منهم، أو بنظرةٍ لم تريْنَها من عيونهم لأصبحوا أسودًا بحقّ يعرفون كيف يحْمون عرائنهم.. كتبتُ تلك الكلماتِ على صفحتي فأشعلتها؛ النّساء مؤيّدات بشدّة، والرّجال ما بين مؤيّد ومُعارض. المعارضُ رجلٌ قاس ذو وجْهٍ أنانيّ واحد، أمّا المؤيّدُ فقد علّمتني التجربةُ أنّه قد يكون رجلًا بألفِ وجْه، يمكنُ أن يكون رجلًا حقيقيًّا يؤدّي حقّ رجولته، ويمكن أن يكونَ الذّئب في ثوبِ الحَمَل يُشعِل الإناث برقّته وانحيازه للمرأة، بينما هو بعيدٌ كلّ البُعد عمّا يقول، أعجبني تعليقُ شيخي.

– لذلكَ أوْصانا رسولُنا، صلّى الله عليه وسلم، بالمرأة؛ فقال "رفقًا بالقوارير".

أشعرُ أنّه يتذكّرني ومعاناتي التي أحسّها في رحلةِ العمرة.. فأجبتُ:

– ليتَهم يعلمون!

أخذتُ في تلك الفترةِ خطوةً كانت بعيدةً عنّي كلّ البعد، خطوةُ الحجابِ التي اقتربتْ بعدَ معصيتي، أردتُ أن أمنح جسدي سترًا بعْدَ انْتهاك، فهل يُمكن أن تمنحنا المعاصي هدايا! هلْ يمكن أن يولَدَ النّور من رحِم الظلام؟ كلّ ما أتمنّاه خيطٌ أبيضُ يشقّ سمائي فينبئني بفَجرٍ قريب، الظلام أغرقَ روحي، وسدّ عليّ كلّ طريق، تركني تائهة بلا وطنٍ في قلب أنيس.

رنّ جرسُ هاتف البيت الصّامت على غير المعتاد وأنا أتابعُ واجباتِ آلاء، أخبرتني أنوار أنّه أبي، صوتُه كان حزينًا ممّا أثارَ قلقي، فتساءلت:

- كيف حالُك، وحالُ أمّي؟

عرفتُ أنّ أمّي مريضةٌ وملازِمَة للفراش، توقّفت حائرة لا أدري ما الذي يجبُ عليّ فعلُه.. ماتتِ اللّهفة في قلبي، شعرتُ أنّي صنمٌ متحرّك فقَدَ مشاعرَ الألفة، صَمَتّ طويلًا أفكّر فيما أقولُ أو أفعل، ففاجأني بلهجةٍ آمرة:

- ألنْ تأتي؟

تعجّبت! يرغبُ في تواجدي، ألستُ حسناء التي تزعج رأسَه بأطفالها، وتشقّق جدرانه الهادئة، لكنّي لمْ أكنْ لأتخلّى عن واجبي، فأجبت:

- سآتي.

نبرةُ أبي عرّفتني ما يريدُ، فأنا أحفظُه عن ظهْر قلْب فتركتُ أحمد وآلاء مع أنوار، كانت تنامُ على سريرها يسكنُ وجْهَها شحوبٌ سبقتُها إليه بسنوات عندما دخلت عليها حجرتَها، تلك الحجرةُ المهيبة التي لم يكنْ يُسمح لي بدخولِها حتّى علقتْ في ذهني كمعبَدٍ أو دير لا يحقّ التّواجد فيه إلّا للعابدين، أوّل ما لفتَ انتباهي احتلالُ الأدوية للكومودينو الذي بجانبِها مكانَ صورها وحليّها وحلواها التي كان أبي يداوم على إحضارها لها دوني، ابتسمتُ عندما تذكّرتُ يومَ أن نزغ الشيطانُ في قلبي فدخلتُ حرمَها المقدّس وأخذتُ واحدةً فاشتكتْ لأبي وعاقبني عقابًا أليمًا، لم يفكّرا في طفولتي؛ بل في كوْني لصّةً سرقتْ حلوى أمّها، يا لَلْغرابة! جلستُ على

كرسي مقابلٍ للسرير، لم أكن أدري أنّ تعبيرات وجهي تشي رغماً عنّي بما يعتملُ في صدْري إلّا عندما التفتَتْ تجاهي وهي تقول بصوتٍ واهن:

- أشعرُ أنّها النهاية، سامحيني يا حسناء.

لمْ ولنْ أجيب، سيبقى دومًا في الحياة ما يرتفعُ فوق كلمات السّماح والعفو مهْما قيلت، هل يجبُ أن نصل للنهاية لنفيق!! لنعطي لِمَن حرَمْناه فقطْ حقّ الاعتراف بالظّلم لا حقّ ردِّه؟! هل سأقولُ لها سامحتُك على سنواتِ طفولة وصبا يملؤهما الخوفُ والألم، التخلّي والخذلان، الأنانية وحبّ الذّات؛ أمْ سامحتُك على الضّياع والتّشرد النفسي وأنتِ على قيْد الحياة، أمْ على عمري الذي ضاع بين كلّ هذا، ولم يفرزْ إلّا كائني البَشِع الذي يسكنني الآن، لم يظهرْ على وجهي أيّ تعْبير، جمّدته كما تجمّد داخلي، فقلت:

- انتبهي لصحّتك، لا تشغلي بالك بما كان.

عيناها واهنة، وصوتُ أنفاسها يضيقُ؛ فيضيقُ معه صدْري، دخل أبي لاستقبالي وهو يقولُ بنبرةٍ مستفزّة:

- لماذا لم تحضري الأولاد؟

أعرفُ ما يرمي إليه، لكنّي لنْ أوضّح، مَن قال عبارة "مِن الذّكاء أن تكون غبيًّا بعضَ الوقت" رجلٌ محنّك، وأنا قدْ أصبحت أكثرَ حِنْكة، لم أعدْ ألقي بالاتّهامات كما كنت أفعلُ فتتحوّل الضّحية إلى جانٍ، تعلّمت أنّ البشر يخافون ممّن ينتزعون حقوقَهم لا ممّن يجادلون فيها، فقلتُ بهدوء زادَ إلى حدّ البرود:

- سيثيرون المتاعبَ والصّخب، وأنتم تحبّون الهدوء الذي أصبحَ ضرورةً بعد مرض أمّي.

يفهمُ ما أرمي إليه لكنّه لن يتوقّف، دومًا ما يريده هو ما يصرّ على تحقيقه:

- ومَن سيخدُمني وأمّك المريضة؟

ألمْ أقلْ إنّني أحفظُه عنْ ظهْر قلب، أعرفُ أنّه كان يجبُ أنْ أكون خادمة أمّي في ذلك الوقت بالذّات، لكنّي لن أستطيع، كيف سأخضعُ نفسي.. ألا يكفيني خضوع!

- ظروفي لنْ تسمح، مدرسةُ الأولاد بعيدة عنكما، ثمّ إنّهم سيحوّلون البيتَ إلى سرايا مجانين كما كنتَ تقول دومًا.

- أيّ ظروفٍ تلك التي تمنعُ تواجدَك في تلك الحال، أنت مُنْفصلةٌ عن زوجك، وأولادك كبروا، وسأوصلهم وأحضرهم أنا.

سيقاتلُ حتّى يدخلني كهْفَه الذي دفعتني قسوتُه للهرب منه إلى سجْن أشرف، فهل يصدّق أنّني سأعود بقدمي مرّة أخرى!

- كما ترى ظروفي الصحيّة لن تساعدني، وأولادي يمتلكون أغلبَ وقتي للمذاكرة، أنا نفسي تخدُمني أنوار، لم تقبلْ أن تعيدني لبيتك كمُطَلقة؛ فهل تريدُ أن تعيدني إليه كخادمة!

تبادلْنا نظراتٍ يفهمُها كلانا، أوقفتْها تنْهيدات أمّي وصوتُها المكتوم:

- لا تثقلْ عليها يا مسعود، مُنى تتواجد هنا يوميًّا... (ثمّ التفتتْ إليّ وهي تُكْمل).. لكنْ لا تحرميني سؤالك.

أطالتِ النّظر إلى عيني، لا أعرف لماذا شعرتُ وقتَها أنّها النّظرة الأخيرة التي تحمل كلّ النّدم، بالرّغم من مرضها المُفاجئ، نظرةُ مَن أصبح الموتُ أقربَ إليه مِن حبل الوريد، بالرّغم من صِغَر عمرها؛ فهي لم تتعدّ الخامسة والخمسين؛ أمْ كانت نظرةَ مودّع عرف ورأى حقيقة الدّنيا؛ فهانت، لكنْ ما سرّ ذلك الشّعاع الذي لمع في عيني أبي عندما ذُكِر اسمُ مُنى؟!

لم أعرفْ سرّ الشّعاع الذي لمعَ في عيني أبي عندما ذُكِر اسمُ مُنى، إلّا بعد وفاة أمّي بأسابيع، واظبتُ على حضور يوميّ حتّى لا أقيّد قلبي بالانتقام، كفاه قيودًا! فعلتُها جهادًا فحسِبتْه أمّي عفوًا لم أستطِعْه! كنتُ أقفُ خلف حسام الذي لحقَ روحَها قبل صعودها إلى ربّها بساعاتٍ فتمكّن من رؤيتِها وتقْبيل يدِها، فانْهمرت من عيني دموعٌ حسبتْها أمّي حزنًا عليها، لكنّها لم تكنْ إلّا شوقًا للحْظة ودّ حقيقي، لم أكنْ أبكي عليها أكثرَ ممّا كنتُ أبكي على نفسي المفقودة! وجّهتْ كلامَها لحسام لتُسمِع أبي:

- وصيّتك حسناء، ظلمتُها كثيرًا، فلم أكنْ لها يومًا أمًّا، كنتُ دومًا لها ندًّا...

ثمّ نظرتْ تجاه دولابِها، وأمرتْه بإخراج صندوق يقبَعُ بداخله، وأكملت:

- أعرفُ أنّك لن تغضبَ منّي، ذهبي كلّه لحسناء، وباقي الميراثِ بالشّرع.

ناولني حسامُ الصّندوقَ الضّخمَ بضخامة متاهتي، وشَررُ الغضبِ يندفعُ منْ عينيْ أبي، فلم يستطعْ كتمانَه، فقال بعصبيّة:

- أنا مَن اشْتراه، وأنا مَن أعطاكِ ميراثًا، فكيف تتصرّفين دونَ أمري؟!

أطالتْ له نظراتِ وهنٍ وهوان، ثمّ قالتْ كلماتٍ قليلة لم تنطقْ بعدها:

- أنتَ أعطيت وأنا تمتّعت، وهي وحدَها مَن دفعت الثمن.

تواجد أشرف وأهله جميعًا بالعَزاء، كانت فرصةً سانحة لوالدتِه لتمنحني بعضَ الامتعاض، ولأختِه لتشدّ من أزْري، ليتَ أشرف مثلَها فهي نموذجُ أبيها الصغير، الطيبة تملأ عينيها، والتّسامح يلفّ قلبَها، والودّ يقفز من شفتيْها؛ وفرصةً سانحة لأشرف ليُطلّ بقسماتٍ حزينة وقلبٍ دبّت فيه الرّقّة بعد الجفاء.

– البقاءُ لله يا حسناء، اجْعليني بجانبك في تلك المحنة.

أيّ محنة! المحنة تكونُ عند فقدانِ الحائط الذي نستندُ عليه والكتفِ الذي نركنُ إليه والقلبِ الذي يحتوينا والصدرِ الذي يدفئنا؛ أمَا وهذا.. فأنا لستُ بمحنة، ولا أحتاج إلى جانبِه المزيّف، لم أنطقْ بحرف، بلِ اكْتفيتُ بصمتٍ مُطْبق ظنّه حزنًا وافتعلتُه هربًا.

أصرّ حسام- بعد وفاتها مباشرة، وقبل رحيله- على استلامي لنصيبي من ميراثي، فلم يستطعْ أبي الاعْتراض، حسام ابنُه الذّكر الذي لن يلقي له بكلمةٍ أرضًا، ولن يرفضَ له رغبة. جلستُ في حجرتي أمام صندوقها الضّخم المَهيب الذي يُفتحُ أمام وجهي لأوّل مرّةٍ أشعرُ أنّه منّي كذهَبِ قارون الذي خسفَ به وبداره الأرض، فذهب أمّي الذي جمعتْه على حساب أمومتها خسفَ بي وبداري الأرض، لكنّي الآنَ سأصْدُق نفسي القولَ بأنّي تمتّعت بأخْذه تحتَ نظرِ أبي رغمًا عنه، كما أنّه منحني أوّلَ شعورٍ بامتلاكٍ حقيقي، لأوّل مرّةٍ في عمري تهبني الأقدارُ ما يمكنُ أن يحقّق لي أمنيتي الغالية في التّحليق بعيدًا عن قفصِ أشرف دونَ أن يمسِكَ بي ويقتلني ببطء، كثيرًا ما يحبسُ المالُ المرأةَ عنْ

حاجتها في طلب الطّلاق والتّحرر من قيْدٍ لا تريده، وهذا لو يعلمُ الرّجال أحقرُ القيود.

تلقّيت عزاءين أسْعداني؛ عزاء شيخي على منشور في صفحتي، وعزاء جارتي الجديدة مرام التي تزوّجت في الشّقة المقابلة لي أيّام مرض أمّي، زارتني وحملتْ معها عطرًا تمنّيتُه طويلًا، عطر ونَسٍ بعد وحْدةٍ، وحياةً بعد فراغٍ مُميت.

– البقاءُ لله، كنتُ أتمنّى أن أتعرّف عليكِ في ظرفٍ أفضل.

ابتسمتُ لها، وأنا أقول:

– البقاءُ لله وحده، سعيدةٌ بجيرتك التي ستقطعُ صمتًا أطبقَ على حياتي.

ظننتُ أنّي مِن المُفترض مَن تبكي، لكنْ ما أنْ أتممْتُ كلماتي حتّى فاضتْ دموعُها، وشرعتُ أنا في الرّبتِ على كتفِها..

– آسفة، ذكّرتني كلماتُك بأمّي.

– رحَمها الله.

قاطعتني وهي ترفع يدَها اعتراضًا:

– أمّي ما زالت على قيْد الحياة.. (ثمّ صمتتْ قليلًا، وأكْمَلت) .. لكنّها قاطعتني.

– قاطعتك! لَمَ؟ (قلتُها بذهول)

- الظّرف ليس مناسبًا، قد نتكلّم فيما بعد.

أسرعتُ خوفًا مِن فُقْدانها:

- لوْ لمْ تكوني تعملين فتعالي نتناولُ الإفطارَ غدًا معًا.

ظهرَ على وجْهِها الارتياحُ لدعْوتي، الوحيداتُ أصبحنَ أكثرَ ممّا كنتُ أتخيّل، يموج بهنّ بحرُ الحياة، ونادرًا ما يحظينَ بشاطئ الأحلام.

كان صباحًا مُشْمسًا، أعددتُ الإفطار في الشّرفة، تأهّبت بكلّ كياني، لا لاسْتقبال جارة؛ ولكنْ لاستقبال نبتةِ حياةٍ ستدبّ في بيتي. جلسْنا تحتَ أشعّة الشّمس نتناول الطعام ونتسامَر، ضحكنا ذلك اليومَ ملء شفتيْنا لكنْ ليس من قلوبنا، كلانا يحملُ ما يعكّر صفْوَه، أعرفُ ما أعاني.. لكنّي لم أكنْ أعرفُ عمّا يعكّر صفو أيّامها شيئًا.

لم أكنْ أعرفُ عمّا يعكّر صفوَ أيّامها شيئًا، فقدْ توطّدت علاقتُنا وقاربتْ بيننا الطّباعُ المشتركة والوحدةُ، مع عدم تبادلِ الأسْرار، لكنْ بمرور الأيّام ولتقاربنا اليوميّ بدأتُ أشعرُ بتغيّر في أحْوالها، أصبحتْ أكثرَ صمتًا وشرودًا، ونبتَ في عينيْها حزنٌ يكفي أقوامًا، بدتْ في ذلك اليوم كوردةٍ ذابلةٍ وسطَ كوْمةٍ من رماد، فلم أستطعْ كتمَ سؤالي:

- ما بِك يا مَرام؟ لستِ بخير حال!

صمتَتْ ولم تردّ، ظهرتْ في عينيْها دموعُ هوانٍ اعْتصرت قلبي، فأكملتُ:

- أنا لا أتدخّل في حياتك، لكنْ لوْ أمتلك ما أساعدُك به ثقي أنّي لنْ أتأخّر.

رفعَتْ عينيها السّوداء المتلألئة بدموعها، وقالت:

- مِن الواضح أنّي أخطأتُ بزواجي هذا خطأ سأدفعُ ثمنَه عمري.

- أي خطأ هذا! لم يكتملْ شهران على زواجك!

أطالتِ النّظر إلى بعيدٍ لا أراه، ثمّ هزّت رأسَها بيأس وهي تُكْمل:

- هذا ليس زوجي الأوّل يا حسناء.

صمتتْ، فلم أقاطعْها، ومنحتُها من الإنْصات ما يسمح لها بالرّاحة النفسية، كثيرًا ما نحتاجُ إلى آذانٍ تسمعنا؛ لا لشفاهٍ تمحقُ مشاعرنا واعترافاتِنا بكلماتٍ وفلسفاتٍ فارغة فأكْمَلتْ:

- كنتُ أحيا مع زوْجي السّابق حياةً باردة غيرَ مُرْضية لروحي وقلبي، هذا كان ملخّصَها بغضّ النّظر عن المُخطئ، حتّى قابلتُ "حازم" في ظروفٍ

حالكة وتقلّبات زوجيّة عاصفة، زمالتُنا بالعمل سمحتْ له بالتقرّب منّي، ثمّ أصبحَ كظلّي، يعرف كلّ شيء عنْ حياتي، حتّى علاقتي الشّخصية بزوجي كان يعرفُها، تحوّلت الصّداقة إلى حبٍّ فلم يعدْ أحدُنا يقوَ على فراق الآخر.

سادَ حوْلي صمتٌ مُطْبق كأنّ أذني غطّاها شمع لا يُنفذُ إلّا صوتها، وصورة محمّد تتداعى في خيالي.

هزّت رأسَها، وعضّت شفتيْها، وقبضتْ يدَها ندمًا قبل أن تقول:

- ويبدو أنّ هذا الحبّ سيكون قبري.

لمْ أستطعْ تكملةَ الصّمت، فقلتُ في تساؤلٍ أدْمى قلبي:

- قبر! هل يمكن أن يتحوّل بستانُ الحبّ إلى قبر؟

- نعم. (قالتْها بهدوءٍ مؤلم، ثمّ تنهّدتْ تنهيدةً طويلة لتُكْمل) .. عندما طلبتُ الطّلاق منحني زوجي إيّاه بكلّ هدوء، قال لي إنّ كلانا مِن حقّه أنْ يحيا سعيدًا، حتّى لو بعيدًا عن الآخر؛ لأنّ التّعاسة ليست قانونَ الحياة، منحني الطّلاق ليمنحني هدنةً نفسيّة، وليضعني في اخْتيار حرٍّ حتّى لو كانَ العودة إليه بعد فترةٍ سأجدُه في الانتظار، هكذا قال.

تذكّرت مواقفَ أشرف فقلت:

- موقفُه رجوليّ، غيرُه لا يفعل هذا.

سحبتْ نفسًا عميقًا، وقالتْ بأسف:

- عرفتُ متأخّرًا! لكنّه اشْترط أنْ أتنازلَ عن حضانة أبنائي، ففعلت.

قالتْها بحسرة، ودموعُها تنهمِرُ في ازدياد:

- وهل استطعتِ؟

انْفجرَتْ كبركانٍ خرجتْ حَمَمُه من عينيها، وهي تصرخ وتحيطُ وجهَها بكفّيها:

- كنتُ عمياء، غائبةً عن الوعي، مخدّرة بوهْم الحبّ والسّعادة.

غبتُ في شرودي مع روحِ أمّي التي حضرتْ لتصطفّ بجانبها، نساءٌ فضّلنَ أنفسَهنّ على أولادهنّ! ثمّ عدتُ لأتساءل.. لوْ طلّقني أشرف وتزوّجتُ "محمّد" هل كنتُ سأقبلُ وأتنازلُ عنْ أولادي أنا أيضًا؟ للحقّ.. لن أكون مُنْصفة إنْ أجبتُ بأيّ جواب، علّمتني الحياة أنّ المصدرَ الوحيد للإجابة الصّحيحة هي التجربة، الاحتراقُ في موقد الموْقف الذي سيُخْرجُ من جوْفِنا الدّخان أو الذهب كما قال شيخي، وهبتني الحياةُ مَن سَيُجيب على تساؤلاتي المُبْهمة في علاقتي بمحمّد، تمنّيت المزيدَ لكنّها لم تستطعْ إكمالَ ما حدث، صورةُ أولادِها التي أخرجتْها من جيبها قطعت كلّ كلامٍ، وأسالت كلّ دمع.

لم أتوقّع ذلك المساء، وبعد وفاة أمّي بأسبوعين فقط زيارةَ حسام أخي، وملامحُ وجهِه تشي بثوْرة، توقّعت الكثيرَ إلّا ما جاء به، ضربَ المنضدةَ بقبضة يده، وكادَ يتمزّق حزنًا وهو يقول:

- أبونا سيتزوّج مُنى خادمةَ أمّك!

لم يذْهلني كلامُه، توقّعت قبل سابقٍ من لَمْعة عينيه، أنانية الرّجال تعلو فوقَ كلّ قيم أو مبادئ يضعونها للآخرين، لكن حسام لن يتقبّل الحدثَ مثْلي؛ فهوَ ظلّ أمّي الذي كانت تحبّه وتفضّله حتّى عنْ نفسها، الحبْلُ السّري الذي ربطهما لم ينقطعْ بعدَ الولادة، بل بقي وازْداد وتضخّم، الشّرقيّات يتّهمنَ الرّجال بحبّهم للأبناء الذّكور، وهنّ يعتزِزْن بهنّ أكثر.

- لا تغضبْ يا حسام، زواجُه أفضلُ من وحدته.

نفضَ قميصَه بعصبيّة، وأخرج سيجارةً أشعلها وبدأ ينفثُ دخانها كأنّه يُخرِج معه حريقَ قلبه.

- أينَ التّقاليد التي خنَقَنا بها طيلةَ عمْرٍ كامل؟ ألم يحرمْني من زميلةِ دراستي لأنّ مستواها الاجتماعي أقلّ؟ وهل ستناسبُ مُنى الآن ذلك المستوى! يجبُ أن نمنعَه من الزّواج بها.

***

يجبُ أن نمنعَ أبي من الزّواج بمُنى، قالها حسام وهو لا يعرفُ أنّني لن أمنعَه، على العكسِ كنتُ سعيدة بما سيفعل غايةَ السّعادة، سُيهدَم الصّنم الذي أجبرتْ على عبادته منذ وعيْت، ستلتهمُ العائلة وجهَه الذي صرخَ كثيرًا في وجهي وأنا أطالبُ بحقّي في الحريّة، سيتشوّه في نظر الجميع كما شوّه داخلي، سأتحرّر من قيده، وعندها- فقط- سأتحرّر من قيْد أشرف، ثمّ يكفيني أنّي لنْ أضطرّ للتواجد معه في مكانٍ واحد بعد وحْدته، سيسافر حسام ويتركُه لي وأعصابي المرهقة لم تكنْ لتحتمله، زواجُه من تلك الفتاة والذي يبدو ككارثةٍ

هوَ في الحقيقة مكافأتُه لي بعد إجْحاف، خطؤه الذي سيمنَحني ديّة عمري، فأخطاءُ الظّلَمَة غالبًا ما تكون هدايا المظلومين، فأجبتُه بضعفٍ افْتعلتُه:

- حسام، أبونا سيفعلُ ما يريد، ولن تكسبَ في النهاية إلّا غضبَه، دعْهُ حتّى لا يتّهمنا بالأنانية.

ثارَ في وجهي وهو يقول:

- أنانية! هل أنتِ موافقةٌ وستساندينه يا حسناء؟ أهكذا سوّلت لكِ نفسُك لتنتقمي مِن إهمال أمّك لكِ؟

عاتبتُه بعيونٍ صامتة، فعادَ مِن حيث أتى، ربتَ على كتفي بحنانٍ لم يعدْ لي غيره، وضمّني لصدْره وهو يقول:

- سامحيني يا حسناء، لا أتخيّل انْهيار ذلك الجبل أمامي، كنتُ أمتثل لأوامره ظنًّا منّي أنّها قانون لا يمكن التلاعب به، ليأتي بعد كلّ تلك السنوات ويمزّقَ كلّ ما كتبْته يداه على جبيننا معًا، ألم يمنعْك من حقّك في الطّلاق تحت أحد بنودِ ذلك القانون، وأنا وقفتُ موقفَ العاجز بسببه؟

هززتُ رأسي في أسًى لكنّي لم أجِبْ، أنا في مرحلة تخبّط لا أعرفُ فيها الصّواب من الخطأ، الحقيقةَ من السراب، الحقَّ من الباطل، لم أعدْ أعرفُ بعدَ كلّ ما ألاقي وأعايش هلْ أخطأ أبي بمنْعي من الطّلاق أم أصاب؟

- أنا لنْ أساندَه يا حسام، لكنّك تعرفُ أنّي لا أملك القدرةَ على منْعه.

نظرَ لي بشفقةٍ وحزنٍ حقيقيّيْن في عالم الزّيف الباهت الذي أحياه، وروى ظمأ أيّامي بكلماته..

– حتّى أنتِ أشقاكِ، هل تظنّين أنّ حالك يُعجبني؟ لا والله، لكنّي كما قلتُ لك سابقًا أريدُ منْك التّفتيش جيدًا في أوراق حياتِك علّك تجدينَ سطرًا مضيئًا تستطيعينَ به إكمالَ حياة جديدةٍ مع أشرف. (ثمّ صمتَ قليلًا، وأكْمَل) .. وإنْ لم تجدي هاتفيني في أيّ وقتٍ سأحضرُ وأحرّرك من ذلك الرّباط الذي خنقكِ وحبسَ عنْك أنفاسَ الشباب، لم يعدْ لأبيكِ حقّ التحكّم فينا بعدَ ما سيفعل، سأسافرُ قبل أن يعقدَ ما نوى، ولنْ أعود إلّا إذا كان هناك ما يستحقّ العودة.

الانْفعالُ كان يلتهم "حسام"، حاولتُ جاهدةً تهدئتَه فقد عزّ على قلبي حزنُه كما عزّ فراقُه، عرفتُ سرَّ لمعة عيني أبي، وأنّه خطّط لها حتّى قبل رحيلِ أمّي، فهلْ شعرت وهي مُلقاة في أواخر أيّامها بما اعتملَ في نفسه؟ هل عرفتْ أنّها فرّطت في أمومتها لي من أجل أنانيتِها فعاجلَها هوَ بأنانية أعْظم، حقًّا لا يظلمُ ربُّك أحدًا، فدومًا ما تأتي الطَّعنات ممّن فضّلناهم على حساب الآخرين.

جلستُ وحيدةً في غرفتي بعدَ انْصرافه أمام ذهبِها الذي لم أتزيّن بأيّ مِن قطَعِه، واثقة مِن أنّها ستصبح حيّاتٍ تلدغني، أمسكتُ بإحداها وأنا أتفحّصُها وأسألُ أمّي..

– هل حرصتِ على منْحي إيّاه ردًّا للظّلم، أمْ علمتِ ما بين أبي ومُنى؛ فطعنْتِ قلبَه كما طعنَك، أمْ تركتِ لي فتنتَكِ لتفتنَني!؟

وفي لحظةِ شجاعةٍ وتجرّد من بشريّتي، خفتُ أن تفرّ منّي أمسكتُ هاتفي، وقرّرت أنْ أسْتثمره ليس كأمّي الذي كان لها كذهبِ السّامري

الذي صنع منْه إلهًا يُعبَد، بل كموسى- عليه السلام- عندما حرقَه ونسفَه في اليمّ، سأنسفُه وأمتلك به بيتًا ليس على الأرض ولكنْ في السّماء، كانت يدي ترتجفُ، وجسدي ينتفضُ مهابةً وأنا أفتح رسائله الخاصّة، لأوّل مرّة سأكتبُ له بحقيقتي دون ستارٍ خادع.

- السّلام عليكم يا شيخي، أريدُ حضرتك في أمرٍ هامّ.

لم أتلقّ ردًّا فوريًّا كنتُ أتمنّاه، أخشى من نفسي ونوازعها، أخشى أن ترتدّ نفسي الأمّارة بالسوء على نفسي اللّوّامة فتركُلُها، تركتُ رسالتي أمانةً في هاتفه، وقلبي ونيّتي، ورحلتُ إلى نوم سيطرتْ عليه الكوابيس، رأيتُ أمّي تبكي على صندوقِ ذهبِها وأنا أرتفعُ فوقَه، رأيتني مكبّلة بسلاسلَ عتيدة، أشرفُ وأبي يغلقانها، وحسام يفكّ رباطَها وينفضْ عني ترابًا، وفي وسط كلّ هذا رأيتُ "أنوار" تبتسمُ لي وأنا ألبِسُها إحْدى سلاسل أمّي.

أفقتُ ونورُ الشّمس يزاحم ستائرَ الغرفة الثقيلة ليتسلّل، فتحتُها لتدفئني وتملأ روحي بنورٍ أستشعِرُ قدومَه حتّى لو تأخّر، كان أوّل ما فعلتُ عندما امتدّت لي يدُ أنوار بكوب اللّبن الذي لم تنسَهُ يومًا؛ أنْ ألْبسْتُها سلسلةَ أمّي الثقيلة، بهتتْ وملأ العجبُ وجهَها:

- ما هذا؟!

- نصيبُك مِن تركةٍ لم أتمَنّاها ولم أسعدْ بها علّها تهبُك بعضَ السّعادة.

- لكنّها ثمينة جدًّا.

- لا شيء يعزّ عليكِ، أنتِ جانبي الذي لم يتركني، واليدُ التي تتلقّف سقوطي.

تنهّدت وهي تقول:

- يعلمُ الله مقدارَ حبّي لكِ، وكيف أدعو لكِ بالسّكينة وهدوء السّرّ.

ابتسمتُ وأنا أكرّر:

- هدوءُ السّرّ؟

خجلتْ من تكْراري للكلمات، وأجابت:

- نعمْ، أمّي كانت تقول "هدو السّرّ بر"

"هدو السّرّ بر" ثلاثُ كلماتٍ يحملْنَ عالمًا بأكمله في طيّاتهم، لكنّ ذلك الهدوء امتلكتْه هي ببساطتِها، ولم يمتلكه لا أنا ولا مرام التي حملَها الصّباح إليّ كما حمَلَ ردًّا من شيخي، لم أهتمّ به؛ فمرام في حالٍ لا تُحْسد عليه، انْزوت في الكرسي المُقابل للأريكة، رفعتْ قدميْها وتكوّرت فيه كالقطّة، رفضتِ الإفْطار لكنّها شربتِ القهوةَ التي أعدّتها أنوار قبلَ نزولِها وهي تتهادى فرحًا ودلالًا بالسّلسلة الذّهبية فأنبتتْ في قلبي بذرةَ فرحٍ لخيرٍ وفيرٍ مُقْبلٍ، امتلأتْ عينَا مرام غضبًا وقهرًا يمْتزجان مع كلّ معاني النّدم.

- ما الذي حدث؟

- شجارُنا لم ينقطعْ طوالَ اللّيل، أقتربُ من الجنون يا حسناء، ناوليني أيّ مسكّن؛ رأسي سينفجر.

ناولتُها المسكّن وكوبَ ماء، وأنا أطلبُ منها أن تكمِلَ ما بدأتْ، فقالت:

- تزوّجت مِن حازم بعد العدّة مباشرة رغمًا عنْ أمّي، لم ترضَ عنْ طلاقي، والتّخلّي عنْ أولادي وزواجي منْه؛ فقاطعتني.

ثمّ ضحكتْ بسخريةٍ ضحكاتٍ متقطعةً لتكمل:

- ظننتُ أنّي أحارب من أجل الحبّ، وسأنتصر، فهُزمْتُ هزيمةً ساحقةً لم أُمنَحْ فيها حتّى حقّ الانْسحاب، فبقيتُ في أرضِ المعْركة أُقتَلُ كلّ يوم.

- لماذا وقد تزوّجتِ مَن أحبَّكِ وأحببْتِه؟!

علتْ ضحكتُها تلكَ المرّة، ودمعَتْ عيناها وهي تقول:

- ألا تعرفين شيئًا عن دستورِ الرّجال يا حسناء! أنا أيضًا لم أكنْ أعرفُ حتّى وقعتُ قيْدَ اعْتقالِ أحدِ موادّه، وحُكمَ عليّ بالموْت على قيْد الحياة.

- دستورُ الرّجال!

قلتُها بتعجّب، فأجابت:

- نعمْ، في دستورِ الرّجال مادّةٌ تقول "مَن تُحبّ رجلًا وتحادثُه وهي متزوّجة ستحبّ يومًا ما رجلًا آخر وتحادثه حتّى لو تزوّجت مَن أحبّت" وستبقى تلك المرأةُ موْضِعَ شكّ مهْما فعلت.

- حاولي طمأنتَه مِن تجاهك بما يريد.

- هلْ تحسبينَها هيّنة؟ حاولتُ إرضاءه فتقزّمت، تركتُ عملي، قاطعتُ النّادي الذي أرى فيه أولادي، جَعَلتني قيْدَ اعْتقاله، لكنْ كلّ هذا لم يشفع.

- حتّى ولوْ كان، ألمْ يخطئ هو أيضًا بتقرّبِه من امرأةٍ متزوّجة؟!

تكرّرتْ ضحكتُها، وردّدت بمرارة:

- دستورُهم يقول "الرّجالُ لا يخطئون"، هو رجلٌ يفعلُ ما يشاء، وهذا ما أسمعُه صباحًا ومساءً، أعيشُ في نار الشكّ والظّنون مع كلّ حركةٍ والتفاتة، مع كلّ نفَسِ هواء أو رشفةِ ماء.

لم تكنْ تنتظر منّي إجابات، كانت تريدُ الحديث والفضْفَضة فقط.

- هل تعرفينَ آخرَ ما آلتْ إليه نفسُه، يريدُ أن يسحبَّ منّي هاتفي!

أذهلتني كلماتُها لفترة، لكنّني تراجعت، يخشى بالطبع من عالم التّواصل الاجتماعي! أوسعُ بوابةٍ في الوجود، والتي لا تغلِقُ بابَها ليلًا أو نهارًا.

- وهل قبلتِ؟

- لا لمْ أقبَل، لا لشيء إلّا لأنّه الوسيلةُ الوحيدة لاتّصالي بأولادي.

- دافعي عن حقّك الوحيدِ الباقي في أولادك بعد ما حدث، قولي له هذا.

قلتُها بعصبيّة خوفًا عليها مِن فقدان مشاعر أولادها، الأبناءُ قدْ يُسامحون الأبَ إنْ تخلّى لكنّهم أبدًا لا يستطيعون سماح الأمّ في هذا، لا تحيّزًا لكنْ لأنّها معنى الحبّ والحنان، فكيف يتحوّلان لتخلٍّ وخُذلان!

- قلتُ يا حسناء وأكْثَر، ردّ قائلًا "اطمئنّي عليهم مِن هاتفي في وجودي".

وضعتْ يدَها على رأسٍ فَقَدَ حيلتَه وأعْياه الألم، لم أجدْ في جُعبتي ما أنْصحُها به، أرى نفسي في مرآتها إنْ حدث وتزوّجت "محمد"، استأذَنتْ في الانصراف، وتركتني لخيالي الذي سار بي على شاطئ حبّي الوحيد، أستسلم لهدير أمْواجه لتتلاعب بقلبي.

أفقتُ من لحظاتٍ هادئة لرسالةِ شيخي التي كان نصُّها:

- وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته، تحت أمْرك في أيّ شيء.

أجبتُ بالقليل:

- أمتلِكُ ذهبًا كثيرًا، أريد أن أخْرِجَه في وجْهٍ من وجوه الخير.

وضعتُ هاتفي في جيب بنطالي، وتوجّهت للمطبخ لأعدّ كوبًا من الشّاي، رنّ جرسُ رسائلي، توقّعتها من شيخي؛

إلّا أنّها كانت من أشرف..

- حسناء، كيف حالُك، ما رأيُك لو نتناولُ الغداء معًا بعد عودةِ الأولاد؟ مبادرةٌ لتلتقي أيادينا بعد فراق.

الحيرةُ تمزّقني، كلّ المشاهد تمرّ أمامَ عيني بين حروف رسالتِه، تحدّيه وجفاؤه، محمّد وعودتُه لزوْجته، وليد وغدرُه، مرام وهاوية حبّها التي ابتلعتها، أبي وزواجه من مُنَى بعد رحيلِ حسام، أصبح القرارُ صعبًا، في السّابق كنت أعرف ما أريد، تهتُ فاخْتلط عليّ الأمر، وأمام تردّدي همسَ طيفُ حسام "أريدُ منْك التّفتيش جيدًا في أوراقِ حياتك علّك تجدين سطرًا مُضيئًا تستطيعينَ به إكمالَ حياةٍ جديدةٍ مع أشرف.."

سأوافقُ، فلعلّ الخير يأتي من أبعدِ الأبواب عنْ عقولنا وأكثرها إغلاقًا في وجوهنا.

سأوافق لعلّ الخيرَ يأتي من أبعدِ الأبواب عن عقولنا وأكثرِها إغلاقًا في وجوهنا، انتظرتُ مجيء أحمد وآلاء وتأهّبنا للخروج، لم ننتظرْ طويلًا حتّى رنّ جرسُ الباب، وظهر أشرف من ورائه بابتسامةٍ عريضة مع صيْحات الأولاد يتقافزان حوله، لا أعرفُ لماذا لم تقنعني ابتسامتُه، قلبي يحدّثني أنّ في الأمر شيئًا لكنّي سأتحلّى بالصّبر والاتّزان، ولَمَ التّسرّع! الخيوطُ التي خنقتني طويلًا أصبحتْ كلُّها في يدي؛ أبي رحل عن عالمي بجناحيْن لن يحلّق بهما بعيدًا كما يعتقد، ولن يتحكّم بي مرّة أخرى، حسام وعدني بأنْ يحقّق لي ما سأختار، ميراثي من أمّي حتّى بعد تبرّعي بالذّهب سيمنحني حياةً مستقبلية آمنة، دونَ الحاجة لأحد، أشرف رفعَ الرّاية البيضاء على عصا أخشى أنّها كعصا سحرةِ فرعون، لذلك سأتوخّى الحذر ولنْ أقتربَ إلّا عندما يمنحني الأمانَ والإحساس بكياني كاملًا غير منقوص.

جلستنا في النّادي كانتْ جميلة، على عكس ما توقّعت، فرحة الأولاد بوجودِه صبغتْ قلبي بألوانِ سعادةٍ بعد رمادية طالت، حالُنا كأسْرةٍ منَحني دفئًا كنتُ أتمنّاه منذُ وقتٍ طويل، لاحظت تغيّرًا في روح أشرف، ليس تمثيلًا؛ بل حقيقة، لأوّل مرّة يسألني:

- أتمنّى أن أكونَ قدْ منحتُك ولو قليلًا من السعادة.

السّعادة! هل كانتْ تلك الكلمة في قاموسِه طيلة تلك الأعوام ولم يكشفْ عنها إلّا الآن، لكنْ لماذا كشفَ عنها؟ أم أنّها لم تكنْ فيه ووضعَها

حديثًا؟ حالُه يثيرُ عجبي، لقد أنفقَ ما لم ينفقْه علينا يومًا، اشترى لكلٍّ من الأولاد هديةً غالية، وفعلَ ما لم يفعلْه منذ أنْ ألبسني شبكتي عندما توقّف أمام محلّ ذهبٍ واختار لي محبسًا وضعَهُ في أصبعي وهو يقبّل كفّي برقّة أفقدتني الشّعور بالمكان والزمان.

- اعتبريها دبلةَ خطبةٍ جديدة.

لنْ أكذب الآن وأنا أتذكّر، لقد خطفَ وعيي، وحفّز كياني النّاقم عليه ليستجيب، لكنّي أفقتُ نفسي وذكّرتُها بالتّأنّي، فالغدُ فقط هو مَن سيجيبُ على التّساؤلات المُبْهمة التي تلتهمُ عقلي.

حَملَ المساءُ ردًّا مِن الشّيخ محمود فتبادلنا الرسائل..

- جزاكِ الله خيرًا على ما تنوين فعْلَه، أوْجُه الخير كثيرة، نختارُ منها على قدْر المال.

- المالُ، ولله الحمد، وفيرٌ.

- أينَ تسكنين؟

- بالمعادي.

- بعدَ غدٍ سألقي درسًا في جامعٍ بالمعادي، نتقابل هناك بإذنِ الله.

- بإذن الله.

يُعجبني أنّه لا يطيل الكلام، يقصد هدفَه مباشرة دون الخوض فيما لا يفيد، قاطعٌ وواضحٌ وصريح، لماذا لا يكون العالمُ كلُّه كالماءِ الرّائق الشّفاف مثله؛ نرى دواخلَه دونَ زيف أو خداع أو تلوّن، جالَ في خاطري زوجُ مرام،

لماذا لم يقسْ قدراته الرّجولية في الصّبر والشّجاعة والالتزام بقراراته قبل أن ينقضّ على بيتها فيهدمُ أمانَه؟ لماذا يعاقبها هي فقط بما اقترفاه معًا؟ أفاقني مِن أفكاري تتابُعُ جرس الباب بصورةٍ جنونيّة، أسرعتُ إليه أخشى استيقاظَ أحمد وآلاء، فلم تكنْ إلّا هي.. مرام. كانتْ بقميصِ نوم ارْتدت فوقَه شالًا، وشعْرٍ ثائر، وعيونٍ دامعة، ووجهٍ احْمرّ إمّا بصفعاتٍ أو لَطم خدّين، أزاحتِ البابَ ودخلتْ مسرعة، بينما هوَ يُهرول خلفَها، أغلقتُ البابَ في وجهِه سريعًا، وحادثتُه مِن خلفه:

- لا أحد هنا سِواي، لا يُمكن أن أدخلك في مثلِ هذا الوقت، ستبيتُ مرام عندي الليلة، وتحدّثا صباحًا في شقتكما.

أظنّه خافَ من الضّجيج الذي جعلَ بعضَ أبواب الشّقق تُفتح، وأطلّ منها أهلُها فرَحَل بسلام، وأغلقَ خلفَه باب شقته، كانت مرامُ ترتعدُ كطفلٍ بائسٍ لا يمتلكُ ملابس شتويةَ تحميه من المَطر، حافيةً كفتاةٍ مُهْملة على أحدِ الأرصفة تتسوّل حنان المارّة، شاردةً كعجوز تركها أبناؤها وحيدةً ورحلوا عنها بلا رجْعة، نادمةً كقاتلةٍ في قفص محاكمة أحالوا أوراقَها إلى مفْتي الدّيار، احتضنتُها وربتُّ على كتفِها، وأخذتُ بيدِها إلى غرفتي، غبتُ عنها قليلًا لأعدّ لها كوبًا من الشّاي يدفئ قلبَها المتجمّد، قالتْ وهي تتناوله:

- لم يعدْ شيء يخمدُ نارَ شكّه، تزدادُ يومًا عن آخر، إلى أن اتّهمني اليومَ بـ........

اختنقتْ ولم تطاوعْها الكلمات، بينما انْهمرتْ دموعُ عينيها مرّةً أخرى، توقّعت أنّها ستتوقّف هنا؛ فالأمرُ يبْدو جللًا، لكنّها كانت كمَن قرّرتْ أن تتقيأ ألَمها كلّه لتستريح..

- اتّهمني أنّ حمْلي ليسَ منْه، وأنّه مِن المُمكن أنْ أكون على علاقةٍ بآخر، كما كنتُ على علاقةٍ به وأنا متزوّجة.

اندهشتُ لكلماتِها الأخيرة، فأسرعتُ بلهفة:

- وهل كانتْ بينكُما علاقةٌ محرّمة قبْلَ زواجكما؟

هزّت رأسَها بضعفٍ قبل أن تقول:

- أقسِمُ بالذي خلقني أنّه لم يمسّ يومًا ولو أصبعًا من أصابعي قبْلَ الزّواج، لم أخرجْ معه ولم يوصلني بسيّارته، علاقتنا كانتْ من خلال العملِ فقط، قولي لي يا حسناءُ ماذا أفعل؟ أنا وحيدةٌ أقفُ حائرةً في منتصف الطريق بأيدي فارغة وقلبٍ كسير.

لا أدري ماذا أقول، كلّ ما كان يشغلُ بالي حينها هل كانت قصّتها ستتكرّر معي لو تزوّجتُ "محمد"؟ وهل دستورُ الرّجال الذي تحدّثتْ عنه يشملُهم جميعًا، أم أنّ هناك استثناءات؟ لكنّ ما أتأكّد منه أنني لنْ أخذلها وأقفَ منها موقفَ المتفرّج كما خذلتُ مريم من قبْل، لن أحملَ في عنقي ذنبَيْن، تكفيني ذنوبي، فأسرعتُ أقول:

- اذهبي إلى أمّك، اعترفي لها بذنبك، وألقي بنفسك في احضانها، واتْرُكيها تقرّر معك ما سيكون، عندما يفشلُ الصّغار في إدارةِ أمورهم يجبُ أن يبحثوا عن حكمة الكبار

- وهل ستتقبلني؟

- إنْ كانت أمًّا حقيقيّة ستتقبلك.

قلتُها بامتعاضٍ، وطيفُ أمّي يلوح في عقلي.

تردّدتْ بنظراتِها قليلًا، ثمّ قالت:

- صدقْت يا حسناء، أمّي امرأةٌ قويّة وعاقلة وتحبّني، دومًا ما كانتْ أمًّا لا مثيل لها، حقًّا لم أستمعْ لنُصْحها لكنّها الوحيدة التي ستقفُ بجانبي، ادْعي لي أنْ تتقبّلني يا حسناء، لكنْ كيف سأفعلُها؟

أجبتُها بقوّةٍ وخبرةٍ لا أعرفُ كيف وصلتُ إليهما، ومتى؟!

- لنْ ننتظره، سترتدي شيئًا من ملابسي، وسننزل مع أحمد وآلاء صباحًا، وسأوصلك بنفسي إلى بيت أمّك.

- لا أعرفُ كيف أشكرُك يا حسناء.

- كلماتُ الشّكر لا توجد بين الصّديقات، اجعليها للغرباء.

كان مساءً غيرَ عاديّ لمْ يطرق النومُ بابَ حجرتي، سبحتْ كلٌّ منّا في بحْرها الهائج، وسفينتِها التي لا تريدُ أن ترسو على شاطئ أمان.

كان مساءً غيرَ عاديّ، وكذلك كان الصباح، ملأته المغامرة والحَذَر، نبّهت أولادي بعدم إصدارِ أيّ صوتٍ فلبّوا طلبي ببراءة، لم نستدعِ المصْعدَ بل نزلْنا على السلالم بهدوء، تنفّسنا الصّعداء مع أوّل تحرّكٍ لعجلات سيارتي، انطلقنا بعيدًا عنِ البيتِ فأخرجتْ أنفاسَها المكتومة في تنهيدةٍ حارقة، وأمامَ باب عمارةٍ عتيقة نزلنا من السيّارة لنرتفع بالمصعد إلى شقّتها، الْتهَمَها التّردّد أمام الجرس، اقتربَ أصبعها وابتعدَ أكثرَ مِن مرّة، فاضْطررتُ أن أقتحمَ الموقفَ، وضربتُه بدلًا عنْها، فتحتْ لنا البابَ امرأةٌ تقتربُ من السّتين، ملابسُها عادية، ليستْ أنيقةً كأمّي رحمها الله، أم مصريّة أصيلة بملامِحِها الطيّبة الودودة التي تبدلّت بعُبوسٍ استشعرته زائفًا عند رؤيتِها لمرام، ساد صمتٌ لم تفسح لنا فيه الطّريق، لكنّها أيضًا لم تغلقِ البابَ في وجهنا، عرفتُ من ملامحِها أنّها تحتاجُ لبضع كلماتٍ دافئة تزيلُ طبقةَ الشّمع التي علقت بقلبها، فقلتُ:

- احْتضِنيها فهي في أشدّ الحاجة إليكِ.

لم أكملْ كلماتي إلّا وانْهارت مرام في حضنِها الذي أظنّه كان دافئًا بدفء العالم أجمع، وحانيًا بحنوّ الطّيور على صغارها في أعشاشِها الآمنة، لفّتها أمّها بيديْن نالتْ منهما الشيخوخة لكنْ لم تنلْ منْهُما القسوة، بكتْ معها على ما لم تعرفْه بعد لكنّ قلبَها كان ينبض به.

- كنتُ أعلمُ أنّه لن يصونك وسيعذّبك، أخطأتِ خطأً لو بكيتِ العمرَ لن تغسله مياهُ عينيك عندما فرّطت في رجلٍ من أجل طفل.

كانت مُحقّة، تلفتّ حولي، سرٌّ ما يقبعُ بين تلك الجدران، يلفّها هدوءٌ وأمان وسلامٌ لم أحظَ بهم يومًا، أغمضتُ عيني أسْتمتع بذلك الإحساسِ الذي غمرني، والذي جعلني أتساءل، هل كانتْ مرام في حاجةٍ إلى رجلٍ غيرِ زوْجها في ظلّ كاملِ رجولتِه ووجود ذلك المنبع الحاني؟

كنّا نحْتسي الشّاي، ونظراتُ اللّوم والعِتاب والنّدم تتواصلُ بيْن عيونهما، آثرتُ الصّمت، ومرامُ تحكي لأمّها ما لحقَ بها طيلةَ شهريْن، غابتْ أمّها بعينيْن جاحظتَيْن يتّقدان شرَرًا بعيدًا عندما لفظتْ مرام بآخرِ كلماتِها:

– لقدِ اتّهمني أنّ حمْلي ليس منْه، أخطأتُ لكنّي لم أتحمّلِ الطّعنَ في شرفي، أخطأتُ لكنّي أعلمُ أنّك ستغفرين.

ضاقتْ عيناها، وزمّت شفتيْها، وهي تقول:

– لا عودةَ لكِ إليه، بيتُ أبيك مفتوحٌ على مصراعيه.

عادتْ مرام فاستأذنتُ بالانصراف، كنتُ أقودُ سيّارتي ودموعي لا تتوقّف رغمًا عنّي، ليتَ لي مثلَ هذا البيت الذي لا يُغلق بابُه، ومثلَ تلك الأمّ التي لا توصدُ حضنَها وقلبَها، ومثلَ هذا الرجل الذي لم يقبَلْ أنْ تعيش معه زوجة رغماً عنْها، فحرّرها على أملِ العودة، ليتني هي مرام، لكنّي حسناء وسأظلّ، فإلى أينَ الهروب منّي! أعتقَدُ أنّه لا هروب منّي إلّا إليه، إلى خالقي، لكنْ أين ذلك الوقودُ الذي سيُشعل قوّتي الدّاخلية لأفرّ إليه حقَّ الفرار، لو يصدُق أشرف في عودتِه ويعوّضني عمري الذي ضاع، ويُحيي شبابي الذي ذبُل، فأنا امرأة، مجرّد امرأةٍ تريد رجلًا حقيقيًّا يحتوي ضعفَها واحتياجَها، عندها فقط سأستردّ حسناء، وسأعتبرُ ما مضى درسًا قاسيًا صهرَني ومَحّصني، وأخْرجَ شوائبي العالقة، وقوّى معْدني، لكنْ إنْ لم يكنْ فماذا سأفعل؟

الغدُ حَمَلَ معه لقاءً كنتُ أتمنّاه منذُ أغلقت حساب مريم، قابلتُ شيخي بعد درْس العلم الذي ألقاه بعد صلاة العصر في مسجد جنّة الفردوس، وقفتُ أمام سيّارتي في انتظاره، خرج وحولَه الكثيرُ مِن السّائلين، يا لَهُدوء نفسِه الذي يجعله لا يصدّ أحدًا، تزيّن ملامحَه ابتسامةٌ وقورة، اتّجه نحوي وابتسامتُه لا تغادر وجْهَه..

- السّلام عليكم، سامحيني أنْ تأخّرتُ عليكِ.

لا أعرفُ لماذا ترتفعُ دماءُ الخجل إلى وجْهي أمامَه، هل أخجلُ من الله فيه، أمْ أخجلُ منْه لتلاعبي به، أمْ أخجلُ من نفسي التّائهة الآثمة؟!

- لا عليك يا شيخي.

- هل تعرفينَ معْنى كلمة المدد؟

هززتُ رأسي بالرّفض، اتّسعت ابتسامتُه وهو يشيرُ إليّ بالدّخول إلى المسجدِ حيث غرفة الإدارة، جلسنا على كرسيّيْن متقابلين، ثمّ قال:

- المددُ هوَ الغوثُ والعونُ الذي يأتي بعد مشقّة وتعبٍ، وفي الحروب يأتي ليدعم الجيش ليحقّق النّصر بعد مشارفةِ الهزيمة.

ملأتِ الدّهشة عيني، وأجبتُ بابتسامةِ خجل:

- ولكنْ ما علاقة هذا بي؟

- أنت المَدَد.

قالَها بثقةٍ وهو يتنهّد ويهزّ رأسَه عجبًا..

رفعتُ كفّي ووضعتُه على صدْري في حركةٍ تلقائيّة، وقد تلألأتْ في عيني دموعٌ، وأنا أتعجّب قائلة:

- أنا المَدَد!

- نعم، أنتِ عونُ الله لي، كنت أعدّ حملةً للدول الإسلامية الفَقيرة في أفريقيا والمحاصرة بالجوع والفقر والمرض والجهل، وبالرّغم مِن هذا هُم يصرّون على إسلامهم، فلم تَفِ التبرّعات بالمطلوب، كنت سأؤجّلها وقلبي يتمزّق حزنًا، أتتْ رسالتُك لتفتحَ الطّريق بعد إغلاق، عرفتِ أنّك مددٌ من الله!؟

أخفضتُ رأسي أرضًا إلى حيث يجبُ أن تكون، المددُ كان له، أعانَه الله بي لأنّه يستحقّ.

- الذّهب تحتَ أمْرك في أيّ وقت، والحمدُ لله أنّه سيذهب في موْضِعه.

- ثِقي أنّ هذا أعظمُ عملٍ يُمكن أن يوجّه فيه، سنحفرُ لهم أبيارَ ماءٍ، ونطعمُهُم ونكْسوهُم، ونقدّمُ لهم مساعداتٍ علاجيّة ونبني لهم مقرأةَ قرآن.

اسْتجمعتُ شجاعتي، فأجبْت:

- لكنّي لا أستحقّ تلك الكلمة، صدّقني.

ثمّ لمعتْ في عيني الدّموع، فقال:

- قالَ تعالى ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حتّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، لقدْ أنفقتِ ممّا يحبّ النّساء ولم تكنزيه، وسيضاعفه الله لكِ أضعافًا وسترَيْن، لمَ لا تثقين في أنّ الله يناديكِ!

تهاوتْ قدْرتي على التّماسك، فسالتْ دموعي أكثر، هذا الذي يجلسُ أمامي ويقول عنّي المدد؛ هو ذاتُه مَن تلاعبتُ به يومًا وتمثّلت له في شيطانةٍ دخلت حياتَه من حيث لا يدري، لو يعلمُ ما اقترفتُ في حقّه! لو عرفَ ما قبْلها وما بعْدها هل كان سيسمّيني بالمدد؟!

- أنا لستُ المَدد، أنا مَن تريدُ مددًا.

ثمّ ألقيتُ برأسي على المكتب الذي أمامي، وانْهرتُ في بكاءٍ عنيف، فجاءتْ كلماتُه بنبرة حانية:

- سيأتيكِ، ثقي مِن هذا، حتّى لو كنتِ تُعانين محنةً فالله وحده يعلمُ لماذا، كوني على ثقةٍ أنّ مدَدَك سيأتي عندما يحينُ وقتُ وصولِه، سيلوحُ في الأفق، لكنْ كلّ ما عليكِ أنْ تترقّبيه بقلب مُنيب موصولٍ بحبّ الله.

رفعتُ رأسي، وجفّفتُ دموعي بكفّي وأنا أرجوه..

- ادْعُ لي بالسّتر وصلاحِ الحال.

- سأدعو لكِ بظاهرِ الغيْب، واللهُ وحده يعلمُ القريبَ من البعيد، قدْ تكونينَ أنتِ أقربَ ممّا تظنّين، وأنا أبعدُ ممّا تتخيّلين، اللهُ وحده يعلمُ خائنةَ الأعْين وما تخفي الصدور.

اللهُ وحده يعلمُ خائنةَ الأعْين وما تُخفي الصّدور، وأنا صدري يخفي ما يضيقُ به، يخفي حبًّا رحلَ، وجسدًا تمنّى، ونفسًا جاعتْ وشبِعَت مِن حرام، يُخفي روحًا تمزّقت وتشتّت بين حسناء ومريم وحور ومرام التي غابتْ ولم أعرفْ عنها شيئًا لفترةٍ طالت، أخشى الاتّصال على هاتِفِها فالشّقّة مُغْلقة منذ شهرٍ حدثَ فيه الكثير، صندوقُ الذّهب الذي جمعتْه أمّي في سنواتٍ بيع في لحظات بمبلغ ضخْم، ورحَلَ إلى حيث يجبُ أن يكون، رحلَ وأخذَ معَهُ فتنتَه وقصّتَه، رحلَ واتّسع صدْري برَحيلِه، وانتفضَ قلْبي طربًا كوني تخلّصتُ من لعنتِه قبل أنْ تُصيبني فكفاني لَعَنات، ابتسمتُ وأنا أتخيّل منظرَ أبي لوْ علم ما حدثَ لصُندوقِه الذي نالَ حقّه اسْتمتاعًا، هل غضبَ لأنّه كان ينْوي أنْ يمنحَه لمُنَى قطعةً قطعة، ويلتهِمُها به كما كان يفعلُ مع أمّي فيُعيد به كرّةَ زمان، رحَلَ وولّى ويستردّ به شبابَه بشبابِها؟ اتّسعتِ ابتسامتي وأنا أتذكّر "أنوار" عندما عرفت ما حدثَ يومَ أن جاءَ شيخي إلى بيتي مع رجليْن وتسلّمه، فانطلقتْ مهلّلة سعيدة، وقالت:

– الله أكبر "مالُ الكُنَزي للنُّزَهي".

لم أفهمْ فشرحتْ لي أنّه مثلٌ يعني أنّ مَن يكْنِز مالَه يقعُ بعد ذلكَ في يدِ مَن يُنفقه.

دومًا ما تصدُقُ بساطتُها وشفافيتُها، حقًّا ما نحيا نكنزه دهرًا قدْ يُنفقه غيرُنا في أيّام، سعيدة هي مِن عودة العلاقات بيني وبيْنَ أشرف، تحفّزني دومًا على العودةِ والتمتّع بالاسْتقرار، وزادَ مِن اقْتناعي ما حدثَ بعدها عندما دقّ

جرسُ الباب عصرًا على غيرِ موْعد، تهلّلتْ أساريري عندما وجدتُها أمامي بابتسامةٍ باهتة..

- كيف حالُك يا مرام؟

- بخير، نصيحتُك كانت في موْضِعها، لمْ تحرمْني أمّي حمايتَها، قضيتُ عنْدها ليالي طويلة لا أعرف مصيري، لم تتقبّل أَنْ تُطْعَن ابنتُها في شرفِها، ألقتْ عليّ حمَمَ غضب ولوم وتأنيب أحْرقتني لكنّني تحمّلت، انتظرنا حازم حتّى جاء وفتحْنا الخُرّاج الّذي نزفَ الكثيرَ من القيْح والدّم والألم والنّدم، بعدها لم يكنْ هناك إلّا الانْفصال يلوّح لنا بالفراق، هلَ تعْلَمين، شعرتُ يومَ طَلاقي منْه أنّنا افترقنا يوم لقائنا الأوّل الذي ما كان يجبُ أن يكون، وكأنّ جنيني شعَرَ بنا فانْفصَلَ هو الآخر عن حياةٍ لا يريدُه أحدُنا فيها.

شحوبُ وجْهِها كان يقرّ بما تقول وأكثر، من قبل كان ألمًا وحزنًا تبدّلا أسفًا وندمًا.

- هل أشعرُ بالنّدم في ملامحك، أم أنّ هذا وهْمٌ؟

تلألأتْ في عينيها دمعات، وملأ صوتها انكسار وهي تقول:

- لا، ليس وهمًا، نادمةٌ على معرفته، نادمةٌ على زوْجي الأوّل وضياع أبنائي منّي، كان يمكن أنْ أجد في زوجي ما يُرضيني، لكنّني ما التفتّ إلى لمَا نَزَع الرّضا من داخلي، ألقيت بكلّ حصادي لنار الغباء يا حسناء؛ فالْتهَمْته عنْ آخره، ولم تتركْ لي إلّا رمادَ الماضي يحملُ أثرَ خطواتي الذّليلة بقعًا غائرة لنْ يمحُها ندم.

ربتّ على كتفِها، والشّفقة تحتلّني:

- ألم يقلْ زوجُك أنّه سيبقى في الانتظار؟

هزّت رأسَها، وبسخرية ملأتْ ملامحَها وصوتَها مع ضحكاتٍ متقطّعة قالت:

- ألمْ أقلْ لك إنّك لا تعرفين شيئًا عن دستورِ الرّجال يا حسناء!

توقّفت ضحكاتُها، وظهرتْ ملامحُ الجمود على وجهها، وأكملَتْ بأسى:

- سيبقى في الانْتظار بشرطِ عدم وجودِ آخر، في دستور الرّجال يُمكن للرّجل أن يُطلّق امرأته ويتركَ لها أولادَه، ولا ينفقُ عليهم، ثمّ يتزوّج بأخرى يلْهو ويسعد، فإنْ عانى الفشل وعادَ؛ يجتمع على المرأةِ لعناتُه ولعناتُ أهل الأرض إنْ رفضَتْ عودته، أمّا المرأة فتجتمعُ عليها لعناتُه ولعناتُ أهل الأرض إنْ حاولت العودةَ بعد ما كان منها، تجربةُ الرّجل نزوةٌ أفاقَ منها وحمدًا لله على عودته، وتجربةُ المرأة خيانة وإجرامٌ، وتعسًا لها.

أردتُ أن أغيّر حالَها؛ فقلت بسخرية:

- لكنّ التّجربة أفادتك، وأصبحتِ خبيرةً في دستور الرجال.

ابتسمتِ ابتسامةَ الموناليزا، وعيناها تحمل حزنًا دفينًا:

- لقد خطبَ صديقتي الطيّبة، أحسنَ إذْ فعل؛ سأطمئنّ على أبنائي معها، لن أقولَ إلّا أنّ الله عوّضه عنّي خيرًا.

شردتْ بعيدًا إلى حيثُ طيْف أبنائها، وشردتُ أنا في حالي، زادتْ شمسُ الغروب الموقفَ حزنًا، والقلبَ ألمًا، تجربتها القاسية أضاءت بداخلي وَمَضات، هل عليّ أن أعيدَ حساباتي التي أغلقتُها؟ هل يمكن أن أجدَ في أشرف ما خفيَ عنّي، وكلماتُ حسام الأخيرة ترنّ في أذني "أريدُ منك التّفتيش جيدًا في أوراقِ حياتك؛ علّك تجدينَ سطرًا مُضيئًا تستطيعين به إكمالَ حياةٍ جديدة مع أشرف"، هل يمكن أن أجدَ هذا السّطر؟ أن أجدَ بداخله بذرةَ أملٍ فأرْويها أو نقطةَ نورٍ فأسير نحْوها؟ هل يجبُ أن أفعل قبلَ فواتِ الأوان كما حدثَ مع مرام؟ لكن ما زالتِ المقارنةُ معقودةً بداخلي، أين أشرف من زوْج مرام الذي منحَها الطّلاق بكلّ رجولة، وحرّرها ليكون لها الاخْتيار ممّن حبَسَها، وما وجْهُ المقارنة بين مَن أطلقَ العصفور حتّى وإنْ أغْلِق بابُ القفَص في وجْهِه لأنّه تآلف مع غيره وبيْن مَن ارْتقبَ الأنفاس الأخيرة لعصفورٍ حبيس جائع ظمآن، تلك الصّورة التي رسَمَها لي لا تغادرُ خيالي، أخشى أنْ أقع تحت قبْضتِه مرّة أخرى؛ فأصبح هذا العصفورَ المسكين، فهل يمكنُ لقلبٍ ساديّ مثله أن يرقّ ويحِنّ ويجبرَ كسْرَ السنين؟

هل يمكنُ لقلب ساديّ مثله أن يرقّ ويحِنَّ ويجبرَ كسْرَ السّنين؟ أين هو مِن شيخي الذي رحلَ ليُشبعِ لا ليُجيع، ليرحمَ لا ليطْغَى، ليحرّر لا ليستعبد؛ لكنّي ما زلت أسيرُ نحْوه حتّى لا ألومَ نفسي يومًا، هو صدقًا يحاول، وأنا يجبُ أن أفعل علّنَا نلتقي في نقطةٍ كما فعل محمّد وزوجته.

اعتادَ أشرف على اصْطحابنا في أماكنَ كثيرة لم نكنْ نعرف عنْها شيئًا في السابق، وكنتُ أستجيب، لاحظتُ أنّه يأكل القليلَ من الطعام مبتعدًا عن أصنافٍ كثيرة كان يحبّها؛ بل ويعشقُها، يحاول الاختلاءَ بي قدْرَ اسْتطاعته والحديثَ معي وأنا أحاولُ بعضَ الفرار.

– اشتقتُ إلى بيتنا وغرفتنا، إلى رائحتِك وملْمَسك، اشتقت حتّى إلى طعامك المُحْترق الذي كنت أثورُ عليه، اشتقتُ إليكِ يا حسناء.

الكلامُ يغطّيه عسل، أشعرُ أنّ النّحل يقبع بين قطراته يتأهّب لِلَدْغى، لم أعترضْ.. ولم أستجبْ؛ فأكمل:

– دعينا نعود، أوصلكم ولا أرحل، تنامين الليلةَ في أحضاني التي اشتاقتْ لِلَمْستك.

اندفعتْ دماءُ أنوثتي في وجهي، وتنهّدت تنهيدةَ اشتياقٍ لما يقول، ولمَ لا!! أنا امرأةٌ وهو زوجي، هوَ نادم وأنا أخطأت وسنلتقي عند نقطةِ العفْو.

انتشَى بصمتي الذي قال ما لم أستطعْ قوله.

- السّكوت دومًا علامةُ الرّضا.

جلستُ بجانبه أشعرُ لأوّل مرّة بارتياح نفسي، والأمنياتُ تتسابقُ مع نسمات الليل، سألتحفُ بأمانه وعودته، سأحفز حنانَه وأفجّره أيْنما كان، سأهدم الحائطَ السميك الذي بنيناه معًا، سأستمتعُ به كما سيستمتعُ بي، أو فلنقلْ سنستمتعُ معًا، ولِمَ لا!! أليسَ زوجي وهذا حقّي، سأطلبُ ما أريد وأحقّق ما أشتهي، سأتدلّل وأخْرِج أنوثتي المدفونة علّها تلين قلبَه الجافّ، كان ينظرُ لي من آنٍ لآخرَ ويبْتَسم، بدا رقيقًا وهو ينزلُ من السّيارة ليشتري لنا حلوى بمناسبة العودة، طلبت آلاء سماعَ بعضِ الأغاني، فتحتُ درجَ السيّارة أبحث عن أسطوانة، وجدتُ الكثيرَ من إسطوانات الحبّ المختومة بشفايفَ حمراء وبنية وبنفسجية ووردية، أغمضتُ عيني أتناسَى رؤيتها، وفي ركنٍ مظلم هناك كان ردُّ سؤالي يقبع فيه متواريًا، علبةُ دواءِ أنسولين وأخرى لا تدلُّ إلّا على خوارِ قوّة الرّجولة وتراجعها، أصيبَ أشرف بداءِ السّكري وتخطّى الخامسة والأربعين، الآن فهمتُ لماذا لا يأكل كما كان؟ لماذا تخلّى عن متعة أنفاس العصفورِ الأخيرة؟ يريدُ الآن أن يطيل عمرَ العصفور لأنّه الوحيد الذي سيستطيعُ أن ينهشَ ما تبقّى من لحمه ليغذّي رجولتَه التي بدأتْ في التّراجع، البروازُ الذي سيحفظ كرامته حتّى وإن كان ممزّقًا، يريدُ ما تبقّى منّي ليكتمل، يريد باقي لحمي ليسترَ به هيكلَه العظْميّ، ألم يفكّر في احتياجي الذي لم يوفّه يومًا؟ عاد بعد أنِ انْقضّ ليهدم أطلالي لا ليبنيني من جديد، حقًّا لا يمكن أن يتحوّل الذئبُ يومًا إلى حَملٍ، ولا يمكن أن يبني الأطلالَ هادمٌ.

يا لَحَسْرتي وقد انقضّ غزلُ أحلامي، وكُسرت قارورةُ الأمان التي تمنّيت أنْ أحتمي بداخلها قبل أن أفتح غطاءها، كان غزلًا واهمًا وقارورةً معْتِمة أخْفتْ بداخلها جنّيّ مُخيف لا يحقّق الأحلام؛ بل يسحبُها للظلام، لكن كيف سأدخِلُ الجنّي قارورتَه وأنا وحيدة، أبي العجوز يمرحُ مع فتاته التي تصْغُرني عمرًا، حسام تركنا وراءَ ظهره ورَحَل، حتّى شيخي في رحلته التي لنْ تنتهي قبل شهورٍ طويلة، بمَن أستعينُ في تلك اللّحظة التي قد يكون ثمنُها ما تبقّى لي من أنفاس.

عاد إلى السّيارة فوجَدَني أحملُ بين يدي ما وجدت، خلعَ وجْه الحمَلِ الذي تحمّله على مضَضٍ طويلًا، وأظهْرَ وجهَه القَبيح، تناول ما بيدي، وألقاه في الدّرج بعصبيّة:

- لماذا تفتّشين في أدراجي، لا حقّ لكِ في ذلك، لا حقّ لكِ.

لم أرُدّ، لوَى ذراعي بقوّة أمامَ أعْين الأولادِ اللّذيْن أفزعهما صراخُه، فانْهارَا في بكاءٍ عنيف.

- أنتِ زوْجتي على أيّ وضع، وأيّ حال، ولن تكوني إلّا كذلك.

- أنا لم أفتّش خلفَك، الحقيقةُ هي مَن أرادت الخروج، لن أكونَ مرّة أخرى وقودًا لنارك المسْتعرة، لنْ أكون.

ارتفعَ صوتُه كالمجنون، كالقنّاص الذي أفلتتْ منه فريسته، أفلَتُ يدي بقوّة من بين يديه، أخرجتُ هاتفى وهو يرتعُ في جنونِه، وفي لحظةٍ واحدة جاءَ صوتُ حسام فزعًا:

- ماذا حدث؟ ما هذا الصّراخ الذي حولك؟!

أجبتُ بكلمات قليلة:

- تعالَ وطلّقني، لن أستمرّ في تلك المهزلة أكثرَ من هذا.

قالَها شيخي وصدق، لم يحرمْني الله المدد، لم يتركْني في وحْدتي وشَتاتي، أنوار وزوجُها كانا يجلسان أمامَ باب العِمارة عند وصولي، لَمَحتني واسْتشعرت بطيبتها ما بي، أمسكتْ بالأولاد، والضّيقُ قد استبدّ بهما وهي تلمزُ "كرم" بيدِها، ناولتُها مفتاحَ الباب لتصعدَ بهما، نظرتُ له نظرة طويلةً هجوميّة، وكرم يقف بجانبي كالصّقر؛ فعرفَ أنّ وجودَه سيقلّل من قيمته، اتّجه لسيارته وهو يتمتمُ بالتوعّد، جلستُ منزويةً في سريري أنعي آمالي التي ماتتْ قبلَ أن تولَد وترَى الضّوء، لكنّي سَرْعان ما فكّرت في أنّ هذا كان أفضلَ من إتْمام الخُدعة والدّخول إلى دائرته، لقد منحني الله المَدَدَ في كرم، الرّجل الرّيفي قليل التّعليم، لكنّه يحمل من الرّجولة ما لم يحملْه زوجي بنرجسيّته، ولا زوج مريم بخوفِه ممّن جاءت له بالولد، ولا زوج حور بطيشِه، ولا زوج مرام الثّاني باهْتزازه. حقًّا الرّجولةُ هبةٌ نورانيّة تُرزق في المهْد، وتبقى حتّى اللّحد؛ أمّا الذّكورة فصدفةُ تلقيحٍ في ظلام رحِم.

قرّرتُ بعد نقاشٍ طويل معَ نفسي ضاقَ به صدْري وانقبَضَ قلبي؛ أن أغلقَ تلك الصّفحة، ولا أفكّر فيها حتّى يأتيني الطّلاق أو الخلع، وأبدأ في محاولةِ التّعافي من إدماني لعلاقات التّواصل الاجتماعي؛ لأنّي- بالفعل، ومع كلّ تلك الأحْداث- كنتُ قد بدأتُ في التّعافي، أو هكذا تخيّلت!

ياسمين

أحكمتْ شِباكُ الوحْدة خيوطَها حوْلي كعصفورٍ كلّ ما تمنّاه حبّةُ قمح دفع ثمنَها عمرَه، عرفت معنى الخذلان بعد أمل، ارتفعتْ بي أمنياتي الملوّنة، لكنْ سَرْعان ما انْفجرت وأسْقطتني أرضًا، ليتَ العشمَ والأمل لم يُحلّقا بقلبى الذي ما عادَ يركن إلى شمالي؛ بل تجوّل في أحشائي يمزّقها، أشتهي الموتَ ولا أجد ريحَه، عاد الصّداعُ لكنّه لم يعدْ وحيدًا.. صادقَ في رحلتي اليأس والصمت، واصطحبَهما لداخلي كفنونى وأقاموا مأتمَ روحي، لم تفلح أنوار- بكلّ ما قالتْ وفعلت- في إخْراجي من تلك الحال.

وقفتُ في مواجهةِ مرآتي، وأنا لم أعدْ أدري مَن أريد أن أكون، ومَن أصبحت، وكيفَ النّجاة! حدّثتَني وأنا أجهل مع مَن أتكلّم..

- هل أصبتِ يا مريم عندما اخْترتِ إعدامَ أملِك؟ أشعرُ بك الآن، أنتِ لم تنتحري، لم تقتلي نفسَك كما يظنّون؛ بلْ قتلتِ الألمَ واليأسَ، وشنقت الضّياع والوحدة، رحلتِ وأنا أشتهي رحيلًا، فهل أرحلُ بطريقتك أم أرحل مثلَكِ يا حور؟ لكنْ إلى أينَ ومعَ من؟ أنتِ رحلتي مع أبيكِ الذي تثقينَ في حمايته، رحلتي مع حائطِ الصدّ الذي سيحجزُ عنكِ فيضان العالم، أمّا أنا فغريقٌ يُصارعُ الموت دونَ أملٍ، ولوْ في قطعة خشب تحملُه إلى يابس، لا لنْ أرحلَ مثلكما، سأتحرّر مثلَك يا مرام، لكنْ مَن سيحميني في وحْدتي، مَن سيجبرُ ضعفي المستقرّ ويمسحُ دمعي المُنْهمر ويشدّ ظهري المُنْكسر.

صورتي في المرآة مشوّشة، لم أعدْ أراني بوضوح، صرتُ بقعةً بعيدةً تتشعّب منها ظلالُ الأخريات، اهتزازٌ وترنحٌ داخلي يزعزعاني. أمسكتُ هاتفي الوفي، الذي لا يتغيّر، لأشعرَ بقليلٍ من الأمان، لأبدأ من حيثُ أردتُ أن أعود، سأمحو حسناء المهتزّة من داخلي، سأقتلها دون موتٍ، وأرحلُ عنها دونَ هجران، سأفتح عالمَ التّواصل على مصراعيْه، وأدخلُ تسابقني الرّياح، تلك المرّة لا أريدها مأساة، كفاني آلامًا وأحزانًا، سأخْرِج من داخلي فراشةً تتهادَى هنا وهناك حوْل الزّهور وبين أغصان الشجر، تواجه النّسيم الرّقيق لينعش أجنحتَها، وتفرّ من رياح الخوف، سأخْرِج قمرًا وناسًا تغرق صورته في أحضان البحور دون أن يواجِه مخاطرَها ووحوشَها، وإن كان هذا ما أريدُ فليس لي غيرها.. ياسمين ابنةُ جارتنا في بيت أمّي، كانت بهيّة شهيّة، متدلّلة في أدب، ومتهاديةً في وقار، تشقّ الهواء بجسدِها النّحيل كمركبٍ صغير يطوي سطحَ المياه، تعرف وجْهَة شاطئها، تحكمُ دفّتَها فتشقّ العواصف دون غرق، شخصيّة طاغية ذاتُ جاذبية بالرّغم من وسامتها المتوسطة، هي أوّلُ مَن أقنعني أنّ الجَمال ليس قسماتٍ ولونَ بشرة؛ بل روحٌ وثقة وذكاء، ابتسامتُها الصافية عذبةٌ تروي قلوبَ مَن حوْلها، ثقتها وذكاؤها دواءٌ لمرْضي الضّعف والخوف ممّن هُمْ مثلي، فنّانة رقيقة بديعةُ الإحساس، أصرّت على الالْتحاق بكليّة الفنون الجميلة، بالرّغم من حصولها على درجات تؤهّلها لأبعدَ من هذا، ريشتُها كانت عنوانها، تكبرني بعشرة أعوامٍ، أتذكّر الآنَ وأنا

ابتسمُ أوّل صورةٍ زيتيّة رسمتها لي، كنتُ طفلةً ذاتَ تسعة أعوام، التفتتْ لي بعد ساعات من التصلّب على وضْعٍ واحد؛ لتقول:

- جَمالُك نادرٌ يا حسناء، ملامحُكِ مميّزة، وأكثرُ ما يميّزك براءةُ عينيك اللامتناهية.

ليْتني بقيتُ على براءتي، ليتني أغلقتُ عليها قلبي ومشاعري، فلمْ تتسرّب منّي كماءٍ في كفّي، حسابي الجديد سيكونُ باسمها "ياسمين سعد"، ملأتُ الصّفحة باللوحات الفنيّة المنتشرة هنا وهناك، فدبّت فيها الحياة في أسابيع قليلة، تلك المرّة لنْ أختارَ فارسَ مغامرتي ممّن حولي، سأختاره حلمًا ووهمًا مثلي، لن أقفَ على الأرض بينما هو يحلّق في عالمِ الخيال، سنلتقي هناك، ولن أسرع بمُهْرتي؛ بل سأسير بها الهوَيْنى.

أتذكّر الآنَ قصّة حبِّ ياسمين وجارنا سامر، كنتُ ألمحُ الشّعاعَ الذي يصل عيونهما بالرّغم مِن صغَري عندما يتقابلان فأبتسمُ خجلًا، أحبّته حبًّا عاقلًا متزنًا، فلم يتحطّم قلبُها عندما أصرّت أمّه على إجهاض جنين حبّهما وزواجه من ابنة أختها، ولبّى هوَ ما أرادت ليضعَ علامة استفهام كبيرةٍ على قلبها، حزنتْ لكن دون سقوط، وأظنّها بكت لكن بلا دموع، كنت قد كبرتُ قليلًا يومَ زفاف سامر، جلستُ بجانبها في شرفتها وهي ترقبُ خروجَه ببدلته السّوداء وسط أصدقائه وأهله، لم تتوارَ، ولم يمنعْه وجودُها من النّظر ناحية شرفتها فقابلتْ عينيه الكسيرة بعينٍ عزيزة وابتسامةٍ باردة، قالت الكثيرَ..

- لماذا لم توافقي على أيّ خاطبٍ لتتزوّجي قبله؟ (قلتُ ما سمعتُه من أمّي ببراءة).

ابتسمتْ وهي تمرّر يدَها بقوّة بين خصلات شعْري، وتقول:

- أحطّم حياتي لإثبات شيءٍ ما لأيّ مَن كان! ذلك طيشٌ وجنون، اسْمعيني يا حسناء إيّاكِ أن تفعلي يومًا إلّا ما يقتنع به قلبُك وعقلُك معًا.

سقطتْ منّي نصيحتُها فسَقَطت، ليتني دوّنتها حتّى ولو بكتابة مختلّة وخطٍّ سيئ في قُصاصةٍ ورقيّة، وحفظتُها في صندوقي الصّغير مع عُمْلاتي وصوَري القديمة وأقْراطي وأساوري الخَرَز الصّغيرة، وعدتُ إليها قبل أن تختلّ نفسي وتسوء أخلاقي، فاتَ وقتٌ طويل قبل أنْ تلتقي ياسمين رجلَ أحلامِها وكنت قد خُطِبت لأشرف فلم يزحزحْ هذا حجرًا في كيانها، حاولتْ ياسمين تنبيهي لفارق السنّ فاعْتبرتها أمّي غيرةً وحقدًا، فهل سأستطيعُ أن أكونَها الآن بكامل قوّتها، وبالذّات بعد أن أطلّت نافذتي الجديدة على صفحة أحدِ الطيور المُهاجرة، وشعرت بنسمةِ هواءٍ لطيفة تسري في روحي؟

"أكرم الزّيني" رحَلَ عن مصر بعد أن تزوّج من فتاةٍ كنديّة ليعيشَ معها في بلدها، عمرُه لمْ يتجاوز الأربعين، صورتُه تحملُ وسامةً وجاذبيّة وبسمةَ أملٍ وحياة، تلك هي معلوماتُ صفحتِه التي لم أعدْ أتركُها، مقيمة بين منشوراته الحديثة التي تنالُ مئات الإعجابات ومنشوراته القديمة منذ سنوات، يثيرُ قضايا سياسيّة واجتماعية مميّزة تثيرُ الجدلَ مع تحيّز للرّجال، وما أنْ يصدر

المنشورُ إلّا ويبدأ الجميعُ في إبداء رأيه إمّا بموافقة أو اعتراضٍ لا يقبَلُه، لا يحبّ المعترضين فيلاحقُهم بردودٍ حاسمة وهجوميّة، غرقتُ في بحْرِه الهائج لتمرّ أمواجُ أيّامي الباردة، أراقبُه بصمتٍ وشغفٍ وقلق يبتعد بي عنْ حُلم الاقْتراب، المُعْجبات كثيراتٌ فما الذي سيجذبه نحْوي، كما أنّي لن أكونَ أبدًا البادئةَ، فتلك هي إحْدى قواعد اللّعبة التي أتْقنتُها!

لنْ أكونَ أبدًا البادئة، فتلك هي إحْدى قواعد اللّعبة التي أتقنتُها! لذلك تخلّيت عن رغبتي حتّى لا أزدادُ انقباضًا وضيقًا، واكتفيت بالتّواجد، مجرّدُ تواجُدٍ نجحَ في أن يخطف ساعاتي، لكنْ لم ينجح في إطفاء وميضِ تشويش ونسيان أشعرُ بهما ينْبُتان ويدبّان جذورهما في عقلي، النومُ أصبح ضيفًا يأتي ويرحل دونَ مكوث، يدقّ باب عيني، يغلقها دون دخول لكنّه كان يمنحني وميضًا قصيرًا بنورٍ يتلألأ من بعيد، يولد من ظلام وينتشرُ ليغمرني، فمتى سيأتي؟

وفي إحدى غفواتي عصرًا امتدّت أصابعُ قويّة تدق كتفي..

– حسناء.

فتحتُ عيني وأغلقتُها مرارًا لأتأكّد أنّي لا أحلم، ابتسم بشفقة:

– كيف حالُك؟ لا أراه بخير!

انتفضتُ أبحث عن دفء وأمان، ألقيتُ برأسي على صدره كطفلةٍ عاد أبوها من سفرٍ طويل:

– حسام، أنتَ هنا حقًّا؟!

كنتُ أتحسّسه وأخشى كونه طيفًا شكّلَهُ فراغي ووحدتي..

– أنا هنا. (قالها وهو يقاومُ دموعًا خجلت من السّقوط)

- نهى والأولاد معَكَ؟

- جئتُ فقط مِن أجلك، لم تستطعْ نهى الحصولَ على أجازة.

هززتُ رأسي فرحًا، سأمتلك تواجدَه في بيتي وحدي، سأحْيا معه ولو قليلًا من أيامي، ربتُّ على صدره بكفّي لأمنحَه حنانًا فاضَ في قلبي، ولم أعدْ أجدُ حولى مَن أهَبُه إيّاه، نهضتُ بفرحة أستدعي "أنوار" فانْطلقَ بخارُ طعام في مطبخي ضنّ به فقدانُ شهيّتي ورغبةُ الأولاد في الوجبات السّريعة، تلألأت أضواءُ بيتي هنا وهناك بعد ظلام، حقائبه أثارتْ فوضى مُمْتعة في بيتٍ خالٍ من الحِراك، أحمد وآلاء يقفزان وهُما يصفّقان فرحًا مع كلّ هديةٍ يُخْرجها، حتّى أنوار لم ينْسَها، هذه هي الحياةُ.. وهل الحياة إلّا حِرَاكًا حتّى ولو كان عراكًا!

جلسَ بجانبي نحتسي الشّاي، وضعتُ رأسي على كتفِه لأشتمّ رائحتَه التي تستدعي روحَ حسناء القديمة التي تاهتْ منّي، ربتَ على كتفي وقال:

- ما رأيُك لو نستدعي طبيبًا، حالُك لا يعجبني، الوهنُ يدبّ في وجْهك، وأحسبه قادمٌ من قلبك.

أثارتْ كلماتُه دموعي..

- طبيبي هو خلاصي من أشرف.

رويتُ له كلّ ما حدث، أسررتُ له أنّي لم أعدْ أحتملُ كوْنى حطبَ ناره.

- أفضّل الاحتفاظَ ببقاياي على أنْ ألقِيها إليه لينهشَها.

- وغْد، دومًا كان، وسيظلّ.

قالَها باشْمئزازٍ سرعان ما تبدّل ابتسامةً ومزاحًا:

- أعرفُ أكثرَ ممّا تقولين، إذًا فلتدقّ طبولُ الحرب.

علتْ ضحكتي، وعادَ قلبي يركنُ إلى شمالِ صدْري، وأنا أعيدُ كلماتِه:

- فلتدقّ طبول الحرب.

كانت حربًا شرسة ما توقّعتها، دقّ ناقوسُها في بيت عائلته وكان حسام فارسَها، اصْطحبني إلى هناك في وسط ذهولِ الجميع..

- كنتُ أعرف أنّ العقل عنوانُك يا حسام، هذا ما أردْناه منذ سنوات، عودةٌ طالتْ بعد غياب.

قالتْها أمّ زوجي بحنْكةٍ ودهاء.

لم تُجْدِ كلماتُها في إخجال أخي، فهزّ رأسَه بأدب شديد، وعقّب:

- عودةٌ للعلاقاتِ لا للأشخاص.

رفعتْ رأسَها بكبرياء، وتركت لضَبْعها الانْقضاض:

- إنْ جئتَ تبحثُ عن طلاقٍ فلا طلاقَ عندي، لن تتحرّر تلك التي بجانبك مهْما كلّفني الأمر، أسيرتي.. وستظلّ.

ابتلعَ حسام كلماتِه بغيظٍ ظهَرَ حنقًا على وجهه:

- أسيرتك بدلًا مِن أن تكون أميرتَك! تكلّمت كثيرًا وتحامقت أكثرَ، ولو لمْ يكنْ بينكما أحمد وآلاء؛ لما كانتْ هذه الزيارة، ألم تسألْ نفسَك ولوْ للحظة.. لماذا فصَلَ مجيئي عن مكالمتِها الأخيرة لي شهران؟

قابلَ أشرف كلامَه بنظرةِ سخريةٍ واستعلاء:

- أسأل نفسي! وهل مَن يملك هو مَن يسأل أمْ مَن يخضع؟

لم أتوقّع انقضاضَ حسام كالفَهْد:

- أوافقُكَ الرّأي، مَن يخضع هو مَن يسأل، لذلك وجَبَ عليك..

فتحَ حسام حقيبتَه وأخرجَ منها صورًا خليعةً لأشرف مع كثيرات، نثرَها حوْل المنضدة تحت نظرِ الجميع ونظري الذي وقَعَ عليها لأوّل مرّة، حقًّا كنت أشعرُ برائحة أنفاسهنّ تختلطُ بأنفاسه فأشمئزّ لكنّي ما تخيّلت ما رأيت قطّ. علت الدّهشةُ والاشمئزازُ وجْه أبيه، وعقدَ الخجلُ جفنيْ أمّه، بينما تملّكتني فرحةُ نصرٍ أشتمّه يقترب..

- أهكذا؟!!

قالَها أشرف بغيظٍ وحنقٍ أدْمَيا وجهَه..

- كنتُ أتمنّى عدمَ إخراجها للنّور، تمنّيت حوارًا رجوليًّا، لا تلمْ إلّا نفسك، سيتمّ الطّلاق حالًا، وستتنازل عن حضانة أحمد وآلاء، لا نريدُ أيّ حقوق مادية عدا الشّقة، هي لها ولأولادها.

ثارت ثائرةُ أشرف، وانتفضَ كالمجنون وهو يزيحُ الصّور بيدِه..

– هل تظنّ أنّك ببضعِ صورٍ ستلْوي ذراعي الذي لم يلْتَو من قبْل، أختُك مريضة نفسيّة، وسأثبتُ هذا بسهولة، وكلّنا يعْلم.

قالَها وهو ينظرُ لي باستخفافٍ وتحدٍّ جعَلاني أتساءل كيف اسْتطاع تزْيين حقيقته المشوّهة لفترةٍ في عيني!؟ أم أنا التي تشوّهتُ فَتَاهَ دليلُ الملامح الأصيلة من داخلي!؟ لن أنكِرَ.. وبالرّغم من تواجد حسام بجانبي إلّا أنّي بدأتُ في الاهْتزاز، أخشى أن يفرّ حبْلُ حريّتي من يدِه، فأعود إلى مشنقة أشرف، والذي أعلمُ يَقينًا أنّه لن يقتلني؛ بل سيجعلني أتأرجح بين الموت واللاحياة.

أفقتُ من شرودي عندما انتفضَ حسام ليقفَ حائلًا بين خوفي ونظراتِ أشرف المفترسة التي كادتْ تلتهمني، ليعلو صوتُه وهو يقول:

– ليستْ لقطاتك الُمخْزية وحدها، هناك تسجيلاتٌ صوتيّة وفيديوهات؛ لو عُرضت على أي محكمة سيحدُث ما أقول، يمكنُ أن نستمتع بها جميعنا الآن، لكن بعْدَ اسْتدعاء أختك وزوجها فلا اسْتمتاع دونَهما، وإنْ كانت أختي مريضة كما تقولُ فما أمْرَضها سواك، لن أخفي عليك.. أتمنّى فضيحتك لكنّي أتحاشاها فقط إكرامًا لأحمد وآلاء، اجْعلها ألّا تخرج من بين تلك الجدران. ثمّ وجّه حسام نظرَه إلى أبيه، وأكمل:

– نسبُنا كان بالمعروف، وأرجو أن يكون فراقُنا بالمعروف كما أمَرَ الله.

غزا الصّمتُ المكان، واعْتقلَ الألسنة، نظراتُ أشرف باتتْ كحيوانٍ جريح يرى نهايتَه ولا يصدّقها، يتمنّى الانقضاض على أيّ شيء ليرى دماء، أمّه لم تقوَ حتّى على النّظر لوجهي، أبوه يختلس النّظر إليه بخزيٍ وعار، جعله يصرخ في وجْهِه:

- استدعِ المأذون. ثمّ وجّه كلامَه لحسام بعصبية:

- سيتمّ لكما ما تريد.

حاولَ أشرف أن يثني أباه، لكنّه ما كادَ يتفوّه إلّا ورفع يدَه محذّرًا:

- لم يعدْ هناك ما يُقال، يجبُ أن تُغلق تلك المَهْزلة الآن.

عيني لا تصدّق ذكرى ذلك المشهد الذي دومًا ما أخشى أنْ يكون حلمًا سيتسرّب بمجرّد استيقاظي. انْشقّ صدْري وأخْرَج زفيرًا حَملَ معه روثَ سنواتي معه، يدي ترتعشُ بنفْسِ قوّة دموعي المُنْهمرة، وأنا أوقّع وثيقة طلاقي التي ستسحبُ مخالبَه من لحمي، ويوقّع هو وثيقة تنازلِه عن الأولاد، تباعدتْ ضلوعي وفُتِحت أبوابٌ ظننتُها ستقبض على قلبي ما تبقّى من عمري، وهبني حسام صكّ عتقي الذّهبي، تحرّر جسدي مِن اعتقال جسده، وتحرّر قلبي من ظلامِ لياليه، وتحرّر جثْماني الحيّ من تابوتِه الرّخامي الأسود العَفِن.

تحرّر جثماني الحي من تابوته الرّخامي الأسود العفن، لكنْ لم تتحرّرْ روحي، بتّ أعشق تعدّدي وإدماني، يحملُ نهاري توبةً وندمًا واستغفارًا يجْهِضهم ليلُ حرمانٍ طويل. سافرَ حسام من غيْر لقاءِ أبي، عزّ عليه وجودُ أخرى في بيت أمّي، سألته قبل رحيله:

- كيف فعلتها؟

حملتْ عيناه نظراتِ أسفٍ وامتعاض وهو يقول:

- أجهزة الكمبيوتر أصبحت كالبحار، لها عمقٌ وبحّارة وكذلك قراصنة، فعلتُها على مضض، لا تشغلي بالك، ماضٍ ورحَل، اهتمّي بصحّتك، أريد أن يعود القمرُ إلى تمامه.

قراصنة! وسائلُ التّواصل باتتْ لعنةً أبديّة لحقت بذيْل الجميع، ما بين رغباتٍ وانتهاكات واختراقاتٍ وفضائحَ، فهل أصبحَ لكلمة "العادون" الذي ذكَرَها القرآن شرحًا أفضل من هذا؟

- ألا تفكّر في العودة يا حسام؟ ميراثُك يمكنُه فعْلَ الكثير هنا.

قطعَ آخرَ شرايين قلبي وهو يقول:

- لنْ أخفي عليكِ، نفكّر أنا ونهى بالهجرة إلى أستراليا، المال ليس هو المقياسَ، نريد أن نحيا بشرًا لا رفاتٍ متحرّكين، لكنْ لا تخشي شيئًا؛ فوسائلُ التّواصل تقرّب البعيد، وتُحْضر الغائب في ثوانٍ.

هززتُ رأسي موافقةً بابتسامةٍ باهتة أخفتْ وراءها لومًا عنيفًا، أهكذا تسير الأمور! الحبال تهترئ والأرْحام تنْقطع، الأخوة باتت كلماتٍ وصورًا

على الشّاشات، أين الاشْتياق والوَنَس والأنْس؟ جرسُ البابِ المُتتابع، مفاجأة الحضور وتهليل المستقبلين للزّائرين، الأحضان والقُبُلات في اللقاء، أكياسُ فاكهة الودّ التي كان يسيلُ من قلبها شهدُ المحبّة، الريح الطيبة والطّعام المشترك، أكوابُ الشّاي التي ما تلبث أن تفرغ إلّا وتمتلئ، دعواتُ الكبار الطيّبة ودموعُ الأطفال عند الفراق، احتلّ مشاعرَنا جليدٌ لن يذوب، وأقفالٌ رَانَت على القلوب، احتلّت مشاعرنا كلمة "بلوك".

نجوتُ من براثن أشرف، وعدتُ من رحلتي معه وقدْ تشوّهت معالمي وضعتُ منّي، ولن يُعاقب أحدٌ بتهْمة عاهةِ روحٍ مستديمة، رحل حسام وبقي طيفُه الذي سأتمسّك به كدليلٍ لحسناء مع أحمدٍ وآلاء، أغلقَ على أخوتنا بابَ رحيل لم أذرفْ عليه دموعًا، لم يعدْ أحدٌ يستحقّ، فالكلّ هاجر في سماء أحلامِه غير عابئين بالتي تقف على أرضٍ مهتزّة تنتظرُ مددًا.

ما زالتْ ياسمين تداعبني وتقوّيني كلّما استسلمت للوَهَن، تذكّرني بكيانها الصّلب الذي لم يخرّ راكعًا عندما قابلنا حبيبَها، كنّا نسيرُ معًا أسفلَ العمارة، بدا نادمًا على زيجةٍ متسرّعة ظنّ أنّها ستمنحه الحياةَ فلمْ تمنحْه إلّا الاختناق وعدمَ التّفاهم، عرضَ عليها أن يُطلّق زوجته ويعودا، أتذكّر حوارهما كأنّه بالأمس القريب..

- وما ذنبُها؟ دُمًى نحنُ في مسرح عرائسك!! (قالتْها بسخرية)

- تعْلمين أنّ خيوطي في يدك، ولنْ يحرّك قلبي بعدَك أحد.

– خيوطُك في يدي! فمِن أين أتى ذلك الخيطُ الغريب الذي حرّكتْك به أمّك لما فعلت؟

– يمكننا أن نصلها.

– خيوطُنا كانت تتشابك لتحرّكنا معًا في حركةٍ واحدة حتّى قطعتها أنت، والخيوطُ المقْطوعة إذا تواصلتْ تحرّك أجسادًا، لكنّها لا تحرّك قلوبًا. قالتْها بقوّة تمنّيت معها أنْ أصفّق لها، لكنّي خجلتُ منه.

تحسّنت صحّتي بعد طلاقي، وعادتْ لي ابتسامةٌ تزيّن وجهي مع كلّ منشورٍ يُطلقُه أكرمُ فيطلق معه الآراء والمشادّات بين أصدقاء صفحته ليتهادَى هو في آخرِ الأمر، ويردّ هنا ويهاجم هناك، تعجبني روحُه الحرّة القويّة المنطلقة، ردودُه الجافّة شظايا والمهذبة نسائم، مللتُ من كوْني متفرّجة، فاقتحمتُ أحدَ منشوراتِه بتعليقٍ ساخر، كان المنشورُ عن ارتفاع هرمونات المرْأة في فتراتِ الحيْض وتشبيهه لها بالمجانين، يا لَحَماقة الرّجال وهُم يسْخرون ممّا لن يستطيعوا تحمّله إنْ ذاقوه! يسخرونَ من ضعْفِها النّفسي في حيضها ووهَنِها الجسديّ في حملها، ونزيفِ قوّة جسدها في إرْضاعها، وهي تمنحُهم مِن وراء قمّة الضّعف والوهن والنّزيف معنى الاسْتمرار، فهلْ سخر الجسدُ بضخامتِه من قلبٍ في حجْم قبضة يدٍ وهو ينبضُ ليضخّ له الحياة! وهل سخرَ البحرُ الواسع من القمر وهو يتحكّم في مدّه وجزْرِه، ردّي كان قصيرًا ساخرًا لا يخلو مِن هجومٍ سافرٍ من امرأة قويّة.

– وهل جرّبتها لتصفها؟

جنّ جنونُه عندما نالَ التّعليق إعجابَ الكثيرات والكثيرين أيضًا، الرّدودُ جاءت ساخرة، تمنّين قنْصَه فطرحته لهنّ أرضًا، ردّه جاء ثائرًا:

- ردّك يخلو من التّهذيب.

- ومنشورك يخلو من الرحمة.

هل أخجله ردّي ووضعه في مأزقٍ لدرجة أنْ سمعت صوتَ رسائلي الخاصّة يعلن قدومَ رسالته:

- لم أمسحْ تعليقًا من قبْل، لا أفضّل الهروب؛ لكنّي أيضًا لا أريد أن يطول الهجومُ بيننا.

قبّلته بضحكةٍ أنعشتْ خلايا قلبي، وأهديتُه هدية تقرّبه الذي لم أكنْ أتوقّعه.

- لم أقصدِ الإهانة، استفزّني الكلامُ فحسب، سأعتذرُ لك علنًا.

اعتذرتُ له على منشوره، ثمّ محوتُ التّعليق لأكتبَه هو ذاته بين سطوري.

- مسحتُ التّعليق، سامحني. (أرسلتُها مع رمْز خَجل)

توقّعت عدمَ الردّ بعد حصوله على ما أراد، توقّعت أن يغلق بيننا بابَ الرّسائل ليقتصّ منّي على فعلتي، لكنّه أبدًا ما فعلها.

- لا أصدّق مدى تهذيبِك، من قلبي أشْكرك.

حملتْ كلماتُه نسماتٍ رقيقة بيننا، اسْتدعيتُ ياسمين فتلبّستني ومنحتني تميّزًا عبرْتُ به خندق التّعارف الأوّل، فخرجنا منه إلى براح أوسع، جنة تواصلٍ خضراء، جلسنا نتسامرُ تحت إحْدى أشجارها، ما أعذبَ الخيال عندما تصلُ إلى قمّته، وما أمَرَّه وهو يُلقيك إلى قسوة الحقيقة، توقّفت رسائلُنا مع نسمات الفجر، كانت آخرُ رسائله تفتح بابَ علاقتنا التي لا يريد لها الانْتهاء كما لا أريد، توقيتُه الزّماني مُختلف، سأدخل سريري أتذلّل للنّوم ليحطّ رحالَه على جفوني، وهو في العمل، سبعُ ساعات بيننا.

- سنكملُ كلامَنا بعد انتهائي من العمل. اتّفقنا؟

- اتّفقنا.

لم تتوقّف رسائلنا بعدَها، هو هناك مدفونٌ في صقيع المناخ والبشر، وأنا هنا مدفونةٌ في صقيع الوحدة والحرمان، استدفأني فدفّأتُه، واستوحدني فملأ فراغَ أيّامي.

***

استدفأني فدفّأته واسْتوحدني فملأ فراغ أيّامي، منحني أكرمُ ما أردت دون ما لا أريد، وهبني ونيسًا عاقلًا مهذّبًا، طيفًا ساحرًا جذّابًا، راحة نفسية عميقة بلا آلام كالتي منحها إسلام لياسمين، انتَظَرت ياسمين طويلًا حتّى الْتقَتْه في أحدِ معارضها، ألقى نحوها شِباكَ حبّ وألفة جمعتهما فتشبّث بها ولم يفلتْها من بين يديه أبدًا، كوّنت معه بصبرهما واتّزانهما أسرةَ الأحلام السحرية التي يتمنّاها قلب كلّ فتاة، أنجبتْ ثمرتين يانعتين من شجرة طيبة،

اختلطت عندها القوّة بالصبر بالحكمة، فصنعوا نموذجًا ضنّت به الحياة على مَن هُم مثلي ومثل مريم وحور ومرام، لم أعرفِ السّبب، هل كان حكمة الاختيار أم الصّبر على الفقدان، أمِ التّروي المحمود، أم كلّ هذا معًا، والتي لم تتمتع به واحدةٌ منّا.

لنْ أطيلَ التفكيرَ في كلّ هذا، غصتُ في الأعماق إلى أنِ انقطعت أنفاسي، وعليّ أن أستمتع بسطح البحر الحاني الأزرق الشّفاف الذي أطفو على سطحه الآن، بدفء أشعّة الشمس صباحًا وهي تغازل موجاتِه، وبرقّة ضوءِ القمر ليلًا وهو يحتضنه اشتياقًا، ولأوّل مرّة يمنحني رجلٌ ما منحني أكرمُ من تفاهم وحياة، لكنّ الأجمل مِن كلّ هذا كوْني أصبحتُ حرّة لا أخون.

لم تطلْ بيننا الرّسائلُ؛ فالصوتُ أدفأ وأحْنى..

- انتظرتُ طويلًا لألتقيكِ.

قالها ليسَ بنبرة حبّ محمّد، ولا نبرة شهوةِ وليد، قالَها بصوتِ وحدّة تردّى صداه في فراغي فملأه، أعرفُ سببَ احتياجى لوجوده لكنّي أجهل إلى الآنَ ما الذي كان يبحثُ عنه، ولم يلتقِه؟

- هل أفهمُ من هذا أنّ علاقاتك النسائية متعدّدة؟

ردّ بخجل كنتُ أظنّه لم يرحلْ معه إلى الخارج:

- لنْ أنكر، لكنّي لا أخون.

- وما الذي تعنيه تلك الكلمات؟

رقّ صوتُه بحنان وجاذبية وهو يقول:

- تعني أنّني ما دمتُ معكِ فلن أكونَ على علاقةٍ بأخرى مهْما كان نوع العلاقة.

كلماتُه تحمل تناقضًا، هو بالفعل يخونُ زوجتَه.

- وزوجتُك!! ألا تعتبرُ علاقتك بأخرى خيانةً لها؟!

صمتَ قليلًا مع تنهيدة:

- لا تصدّقي كلّ ما ترين وتسْمعين، النّساء هنا جميلات رشيقات، لكنّهنّ لا يمتلكنَ أهمّ ما في الأمر.

- وما هو؟

- الحياةُ يا ياسمين، الدّفء، الحنان، التضحية، مُرتّبين.. لكنْ أكثر من اللازم.

- وهل التّرتيب عيب؟

- لَمن نشأ في بيئتِنا نعمْ، بعضُ العشوائيّة لا تضرّ، الجليد هنا لا يكسو الحياة فقط؛ بل يكسو القلوبَ والعلاقات، تمنحكِ الحياة ما تتمنّين وتأخذ معها دفء قلبِك والوَنَس والألفة، هل تتخيّلين أنّي إلى الآن لا أستطيع النوم في أوقاتِهم، والحياة هنا تبدأ مبكّرًا جدًّا حتّى تنتهي قبل الصّقيع، أمنيتُنا للطقس درجة الحرارة صفر.

كلماتُه أسرتْ برودةً في جسدي، فحمدتُ الله على دفء بيتي وحضن أولادي وعيون أنوار وقلب شيخي، تراه أينَ هو الآن؟

- ولماذا لا تعود؟ (قلتُها وأنا أقرّب شالي بيدي حتّى يدفّئ صدري)

- لأنّي تمزّقت وتشتّت، وضعتُ قدمي هنا بينما قلبي وروحي عندكم، كما أنّ زوجتي لن تقبل العودةَ معي، وسأرحلُ وحيدًا بلا أطفالي، النساء هنا حقوقُهنّ فوق حقوقِ الرّجال، وبالذّات مع مَن هُم مثلي، أكتفي بعودةٍ سنويّة بمفردي لأشتمّ ريحَ طيبةِ أمّي وشقاء أبي ورائحة طين الأرض الخضراء، للقاء أصدقاء الشّباب والتّسكّع معهم حتّى بزوغ الصباح.

- إذًا، فأنتَ تبحثُ عن لمسة دفءٍ قادمة من الشرق؟

قلتُها بغير عمدٍ، فضحكَ وعلتْ ضحكتُه:

- الشّرق! ألا ترين، حتّى كلمة الشّرق لها رنينٌ أعذبُ من كلمة الغرب، الشّين لها سحرٌ وجَمال وجلال.. الشرق.

تبادلنا الضّحكات ليسألني:

- وأنت! ماذا فعلتْ بكِ الحياة؟

توقّفتُ قليلًا قبل أن أجيب، لن أستطيع أنْ ألاقيه بصورةِ ياسمين المجرّدة، فياسمين زوجة، وأنا لا أريد أنْ تُذكَر تلك الكلمةُ مرّة أخرى عند ذكْري، وحسناءُ صورةٌ مهتزّة باهتة مهترئة لا تتّفق مع شخصه، لذلك قرّرت أن أصنعَ له مزيجًا بيني وبينها.

– أنا مطلّقة وأمّ لتوأم، وحيدة وحدةً لامتناهية، متجمّدة حتّى في بلاد الشّرق، لكنّي امرأةٌ بدرجةِ مقاتل، حسّاسة بدرجة فنان.

– لا توجدُ لكِ صورة شخصية على الصفحة، أليس هذا ظلم، تعرفيني ولا أعرفُك، تريني حيث لا أراكِ.

لم أعلّق، لا أريد أن يكون جَمالي وعمري هُما مفتاح الباب بيْننا، أريدها مشاعرَ إنسانيّة صافية، خلاصًا غيرَ مشروط.

– هل كان هذا الطلب معقّدًا لتلك الدرجة؟

– وهل ستصنعُ ملامحي فرقًا؟ (رددتُ سؤالَه بسؤال)

– سأسرّ لكِ، بعد تعليقِك السّاحر، وقبل أن أردّ عليكِ أردتُ أن أعرف من تكونين، قلّبت صفحتك لكنّي عدتُ خاليَ الوِفاض، عدمُ وجودِ صورة أسعدني وحفّز خيالي أكثر.

– وما السّبب؟

– نحنُ يا ياسمين في عصر يحترق فيه الكبرياءُ كالفراشات حول النّور، صفحاتُ النّساء تمتلئ عن آخرِها بصورٍ مُلْفتة، حتّى المنْتَقبات منهنّ لا يتوقّفنَ عن إصدارها، خلوّ صفحتك منكِ أثارَ فضولي وإعجابي، أحسبها أحدَ الأمرين.

– وما هُما؟

– كبرياءٌ شديد، أمْ جَمال لا تريدينَه؟ أيّهما يا ياسمين؟

أثارتْ إجابته التي تشي بذكاءٍ وخبرة شديدة؛ دهْشتي، توقّعتُ أن يكون أحدَ الأمرين قلّة الجَمال أو انعدامه، فقلت:

- أو انْعدام الجَمال.

رنّت ضحكتُه في أذنيّ، واخترقتْ قلبي، فأخرج ضحكةً صافية ضنّ بها طويلًا..

- أنتِ قليلة الخبرة كما توقّعت، لا ياسمين.. لم تتركِ المَساحيق والظّلال والإضافاتُ على الصّور وزوايا التصوير؛ فتاةً ليست بجميلة، على العكس تمامًا متوسّطو الجَمال هُم مَن يصنعون الصّخب على الصّفحات، والآن أينَ تختبئ الحقيقة، الكبرياء أم الجَمال؟

- لنْ أجيب؟

- أعدُك أنّك ستجيبين قريبًا جدًّا، وأقرب ممّا تتوقّعين.

***

أعدُك أنّك ستجيبينَ قريبًا جدًّا؛ بل أقربُ ممّا تتوقّعين، هكذا كان حال حديثِنا بين الذّكاء والتّذاكي، الحقيقة وأنصافها، الوجود الطاغي والبعد السّحيق، القيد والبَراح، لكنّه كان خاليًا من أيّ آلام أو كآبة أو رغبة أو مشكلات، ينتهي اليوم وقد عرف كلٌّ منّا ما صنعه صاحبُه بعدد ساعاته، لمَ نسمّي علاقتنا أو نمنحها وصفًا.

أنتظره باستمتاع عند عودته من عملٍ أو سفر، بينما بيتُه كلّه نيام، يرسلُ لي حتّى بصور طعامِه الذي يُعدّه، عرفت ما كان يبحثُ عنه، يشتهي الانتظار،

الشّهور تمرّ، وشيء غريبٌ يمرّ معها في قلبي، غيرةٌ لم أشعرْ بها يومًا تجاه أحد، ولا أقْوى على إظْهارها، أغارُ من متابعاته وتعليقاته عليهنّ، وبالذّات النّاعمة، أغارُ من زميلاته الأجنبيّات في العمل اللّاتي أثقُ أنهنّ جَميلات، وبالرّغم من ذكائه وذوقِه وحذرِه بعدم الإشارة إليهنّ إلّا أنّي أثقُ أنّه يخفيهنَ في ثنايا قلبه وعقله، باتَ إخفاءُ غيرتي مشقّة تكلّفني الكثيرَ من إرهاقِ أعصابٍ يبدو أنّه لمَحَه في صوتي:

- ما الأمر؟

لم أستطعْ إخفاءَ همسِ دموعٍ سالتْ في صمت تروي قصّة قلبٍ متعَبٍ واهن، ولم أستطعْ إخفاءَ انْهيار جَسدٍ يحكي حرمانَ سنواتٍ يتمنّى أنْ يحتضنَه عاشقٌ حانٍ:

كرّر سؤاله بصوتٍ خفيض زادَ كلّ هذا وأكثر..

- ما الأمرُ يا ياسمين؟ مهْما كان أريد أنْ أعرف.

- أغار!!

قلتُها حروفًا ارْتسمتْ فوق شفتيّ ولم ينطقْها لساني فلم تصلْ، سادَ بيننا صمتٌ وتنهيدةٌ أحسبُها حملت مشاعري بين أنفاسها، لم أستطعِ الكلام فأكمل:

- سأبدأ غدًا رحلةَ عملٍ ستسْتغرق يوميْن لن أستطيعَ محادثتك فيهما ولا إرسال أيّ رسائل.

خطفتْ روحي الكَلمات، هل وصله إحساسي فخافَ وتراجع؟ تمنّيت أن أستحلفَه ألّا يغادرني، أتوسّل إليه كالطفلِ الصّغير أنّي أخطأتُ ولن أغارَ مرّةً ثانية، أسترحمُه بأنّ رحيلَه مُرٌّ لن أستطيع تذوّقَ قطرة منه، لكنّي تذكّرت ياسمين وهي تغزلُ من الضّعف قوّة، ومِن الألم كبرياءً، ومِن الفراق سخرية، فأجبت:

- إذًا.. سأرتاحُ من انتظارك يوميْن.

- نعم، سترتاحين من انتظاري.

أغلقَ الخطّ وأنا في حيرةٍ من أمْرِه وأمري، أنظرُ إلى ذلك الهاتف اللّعين الذي يتقاذفُ قلبي بين موْجاته التي لا تنْكَسر، أبِتلك الكلمات القليلة السّخيفة تنتهي حياةٌ استمرّت شهورًا، هل كان عليّ أنْ أغار وأضعف فأخشى من الانْهيار فاستقوى وأطلق كلماتي السّخيفة التي يبدو أنّها أوْجعته، لكنْ لماذا لمْ يأخذْها أكرم على محْمَل المُداعبة أو الدّلال؟ أمْ فهِمَ أنّ مشاعري خرجتْ عن كوْنِها علاقة لا مسمّى لها فأراد التّراجع فاستمسك بسخافتي لتمنحَه حجّة غياب، شردتْ نظراتي وشحبَ وجْهي وطالتْ جسدي حمّى غيابٍ رفعَتْ درجةَ كآبتي.

- كنتُ أتوقّع حالًا أفضلَ بعد طلاقك.

قالتْها أنوار وهي تربتُ على كتفي بحنان.. أغمضتُ عيني ورحمتُ جسدي لدقيقةٍ من سطوة أفكاري.

- يبدو أنّ كتابَ عمري نُزعت منه كلمةُ الرّاحة.

هزّت رأسَها برفض، وانقبضتْ شفتاها بامتعاضٍ لتقول:

- الرّاحةُ والشّقاء سطران تكتب أيادينا كلماتِهما الأولى فيكْتَملان بما سطّرنا.

تلك المرأةُ باتتْ بالنسبة لي أحْجية، هل أبدلتْها الأقدارُ الغنى والرفاهية والإنجاب بالحكْمة والرّضا، أمْ هي نموذجٌ للفطرة السليمة التي تلاعبت بها شياطيننا وأنفسنا؟

- كيفَ يا أنوار؟

- تكتب يدُك الطّاعةَ والرّضا فيكتملُ السّطر راحة، وقد يمنُّ عليكِ بالسّعادة، أو تكتب سخطًا وعصيانًا فيكتملُ السّطر شقاءً وألمًا.

أطالتِ النّظر لوجهي الذي يبدو أنّه تحوّل لها كالماء الصافي فشفّ ما يدورُ في كياني كلّه، وأكملت:

- ابدئي سطرًا مستقيمًا بقلم الطّاعة لا يتعرّج يمينًا أو يسارًا تسعد أيامك.

أملتْ رأسي وأسندتها على يدي التي لم يعدْ لي سندٌ سواها أتابعُها إلى أن غابت، شردت في سكون نفسي يتأمّل خيالي سطريْن، سطرٍ من نور وسطرٍ من نار، صدقت، كلّ سطوري بدأتها بالشّقاء، سطر لحسناءَ الضّعيفة، وسطر لشروق الشّمس المحبّة المتزوّجة، وسطر لمريم وحور وياسمين المخادعات، فكيف يمكنُ أن تصلَ تلك السّطور البائسة للراحة! وكعادةِ النّصائح

تعتصرُها النّفوس الأمّارة بالسّوء في معصرة التّناسي وتلقي بقطراتِها في نفايات الأعْماق فتذوب، ذابت نصيحتُها .

السّاعات في غياب أكرم صارت جحيمًا خالدًا، سكنتْ رنّات وأجراس هاتفي فأصبح كالقتيل، أنظرُ إليه كأنّه سيجيب ويردّ، بات شيطاني الذي أريدُه أن ينهض ويتمثّل في أيّ صورةٍ حتّى ولو كانت مُخيفة فأطلبُ منه أن يحملني إليه أينما كان أتضرّع له بالغفران، الغفران! كلمةٌ ثقلتْ على نفسي، وأخجلتني منّي فما كان يجبُ أن يمتلكَ قلبي وتضرعي إلّا الله، أصبحتُ أصلّي قيامًا وركوعًا وسجودًا ورفع أيادٍ وآيات امْتنعت عن المرور على قلبي قبْل شفاهي، هاجرة قرآن.. أحاولُ وأحاولُ، ثمّ ما ألبث أنْ أعود، أصوم، جوع.. وعطش.. وجسد؛ لكنّ خيالي وقلبي لا يذوقا لذّة الصّوم، أقاتل لكنّ نفسي وشيطاني يجتمعان على روحي، فلم تعدْ تجدُ للفرارِ مِن جحيمهما الأبديّ سبيلًا.

لم تجدْ روحي للفرار من جحيمي الأبدي سبيلًا، تبدّل الشيطان فلم يعدْ هو الوجْه القبيح الذي صوَّرتْه لنا القصص والحكايات، أصبحتْ صورتُه أسطعَ وأبْهى، كان يعبثُ في الظّلام لا ثمنَ له؛ فغَدَا له محلّات تحمل أنواعَه في واجهاتٍ مضيئة بأثمانٍ عالية، لم نعدْ نحتاج لقراءة الطلاسم ولا البحثِ عن الجرّة المسكونة والفانوس السحريّ لنستدعيه، هي لمسةٌ واحدة ليخرجَ علينا من شاشةٍ ملوّنة يمنحنا ما تسكنُه أنفسنا ليصعدَ على سطحه نوازع دواخِلِنا الخفيّة، ترك سكنَ الحِمَم، وباتَ يسكُنُ قطعة مستطيلة تحملُها أيادينا، ولا نستطيع الاسْتغناء، لقد أصبح شيطانُنا هواتفَنا تركنُ إليها أنفسُنا فتهبطُ من مطمئنّة إلى لوّامة، ثمّ تدنو إلى أمّارة بالسّوء، لتدنو وتدنو إلى نفْسٍ خبيثة بامْتياز، هكذا تغيّر الحالُ وصرْنا عبيدًا له بعد أن أبى أنْ يكون من السّاجدين.

رنّ شيطاني بنغمةٍ ابْتعدت يوميْن عن أذني، نغمة نفضتني مِن مكاني أبحثُ عنه في كلّ مكان، رسالة من "أكرم" في وقتٍ ليس بوقته، احتضنته قبل فتحِها بعد أنْ كنتُ قد اقتربتُ من إلقائه في سلّة المهملات، لم تكنْ كلمات؛ بل كانت صورةً أدْهشتني فتساءلت:

- صورة قديمة؟

- بل عمرُها دقيقةٌ واحدة.

انْهمرتْ دموعي، وابتسمتْ شفتاي، وانخلعَ قلبي وطارتْ روحي:

- أنت في مصر؟ ما تلك المفاجأة!

– سيكون أوّل لقائنا على كورنيش المعادي، والشمسُ تغرق في نهر الحياة، لا تجعليني أنتظرُ طويلًا.

لنْ أستطيع أن أصفَ وأنا أتذكّر الآن تلك الفرحةَ التي انطلقتْ من قبضتي الصّغيرة البائسة المنزوية خلف ضلوعي لتنتشر في جسدي كلّه، استحممْتُ ليس ككلّ حمّام، كنتُ كعروسٍ تستعدّ لزفاف اشتاقتْ له، تأخّر لكنّه حان، ارتديتُ بنطالًا "جينز" وقميصًا اقتربَ من لوْن عينيّ، طرحة بيضاء وقليلٌ من ملمّع شفاه ورديّ، عقدًا جمعَ لونَ بنطالي وطرحتي، لم أحتَجْ عطرًا فلقد عطّرتني المفاجأة والفرحة بعطرٍ لا أريد زواله، كنت أقودُ سيّارتي على طول الكورنيش تتلألأ مياه النيل وتتلألأ معها ضحكاتي وخيالاتي، هل حقًّا سيجمعُنا مكانٌ بعد دقائق روحًا وكيانًا؟

لمحتُه من بعيدٍ على جانب النّهر، بينما أوقفتُ سيّارتي في الاتّجاه الآخر، تجرّأت شمسُ الغروب فألقتْ أشعّتها على وجههِ فتجلّت وسامتُه ورجولته، طويلٌ ممشوقٌ ذو شعرٍ أسود طويل نسبيًّا وكثيف، لحيةٌ سوداء تشرّبت بقليلٍ من الخطوط الفضيّة التي يحملها سنّ الأرْبعين، بشرةٌ بيضاء تشرّبت بحُمْرة، وبالرّغم من ملامحِهِ المصريّة إلّا أنّ إقامته بالخارج جعلتْه يبدو كسائحٍ أجنبيّ، أردتُ أن أردّ له مداعبته التي أوقفتْ قلبي يوميْن، كانت تتّجه نحوه سيدةٌ مسنّة سمراءُ ممتلئة تحملُ بسمةً في وجهها وهاتفًا في يدِها، فأرسلت له رسالة..

– ها أنت.

ضحكتُ ملْ قلبي، وشفتاي والوجومُ يغْزو وجهَه، وهو ينظرُ تجاهَها ويشيرُ بأصبعه كردِّ فعلٍ تلقائيّ ويقول:

- تلك أنت!

اجتازتْ السيدة سؤاله بعبوسٍ وهجوم، بينما كنتُ خلفَه مباشرة أدقّ كتفَه بأصبعي، التفتّ لتلتقي أعيننا التي أبتْ إلّا أنْ تذوب في بعضهما، فتخيّلت أنّ عينيه تلوّنت بخضاري واسودّت عيني بلوْن عينيْه..

- يا لَشَقاوتك، تخيّلتك كثيرًا، رسمتُ لك صورًا يمكنُ أن تفيض بها مجلّدات، لكنّي ما توقّعتك بهذا الجَمال والسّحر، ألم أقلْ سابقًا أنّه إمّا كبرياء أو شدّة جَمال!

خجلتُ من تعليقِه وعينيْه التي تلتهمُ تفاصيلي ووجهه الذي تلوّن بلوْن وردي، وأنفاسُه التي ارتفعتْ تصفُ حالًا اسْتبدّ به، واستبدّ بي أيضًا، كانت حقيبتُه ما زالت بين يديه..

- ألمْ تذهبْ إلى البيت؟

هزّ رأسَه نافيًا.

- عودتي كانت مفاجأتي لكِ، فأردتُ أن تكوني أوّلَ مَن تَرى عيني في مصر.

- حسبتُها رحلةَ غياب بلا عودة.

- لمَ؟

علتْ أنفاسي وتلألأت عيني بدمعتيْن سقطتا في هدوءٍ واستسلام، فلم يكرّر سؤاله، عبرنا الطريقَ معًا ووضَعْنا حقيبتَه في سيّارتي، أسقطت المفاتيح في يدِه، واسترخيتُ بجانبه ألقي برأسي على وسادة الكرسي.. أنظر تجاهه.. أستمتعُ بقرْبي منه وبأنفاسِه التي عطّرت سيارتي، كان أكثر ما أخشاه في تلك السّاعة لجنةُ طريق تكشف هويّتي الحقيقيّة، وتضعني أمامه في حرج لن أستطيع دفعَه مهْما فعلت، فإنْ كان يجبُ أن يعرف الحقيقة فليعرِفْها منّي وعنْ عمدٍ وليس صدفة.

توقّف بالسيارة أمام بيتٍ بمنطقة حدائق حلوان بجانبِ جامعِها الكبير.

– غدًا سنقضي اليومَ بطوله معًا، اتّفقنا؟

ابتسمتُ بملء شفتي شوقًا، وقلت:

– اتّفقنا.

ألقيتُ حقيبتي ومفاتيحي وهاتفي على فراشي، ولم أنسَ أن ألقي بجسدي قبلهما، النّشوى تتشعّب في شراييني، وأوردتي تضخّ دماءً ضنّت بها سنوات، الفرحةُ لم تغزُ قلبي فقط؛ بلِ احتلّت كياني بأكْمَله، هادنني النوم فاعتقلني في ساعةٍ لم أتمنّ الإفلات منها، كنتُ أظنّه سيمتلكُ أحْلامي كما أمتلك واقعي، لكنّي لم أرَ إلّا ذلك النور الذي يولَد من الظلام فينقشع، يقترب.. ويقترب، لكنّه لا يزال بعيدًا.

لم أرَ في حلْمي إلّا ذلك النورَ الذي يولَد من الظلام فينقشع، يقترب.. ويقترب، لكنّه لا يزال بعيدًا، أفقتُ على دقّات باب الغرفة، فُتح الباب لتحملَ لي أنوار رائحةً ظننتُ أنّي لن أشتمَها قريبًا.

- أبوك بالخارج.

لماذا جاءَ! ألا يُمكنني قضاء يوم بلا منغّصات! كان لقاءً ليس كسابق لقاءاتنا، تبدّلت القوة والطغيان ضعفًا وهوانًا، نظراتُه شاردة، الحزن يتغلغلُ بين خلايا بشرتِه المترهّلة.

- كيف حالُك يا أبي؟

- وكيف سيكون! بخير حال.

خانتْه نبرةُ صوتِه، ولم يطاوعه حالُه فوَشَيا بعكسِ ما قال، أينَ أناقته ورائحتُه العطرة وعنفوانُه الذي لم ينطفئ برغمِ سنواتِ عمره التي كانت قد تعدّت الستّين قبل وفاةِ أمّي..

- لكنّي أراك متعبًا ومجهدًا.

- قليلًا، أريدُ منك شيئًا وأتمنّى ألّا تبخلي به على أبيك العجوز.

قالَها بلهفةٍ حفزت خيالي لما يريد.

- ما هو؟

- ذهبُ أمّك.

تعجّبت من طلبه لكنّي لم أسأل عن السّبب، لا أريد أنْ أفتحَ أبوابَ عالم لم يعدْ عالمي، رحل ذهبُ أمّي منذ أكثرَ من ثمانية أشهر ولنْ يعود، فكّرت أن أخفي عنْه الأمرَ رحمةً به، لكنّ خيالي المريض استدعَى كلّ سنوات عمري المُهْدرة وخيباتي المتكرّرة وروحي التّائهة، ولمعَتْ في عيني ومضةُ انتقام.

- تبرّعت به كاملًا!!

ثلاثُ كلماتٍ تحوّلن إلى ثلاثةِ شياطين سكنوا عينيْه، وأطلقوا منها شرَرَ الجحيم.

- ماذا تقولين، ضيّعتِ ذهبًا أفنيتُ عمرًا في جمْعِه قطعةً قطعة.

قالَها بذهولٍ وقد اتّسعت عيناه عنْ آخرها، لكنّها لم تخيفني، فتجرّأتُ وقلت:

- كما قالت أمّي، هي امْتلكتْ وأنت استمتعت، وأنا دفعتُ الثّمن فأردتُ أن يكونَ ثمنَ عمري بيتًا في الجنّة.. لا على الأرض، حرّةٌ أنا في مالي.

صفّق بكفّيه مرّاتٍ ومرّات، ولم يستطعْ فعلَ شيء، العجزُ الذي شلّه حرّر شيئًا بداخلي، قام كمَن مسّه الجنون وهو يكرّر:

- ضيّعتِ الذّهب، ضيّعتِ الذّهب.

كانتْ أنوار تتابعُه بنظرةٍ مشفقة خلتْ منها عيني، وهو يفتحُ الباب ويدخل المصعدَ ويُغْلقه، وهو ما زال يكرّر كلماتِه، أغلقتِ الباب وهي تتعجّب..

- سيجنّ أبوك بسبب الذّهب، لماذا قلتِ له؟ كان يمكنُك المُراوغة مع عدم إعطائه إيّاه حتّى لا يموتَ كمدًا.

لنْ أنكرَ أنّني قلتُها قاصدة، لكنّي سأخرجُ لها من داخلي عذرًا، فهي الوحيدة دونَ أولادي التي لن أستطيع أنْ أفقدَ حبّها.

- لا تعرفينَ أبي، يصرّ دومًا على تحقيق ما يريد، كان سيعرف.. اليوم أفضلُ من غدٍ.

لم يشغلني أنّه طلبَ الذّهب، لكنّ ما شغلني لماذا طلبَه؟ هل امتصّت مُنَى كلّ أموالِه بتلك السّرعة المُدْهشة فخلَتْ جيوبُه؟ هل يخشى فقدانَها فجاء يبحثُ عن مصدرِ بقاءٍ لها ولو لفترة؟ هل أصبحتْ إدمانًا يُسكن بها أيّامه ووحدتَه كما دفعني لإدْماني ووحدتي؟ أم أنّ رغبات الرّجال المسنّين في الصّغيرات تفقدُهم كلّ حذرٍ وحيطة؟ أم أنا أرى الآنَ كرّة الزمان على الجاني الحقيقيّ في قضيةِ مقْتِلي؟

جلسْنا ثلاثتنا أنا وأحمد وآلاء نتناول العَشاء بالشّرفة، لم يعدْ أحدُهما يتساءل عن أبيه منذ عِراك السّيارة، كبرَا وبدءَا في فهْمِ الكثير من الأمور، استقرّ الوضعُ أكثر بالنّسبة لهما بعد طلاقي، لم يعدْ هناك منازعات، شجار،

خوف أو قلق من كلماتٍ خبيثة متبادلة، يعيشان معي كلّ ما يحلمان به، ويريان أباهما كلما أرادا وأراد، لم أمنعْ تواصلَهما الشّخصي به وبعائلتِه، ولم أسألْهما يومًا عن أيّ حوارٍ دار بينهما وبينَه، اتّزنت كفّتا ميزانِهما فهدأت نفْسَاهُما، واستراحتْ لذلك نفسي.

اختطفَ أكرم عائلتَه وأصدقاءه، فلم يحدّثني ليلًا كما توقّعت، لكنّي سأحيا معه الغدَ كاملًا، سيكون لي وحدي وأمتلكُه دون ما عداي، أفكاري تتسارع وتتزاحم وتتناسى أنّه لن يمكثَ في مصرَ أكثر من شهرٍ لأعود لدائرة الغيرة والوحدة والحرمان، لأعودَ خالية الكفّ ككلّ مرّة، لكنّ تلك المرّة ليست كسابقتها، أحببتُ "محمّد" وأنا قليلة خبرة ومضمحِلّة فكرٍ، ومتزوجة، ولِد حبّنا في ظلامٍ فدُفِن محلّ ولادته، لكنّ علاقتي بأكرم ولدت في النّور والحرية، فحقّ لها أن تعيش، لكنْ كيف وهو ليسَ هنا؟ تنهّدت وأنا أتمنّى أنْ يطلب الارْتباط بي حتّى ولو عاد شهرًا ستكفيني روحُه التي ستغمرني ما تبقّى من العام، سيكون ارتباطًا مثاليًّا لكليْنا، هوَ يبحث عن الدّفء، وأنا أبحثُ عن الوَنَس، وفي ظلّ وجود أولادي وأولاده سيكون ارْتباطُنا عادلًا، شهرٌ منه سيكفيني لأنتظره بعده أحدَ عشرَ وأنا أهتمّ بهما وهو يهتمّ ببيته وحياته.

عبيرُ الغدِ انْتشر مع أوّل خيوط الصّباح، لم أحظَ بالنّوم؛ بل تقلّبت في الفراشِ حتّى أرهقت راحته، أفكّر في كلّ كلمةٍ يمكن أن تُقال، وكلّ كلمةٍ لا يجبُ أن تُقال، سأعلنُ له حقيقتي في الوقت المناسب وسيتقبّلها، سأعترف له

بأنّي ما فعلتُ هذا إلّا حفاظًا على شخصي الحقيقي من أيّ تلاعب وسيحترمُ اعترافي، أكرم رجلٌ عاقلٌ متّزن، وسيمنحني ما أريدُ دون ما لا أريد.

وشْي ثيابي وعطري وبهجتي ولمعةُ عيني وتورّد وجنتي وبسمةُ شفتيّ بكلّ ما أخفاه لساني شهورًا، تلاقينا عند مكانِ أوّل لقاءٍ، وقرّرنا السيرَ على الكورنيش لفترة، لم أمتنعْ عندما أطالَ النّظر لعيني، وسحب كفّي ليغوص في كفّه، لم أتراجع بعد خطواتٍ عندما لفّ يدي لتعانق يدّه؛ بل لم أقاوم عندما زادَ وأحاطَ جسدي بيدِه، فلملمَ شتاتي فأحطتُ ظهرَه بيدي، لم تتحدّث شفاهُنا كثيرًا؛ بل كانَ جسدُنا هو مَن يتحدّث.

– جمّدتني ثلوجُ القلوب والصّقيع وجمّدكِ شتاء الوحدة والحرمان، وآنَ وقتُ ربيعٍ نذوبُ فيه معًا.. هكذا قال، وهكذا جالَ في خاطري، فهززتُ رأسي باستسلام.

توقّف عند فندقٍ شهيرٍ على كورنيش المعادي، وهو يقول:

– لنتناول الإفْطار معًا لأوّل مرّة، ولكنّها لن تكون الأخيرة.

غزتِ الفرحةُ قلبي، بدأ يلمح لما انْشغلَ به فكْري وكياني، لم أمتلك في ذكْرياتي أثمنَ من السّاعات التي قضيتُها معه ذلك اليوم لأنّني كنتُ حرّة بلا قيد، منحته خيوطي وتحرّكت معه مُغْمضة العينين، وقد انسحبتْ من جسدي أيّ مُقاومة تحت ضغط جاذبيّته الطّاغية، لكنْ بدأ القلقُ ينهش قلبي فلاحظَ هوَ ذلك..

- ما الأمر؟ أشعرُ بقلقٍ يعتريكِ.

- هل أنا واضحةٌ لتلك الدرجة؟

ابتسمَ وهو يغمزُ لي بعينه، ويقول:

- بالنسبةِ لي فقط، أنتِ طفلتي حتّى ولو لمْ أربّيكِ، وصديقتي حتّى ولوْ لم نتشاركْ سرًّا.. (ثمّ لمسَ ذقني بأصبعه وأكْمل).. وحبيبتي حتّى ولوْ لم نلتقِ إلّا بالأمس.

أنتِ طفلتي حتّى ولو لمْ أربّيكِ، وصديقتي حتّى ولوْ لم نتشاركْ سرًّا.. وحبيبتي حتّى ولوْ لم نلتقِ إلّا بالأمس. لم أرغبْ في الشّباب، ولم أتزوّج ولمْ أحبّ، ولمْ أدخلْ في أيّ علاقةٍ إلّا بحثًا عنْ تلك الكلمات التي لا يمكن أنْ يترجَمَها إلّا إحساسٌ طاغ عميق، مستحيلٌ أن يأتي ذلك المعنى من السّطح، لقد كان في الأعماق وطفًا فحسب، خدّرتني كلماتُه ومشاعره ووضعتني في مواجهةٍ مع نفسي المخادعة، الآن فقط يجبُ أن أعترف..

- أكرم، هناك ما أودّ قولُه لك.

ابتسمَ وهو يهمّ واقفًا، ويعيد نفس القول:

- وهناك ما أودّ قولَه لكِ.

سحبني من يدي كطفلةِ أبيها المدلّلة، سارَ بي في ممرّ ضيّق، وأمام مصعد الفندق طلبَه فلبّى طلبَه في لحظتها كأنّ كلّ شيء يطيعه، صعدَ بي إلى الدّور الثاني، وأمامَ إحدى الغرف نظرت له نظرة استفهام فهزّ رأسَه ويدَه بالصّبر، ظننتُ أنّ له صديقًا أو قريبًا سيخرج علينا ليشاركَنا لحظة ارْتباطنا، أخرجَ من جيبه مفتاحَ الغرفة، وأحاط خصري بيده ودفعني بداخلِها دونَ أدْنى مقاومةٍ منّي لا أعرف لماذا؟ هل أذهلتني المفاجأة، أم كنتُ ما زلت تحتَ تأثير خدرِ كلماتِه الذي لم ينسحبْ من دمي بعد، أم أنّ الانفرادَ معًا داعبَ مخيّلتي فطاوعَها جسدي! فقلتُ بخجل:

- حقًّا هناك ما أودّ قولَه لك.

اقتربَ وهو يلفّ يدَه حولى حتّى الْتَصَق جسدُه بجسدي، اقتربتْ أنفاسُه فزادَ الخدرُ في دمي، ولم أشعرْ إلّا بذوبان شفتي في شفتيه.

– أليسَ هذا ما وَددْنا قولَه، أحبّك ملء قلبي وروحي وكياني وجسدي، لم تغادري مخيّلتي منذ الأمس، امتلكتُكِ حلماً وأردتُكِ حقيقة.

أطاحَ بطرْحتي فسقطَ شعْري الذي لم أخبّئه إلّا مِن شهور، لكنّي شعرت بالعرْي، حاول إسقاطي على سريرِ الغرفة لكنّي كنتُ قد أفقتُ قلبي من غفوتِه، وأوقفت سريانَ الخدر في دمي، وكلّما مرّت تلك اللحظة في مخيّلتي لا أعرفُ كيف فعلتُها! هل حفظني الله بصدقتي التي خرجت من كاملِ نيّتي الحسنة؟ أمْ وقف ظلّ شيخي الذي لا يفارقني حاجزًا بيني وبين السّقوط؟ أم تردّدت في أذني ضحكاتُ أولادي العذبة وتلألأت في عيني عيونُهم البريئة؛ فأفقت؟ أمْ جذبتني أنوار بقوّةِ روحها بعيدًا عنه، أم اجتمعوا جميعًا ليمنحوني من القوّة ما يكفي للنهوض؟

– هل هذا ما وددت قوله؟

قلتُها وأنا أدفعُه عنّي، وألتقط طرحتي لتسترني.. نظرَ لي بدهشة كأنّ ما حدث أمرٌ طبيعي..

– نعمْ، أحبّك وتحبّينني، فلمَ لا يا ياسمين؟!

أخرجتُ الزّفيرَ الذي انحبسَ برئتي شهيقًا فقط عندما ذكّرني بأنّي ياسمين ولستُ حسناء، حمدًا لله أنّي لم أعترف.

- لِمَ لا!؟ هل هذا ما كان مِن أجله كلّ ما فات؟

امتعضَ وجهُه، وأداره عنّي وهو يتمتم:

- لا أعرفُ ما المشكلة، لم أكذبْ ولم أخنْ، قلتُ لكِ إنّي دومًا ما أبحث عن الدّفء، لماذا تصرّين على قتل شعورنا في مهْدِه؟

اسْتدعيتُ قوّة ياسمين وأنا أجيبُ وأستعدّ للرحيل.

- أهكذا يكون الدّفء! الآنَ فهمت، كلّ عام عصفور من الشرق تطيرُ معه شهرًا في السّماء الدافئة لتذيب ثلوجَك، حتّى لو أغرقه بعدَك ذوبانُها.

اعْتراه خجلٌ لنْ أصدّقه بعد ما فعل، تنهّد وهو يقول:

- كما توقّعت، قليلةُ الخبرة أنت، اعْلمي لحكاياتِك القادمة أنّه لن تمرّ علاقة رجلٍ وامرأةٍ متحابّين على كهف الرّغبة دون الرّغبة في الدّخول، الفارقُ أنّكِ أردتِه حلالًا، وأنا لن أستطيع.

قامتْ ياسمين بواجبِها نحْوي حتّى النهاية فلم تسقطْ دموعي أمامه لكنّي ما أنْ ركبتُ سيّارتي إلّا وانْهمرتْ من عيني وقلبي كطوفانِ أرضِ نوح وسمائه، لكنّها لم تغِض، لم أجَففها لتصفعَ وجنتي بدلًا عنّي ولتغسلني وتطهّر بعضًا من أثمي، كم مرّ من الوقت حتّى وجدتُ نفسي أمام مرآتي التي صارتْ أقْوى منّي فرفضت التحطّم، بينما تشرخُ كلّي حتّى تهشّم وتناثر حوْلي فأسال دماءَ كرامتي، أراني فيها فلا أعرفني، تحزنُ حسناء.. وتبكي مريم.. وتخجلُ حور.. وتندم مرام.. وتتهاوى ياسمين؛ مَن أنا في كلّ هؤلاء! هويتُ كما

هويتُ من قبْل لكنْ لم يكنْ هناك أب أو أخ أو زوج لتحادثَهم أنوار، تحمّلت وحدَها عبئي الذي خارَ به مَن حولي، نفس الصّفارات والوخزات، نفسُ الوميض الذي يضيء وينطفئ، نفسُ الأيام التي لا أعرفُ عددَها وأنا ملقاةٌ لا حولَ لي ولا قوّة على سرير الانْهيار، تسكنُ روحي عالمَ برزخي صنعتْه يداي، لا يتأرجح بين الحياة والموت ولكنْ بين الحياة واللاحياة، هي ذاتها ربتات كفيّ أحمد وآلاء التي تفيقني كلّ مرّة، هي ذاتها نظراتُ الشّفقة والعطف في عيونِ مَن حولي، هي ذاتها الوحدة والألم والنّدم، فليتني ما لامسته! لم أكنْ أعلم أنّه بلمسة واحدة سيتحرّك الجنّي الذي يغوصُ في أعماق كلّ شيء ليجذبني وأغوص أنا في عمقِ أعماقه، ثمّ... ثمّ لا أجدُ للصعود طريقًا!

ليتني ما اقتربت! كأنّ أقدامي لامست مياه محيطٍ ابتلعني سحر أمواجه في دوّامتها لأصرخ بصوتٍ مكتوم، ها هي يدي، فهل هناك مَن ينتشلني! أم سأظلّ أسيرتَه التي لا يصلها شيء حقيقي، التنفّس خدعة، الدّفء مزيف، السّطح مغطّى بالثّلوج التي ظننتُها يومًا قلوبًا بيضاء، ألهثُ لأجد طريقًا.. لكنّي في النّهاية أرتطمُ فأستسلمُ وأعود.

ذلك الماردُ الذي أطلقتُه بيدي مِن جرّته ليحقّق لي الأمنيات فسحبَ نقاءَ قلبي ثمنًا، يتغذّى عليه قطعةً قطعة، يرتشفُ روحي قطرةً قطرة، وأنا في اسْتسلامٍ أستعذبُ العذاب، ولن أنكرَ أنّني قدِ اسْتمتعت به.

حاولتُ مرارًا أنْ أنقذَ آخرَ قطعي وآخرَ قطراتي دون فائدة، ذلك العالم الذي لا موت فيه ولا حياة، أموتُ أنا فيه على فترات، تموت بداخلي واحدةٌ

لتنطلقَ أخرى كأنهنّ قريناتٌ استأجرْنَ روحي، فلم أعدْ أعرفُ مَن أنا ومَن أكون.

سأحاولُ أنْ أتذكّر، أن أنعشَ عقلي الذي توقّفت خلاياه، أن أصدمَ قلبي بصدماتِ الذّكرى علّه يعود مرّة أخرى من اللاحياة، أنْ أعطي روحي قبلة الحياة لمرّةٍ واحدة، وأنطلقُ لأتعرّف عليها قبل أن يعمى قلبي وتصمّ أذناي ويبكم لساني، أشعرُ أنّ قلبي يقترب من الظّلام الكامل، يتحسّس طريقه الخاطئ، يقع.. ينهض.. ليقعَ مرّاتٍ ومرّات.

سيأتي يومٌ لا أقوى فيه على التذكّر؛ لذا سأحاولُ الآن، فهل ستسعفني بقاياي، سأتذكّر قبل أنْ ينطفئ الوميض، وأصير شيئًا من عدم، سأحاول أنْ أستعيد ما كانَ وما لم يكن، أن أتذكّرني قبل أن أنساني.

حمدًا لله أنّي تذكّرتني ولم أنْسَني، أنا هي، حسناء، لن أصيرَ العدم طالما ربّي في وجداني، لن يعمى قلبي وتصمّ آذانى ويبكم لساني، سأنهض كمُهْرة كبت، لكنّها عادت واسْتوت، سأقيمُ جداري الذي أراد أن ينقضّ في عالمٍ بخيل لأحفظَ كنْزي، حتّى يأتي مَن يستخرجُه بحقّ، وبضراوةِ قسوةِ سنواتي حذفتُ صفحة ياسمين وأطلقتُ معها باقي جنيّاتي بتعاويذ الاستغفار، حوّلت شيطاني من نخّاس إلى خادمٍ ذليل لا أسمعُ منْه ولا أرى فيه، ولا أقول عليه إلّا ما يرضي ربّي عنّي، صرتُ أراني في أحلامي وقد تحوّل جسدي إلى قطعِ فحم صغيرة أُسبّح ربي فتضيء، أحمدُ ربّي فتضيء، أستغفر ربّي فتضيء، طالتْ رقْدتي وتدفّق معها نبعُ ندمٍ عذبٍ انْفجر من داخلي، ما الذي فجَّره.. لا أدري، كلّ ما أعرفه الآن أنّي سأرفع كفّي عن أبواب البشر، وأقف على باب ربّي ذليلة، وأثقُ أنّه سيجبر ضعفي وهو القويّ، سيرحمُ عذابي وهو الرحيم، سينير دربي وهو النور، شهور أحاول أنْ تشدّ نفسي نفسي من غياهبِ جبّ المعصية؛ فهل سيأذنُ ربّي بالقَبول، أعرف أنّ دقّاتي على بابه تصلُه فهو السّميع، يرى دموعَ عيني النّادمة فهو البصير، بتّ أسأله لطفًا ومددًا وعونًا، فهل أخلصتُ نيّتي فاسْتجابَ عندما دقّ جرس بابي، وأطلّت منه أنوار ومِن خلفها وجهُ شيخي الوضّاء، ابتسامتُه التي لا تفارق وجهَه انتقلتْ لشفتيّ، عيناه الوامضتان ببريقِ الحقّ أضاءتا نجمَ عيني الذي انطفأ

ذلًّا وخضوعًا للباطل.

– حمدًا لله على سلامتك. عدتُ أمس فقط، جئتك لتشاهدي ما بذَرَ قلبك في قلوبِ المحتاجين، فعرفتُ ما حدثَ من أنوار.

أطلقتُ جسدي الذي يحاول الصمودَ للتّهاوي، ولو قليلًا، وبدموعٍ نادمة تساءلت:

– سلامتي من مرضٍ جسدي، أم من مرضٍ قلبي.

تنهّد تنهيدةً طويلة، وهو يجيب:

– مرضُ جسدِك شفاؤه على الله وحده، فهو الشافي يطهّرك به، ومرض قلبِك شفاؤه عليكِ بإذن الله، ربّك يا حسناء لا يُمرضُ القلوبَ إلّا بما جنَتْ من بُعد عنْ حقّ، ومشاركةِ باطل، ونسيانِ ذكْر، وهجْران وِرْد، ونكران فرض، وإتْيان كبيرة؛ فتُجِب حدًّا من الحدود.

همْتُ أنْ أقول له إنّي كلّ هذا، لكنّي قاومتُ السّقوط، جاهدتُ الكبيرة ولم أنكرْ فروضًا، لكنّه رفعَ يدَه يستوقفني:

– اجْعليه سرّك بينك وبين ربّك، ليس في شرعنا اعترافٌ إلّا له، ولا عودة إلّا بحوْله وقوّته، ولا هداية إلّا بإذنه، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

- وأنا أرجو الهُدى، لكنّي ضعيفةٌ وحيدةٌ كسيرةٌ، وأنتظرُ منه الجبرَ والمددَ.

ابتسمَ وجهُه، وزادَ وضاءةً، ولمعتْ عيناه وهو يقول:

- ولقد جاءَ المَدد.

تمّت

عفاف سعيد

١١- ١٢ - ٢٠١٨

الثالثة صباحًا